المشروع القومى للترجمة

جابرييل جارثيا ماركيث

«مختارات قصصية»

(١٩٤٧-١٩٩٢)

تأليف

جابرييل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم

على إبراهيم على منوفى

مراجعة

صلاح فضل



٢٠٠٠

مدخل

لا يجد القارئ أو الباحث صعوبة شديدة عندما يحاول الاطلاع على بعض جوانب الإبداع الأدبى - خاصة السرد القصصى الروائى والقصة القصيرة - فى أمريكا اللاتينية أيًا كانت لغة الدراسة أو الأعمال الأدبية (فقد ترجم الكثير من هذه الإبداعات القصصية إلى العديد من لغات العالم) وتتحول سهولة الاطلاع إلى الطريق الصعب عندما يلاحظ الباحث والقارئ معًا أن البحث مسلط فى الحقبة الأخيرة على الرواية الأمريكية اللاتينية - باستثناء البرازيلية - ابتداء من الأربعينيات من هذا القرن وحتى اليوم مرورًا بأقصى درجات الازدهار خلال الستينيات والذى ربما يرجع إلى عوامل كثيرة منها ما يتعلق بالبنية القصصية وما طرأ عليها من تغير، ومنها ما يتعلق بالتجريب المستمر سواء على مستوى اللغة المستخدمة فى السرد أم على المستوى التقنى، ومنها الإلحاح المستمر من جانب المبدع على حقه فى ابتكار واقعه التخيلى الخاص به وطرائقه فى سبر أغوار الواقع القريب والمعاش، ومنها التنويع الشديد فى الموضوعات التى يتم تناولها[1] هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى أشار إليها بعض الباحثين، يتعلق بعضها بسياسة دور النشر فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا.

إلا أن هذه الوفرة فى المراجع والدراسات حول هذه الفترة تعانى فقرًا واضحًا عندما يتعلق الأمر بالقصة القصيرة سواء من الناحية النظرية أو فيما يتعلق بالدراسات التى تتناول هذا الإنتاج بأبعاده المختلفة.

لكن إذا ما كان علينا أن نقارن بين القصة القصيرة فى أسبانيا - من حيث دائرة الانتشار والصعوبات الجمة التى يواجهها الكاتب الإسبانى عندما يحاول نشر مجموعة قصصية[٢] وتلك التى يواجهها واحد من الكتاب فى أمريكا اللاتينية، لفاز الثانى على الأول من حيث قلة الصعوبات وسعة دائرة الانتشار. ومع ذلك فالأمر الهام الذى لم يبرزه النقد الأوروبى حتى الآن بالشكل المطلوب، هو المكانة التى تتبوؤها القصة القصيرة فى إطار تطوّر وازدهار فن السرد القصصى فى تلك البقعة من العالم، وربما كان السبب فى ذلك سوء الفهم الذى لا يعتمد على سند من الواقع والذى يتلخص فى أنه على مدى سنوات طويلة أُريد للقصة القصيرة أن تظهر على أنها النوع الأدبى التابع، أو الجزء المكمل للرواية رغم أنها فى حقيقة الأمر لا تقوم بهذا الدور أو ذاك فهى نوع أدبى له ملامحه الخاصة يرتفع صوته مدوياً ويطالب بإعادة تصنيف المادة القصصية[٣].

القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية هى أوفر حظًا - رغم العقبات - عنها فى أسبانيا خصوصاً عندما نقوم بالمقارنة بينهما خلال فترة الخمسينيات والستينيات. وهذا لا يرجع إلى فقر أو قصور فى العملية الإبداعية بين الأدباء الأسبان، وإنما يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادتهم مثل مساحات الحرية السياسية والأيديولوجية المتاحة وقلة دور النشر المستعدة لطبع المجموعات القصصية، هذا بالإضافة إلى قلة المجلات الأوروبية التى كانت مستعدة لنشر مثل هذه الأعمال الأدبية، وسيطرة الرقابة ... الخ[٤].

توجد ملاحظة أخرى متعلقة بمعالجة القصة القصيرة ضمن باب السرد القصصى بصفة عامة حيث لا يكاد أحد يتطرق لها، وإن حدث

ذلك فإننا نجد أنه من الناحية العملية مثلما توجد تيارات وتوجهات متنوعة في الرواية هناك "ترجمة لها في ميدان القصة القصيرة"(٥) ويُرجع البعض هذا النوع من التداخل في المعالجة – رغم الاختلافات البنيوية بين هذا النوع الأدبي وذاك – إلى " التطور الشكلي للرواية الذي لم يتم إلا من خلال القوالب الخاصة بالقصة القصيرة، كما أن هذه الأخيرة كانت الورشة الأولى التي تعلم فيها العديد من الروائيين، إذ كان عليهم مواجهة كيفية خلق لحظة إبداعية"(٦).

نظرية القصة القصيرة

كما سبق القول هناك القليل من الإسهامات في ميدان التنظير للقصة القصيرة بصفة عامة ورغم ذلك يمكن أن نبرز ثلاثة من القصاصين من أمريكا اللاتينية عبروا إما بشكل فيه نوع من التفصيل، عن رؤيتهم وهم أوراثيوكيروجا **H.Quiraga** وخوليو كورتاثار**J.Cartazar** وإنريكي أندرسن إمبرت **E.A.Imbert**.

أ- أوراثيوكيروجا:

كانت لهذا الكاتب العملاق إسهاماته الإبداعية التي أثرت ميدان القصة القصيرة من خلال تأليف العديد منها. وفيما يتعلق بالجانب النظري يتفق الكثير من النقاد على تأثره بالملاحظات التي كتبها آلان بويه "إذ تعلم منه التقنيات التي تجعل القصة القصيرة نوعاً أدبياً مستقلاً"(٧) كما جاءت إسهاماته التنظيرية في مقالين موجزين يحمل أولهما العنوان التالي: "دليل كاتب القصة القصيرة المتكامل" أما الآخر فيحمل عنواناً مشابهاً: "الحيل التي يتبعها كاتب القصة القصيرة" ولا

يخفى على القارئ النغمة الهزلية فى العنوانين المذكورين. وربما كان أبرز ما ذكره كيروجا فى مقاليه المذكورين مشكلة بداية القصة القصيرة وأن على الكاتب المبدع حقًا أن يضع فى اعتباره أن الهدف منذ البداية هو أن يعرف المقصد الذى يرمى إليه فالكلمة الأولى يجب أن تكتب وعينها على النهاية. وهناك نقطة أخرى تتعلق بالتفاصيل فالمجال أمام كاتب القصة القصيرة ليس متسعًا مثلما هو الحال فى الرواية وبالتالى عليه أن يلجأ إلى ذلك الإيجاز المتمثل فى تلك الجماليات الحقيقية والتفاصيل التى تتضمنها قصته وبحيث تكون ضرورية. ويضاف إلى ما سبق ما يسمى "بالجو العام المصغر" الخاص بالشخصيات وأن يأخذ الكاتب بأيدى شخصياته ويظل على هذا الوضع حتى النهاية وبحيث لا ترى تلك الشخصيات أى شىء آخر إلا الطريق المرسوم لها(٨).

هناك عناصر أخرى جوهرية وهى التكثيف ورسم الشخصيات وكلها تفصح عن التأثير الفاعل للعلاّمة الأمريكى آلان بويه.

ب - خوليو كورتاثار:

أجرى الكثير من النقاد والصحفيين العديد من الحوارات مع كورتاثار وتحدث كثيراً وباستفاضة عن الكثير من جوانب الإبداع الأدبى سواء بالنسبة للرواية أو القصة القصير:(٩) وسوف نعرض هنا لمقال مطول نشر له أكثر من مرة بعنوان : "بعض جوانب القصة القصيرة"(١٠) وينوه فى البداية إلى أن التنظير شىء والعمل الأدبى شىء آخر "فلا يمكن لأى تعليق نظرى أن يحل محل العمل الأدبى، وأن تعليقاته النظرية ترتبط أساسًا بمفهومه عن العالم وبطبيعة إبداعه الأدبى "الواقعية السحرية" والقصة القصيرة تخلو من كل ما يعتبر إضافة أو حشواً، فلا

يمكن لكاتب القصة القصيرة أن يلجأ إلى حيلة تراكم العناصر" فالزمن ليس فى صالحه والطريق الوحيد الذى عليه أن يسلكه هو العمل فى العمق أى أخذ قطاع رأسى. كما أنه لا توجد موضوعات جيدة وغير جيدة" فإما أن تكون القصة كذلك (جيدة) أم لا. ومع هذا فالموضوع لابد أن يكون به غموض "يشع شيئًا ما يتجاوز حدوده البسيطة" ولا يمكن أن يكون للمنطوق معنى إلا إذ ربطناه "بالتكثيف والتوتر" فهذان العنصران لا يشيران إلى الموضوع فحسب بل إلى المعالجة الأدبية وإلى التقنية المستخدمة فى تطويره. وفيما يتعلق بالتناول أو المعالجة يرى أنها تكسب الموضوع رحابة تتجاوز الواقع الظاهرى، الأمر الذى تحدث تأثيره الفعال فى المتلقى. ثم يتناول بعداً آخر يمكن أن ينطبق سواء على الرواية أو القصة القصيرة ألا وهو الخاص بالقارئ ذلك "الكائن السلبى والأقل حرصاً ويقظة" فما يكتبه المؤلف ليس بالضرورة أن يستثير القراء ومن يظن هذا يكون كمن يرى ابنه جميلاً ويعتقد أن الآخرين يرونه كذلك. ومن أجل الوصول إلى التأثير فى القارئ لابد وأن تتوفر "الحرفية والمهنية" فى المؤلف والتى يتمثل أحد جوانبها فى خلق هذا الجو، الذى يشير إلى قصة عظيمة، ويدفع القارئ إلى مواصلة جهد القراءة ويملك عليه لُبّه ويعزله عما حوله ثم يعود به بعد ذلك إلى الواقع بعد أن أصبح أكثر ثراء وعمقًا أو ربما أكثر جمالاً. إنهما عنصرا التكثيف والتوتر حيث تتضافر العناصر الشكلية والتعبيرية لتعطى صورة مرئية ومسموعة أكثر أصالة ونفاذاً. ومعنى التكثيف فى القصة القصيرة "استبعاد كافة الأفكار أو المواقف الوسيطة والبعد عن الحشو أو المراحل الانتقالية التى غالبًا ما نراها فى الرواية". ويصر كورتاثار كثيراً على ضرورة المعاناة وإلا أصبحت القصة مجرد ممارسة أسلوبية ليس إلا.

د- إنريكى أندرسون إمبريت :

منذ فترة طويلة وهذا الأستاذ الجامعى والقصاص والناقد ينشر تأملاته بشأن القصة القصيرة (١٩٥٩) وقد جمع آخر هذه التأملات بعد تطويرها فى كتاب "القصة القصيرة: النظرية والتقنية" وهو كتاب يتضمن ثمانية عشر فصلاً يتعلق بعضها بالأدب بصفة عامة ويتعلق البعض الآخر بفن القصة القصيرة متناولاً إياه من جوانب مختلفة سواء منها ما يتعلق بالمؤلف أو الراوى والتنويعات المختلفة للراوى وكذلك القارئ وتصنيف وجهات النظر وموقف الراوى والحدث والحبكة وعنصر الزمن فى الأدب والأزمنة النحوية. وقد قمنا بترجمة ذلك الكتاب الذى نشر ضمن مشروع الترجمة الذى يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

إطلالة على تاريخ
القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية

كثيرة هى الدراسات التى تتناول تاريخ الأدب فى أمريكا اللاتينية - وخاصة الإنتاج الروائى- خلال الحقبة التى أشرنا إليها سابقًا. ويختلف المنظور من دراسة لأخرى، فهناك من يتناول الإنتاج الأدبى فى كل دولة على حدة، وهناك من يأخذ فى الاعتبار العناصر الخاصة بنظرية الأجيال، وفى هذا المقام نجد أن تلك الفترة تضم فى آن واحد إسهامات "ما لا يقل عن خمسة أجيال"[11] وهناك دراسات أخرى تتناول هذه الفترة طبقًا للتيارات الأدبية السائدة وتفريعاتها المختلفة. وهناك من يقوم بدراسة كل أديب على حدة متناولاً أعماله ومراحل تطورها رابطًا إياها إما بجيل أو تيار أو بلد أو حقبة زمنية معينة. والحقيقة أن العملية ليست

من السهولة بمكان فاللفظة "أمريكا اللاتينية، تعنى ببساطة إنتاج خمس وعشرين دولة وتعنى أيضًا الأدب البرازيلى. ومع هذه الكثرة هناك اختلاف بين ظروف كل دولة، ومساحة الحريات المتاحة، ومدى صلة الأديب بالواقع، ومدى إطلاعه على الثقافات الأخرى، سواء الأجنبية - وخاصة الأوروبية - أو المحلية الضاربة بجذورها فى أراضى هذه المنطقة من العالم قبل وصول الأسبانيين وباقى الجنسيات إليها. لكن هذه العقبات لا تعنى استحالة العمل على إيجاد رؤية بانورامية يمكن من خلالها الاطلاع على أبرز جوانب الإبداع الأدبى وخاصة فى دائرتى الرواية والقصة القصيرة، فكل الدراسات مهما بلغت درجة الجزئية فيها تصب فى بوتقة بانورامية رغم الصعوبات القائمة.

يتفق معظم النقاد على أن النهضة بدأت فى ميدان السرد الروائى مع عقد الأربعينيات، إذ يمكن أن يرى التغيير فى التخفى التدريجى عن الاهتمام بوصف الطبيعة والمشاهد الريفية، وكذلك بدأ هناك تباعد عن أدب الإدانة المباشرة للمشاكل الاجتماعية الأكثر إلحاحًا. لكن ما الذى كان هناك فى أمريكا اللاتينية من تيارات أدبية قبل هذا العقد التاريخى ؟ لا نريد أن نعود للوراء كثيرًا ونبدأ القصة من خلق آدم فهذا ليس مجالها لكن علينا أن نشير إلى وجود المدرسة الرومانسية والتى تمثلت إحدى ملامحها فيما يطلق عليه "لوحات العادات **Cuadros de costumbres** " حيث الوصف والتركيز عليه، الأمر الذى أدى إلى حدوث خلل فى النسيج الإبداعى. ولما كانت الرواية - نظرًا لطبيعتها - يمكن أن تستوعب هذا الخلل فقد كانت ملامحه أقل "لكنها أكثر بوضوح فى القصة القصيرة"(١٢).

وبعد الرومانسية ظهرت مدرسة أدبية أخرى هى مدرسة الحداثة **El modernismo** حيث كان هناك جيلان أسهما فى تطويره بما

فى ذلك القصة القصيرة. وأول هذين الجيلين هو ذلك الذى يتزعمه كل من خوسيه مارتى Marti .لومانويل جوتيرث ناخيرا M.G. Nagera وروبين داريو R. Dario وأمادو نربو .. A. Nervoأمل الجيل الثانى فنذكر منهم ليوبولودولوجونس L. lugones وإنريكى لويس ألبوخار -E.L. Albu jar وأوراثيوكيروجا . H. Quiroga والاطلاع على إنتاج هذا الجيل الثانى يؤكد التنوع الشديد وبالتالى يصعب تحديد التيارات والاتجاهات المتعددة التى أخذ يسير فيها هذا النوع الأدبى[١٣] القصة القصيرة – الأمر الذى يؤكد أن إرهاصات التغيير والتحديث بدأت منذ وقت مبكر وقبل عقد الأربعينيات.

ربما كان جوتيرث ناخيرا أحد الذين كانت لهم إسهاماتهم الإبداعية في هذا النوع الأدبى إذ صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "حكايات هشّة" (١٨٨٣) ويلاحظ فيه "وجود تعليقات تصدر عن الراوى وكثرة علامات التعجب والجمل الاعتراضية التى يجرى من خلالها حوار بين الراوى والقراء الأمر الذى يطيل الخيوط الرئيسية للسرد (...) كما يلاحظ أن الراوى أحيانًا أخرى يتقدم بشروح وتفسيرات قاطعة وأحيانًا ما يتدخل فى الموضوع الأمر الذى يؤذى بالأسس التى تقوم عليها القصة القصيرة"[١٤] إلا أن البعد الخاص باللغة الرنانة والجزالة فى الألفاظ وسعة الخيال والثراء اللغوى غير المعهود أمام الفقر الواضح فى لغة المدرسة الطبيعية، كل ذلك كان هو الجانب الإيجابى فى هذه المدرسة ويمكن أن يرى ذلك بوضوح في اللغة التى عليها كتاب "أرزق Azul لروبين داريو الذى يتضمن عدداً من القصص القصيرة. أدت المبالغة فى هذا الجانب الإيجابى – اللغوى أدت المبالغة فيه أيضًا إلى إصابة النص بالإرهاق من كثرة الأخيلة والصور والألوان التى تظهر فى تكوينات لا نهائية.

هذه الفترة السابقة التى عاشتها القصة القصيرة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إنما تمثل المرحلة السابقة على مرحلة الازدهار التى أخذ السرد القصصى فى أمريكا اللاتينية يعيشها ابتداء من عقد الأربعينيات، حيث تم التخلص التدريجى من عيوب مدرسة الحداثة وأخذ الكثير من الكتاب يتباعدون عن المباشرة فى تناول الواقع ولم تعد هناك موضوعات محرمة وأخذ المبدعون يجربون أنماطًا قصصية جديدة، وكثر الاتصال بالمدارس الأوروبية والأمريكية وأخذت عيون الكتاب تطوف وتجول فى تلك الأرض الخصبة بإيحاءاتها وثقافتها الأصلية، وأصبحنا نرى أمام أعيننا "واقعية جديدة" أو "قصة جديدة". وأطلق على هذه الواقعية أحيانًا مصطلح "الواقعية السحرية" El realismo magico وهو مصطلح أطلقه فرانز روه Franz Roh عام ١٩٢٥ على أحد التوجهات الفنية اللاحقة على المدرسة التعبيرية، فهو نوع من الواقعية الجديدة التى تحاول رصد ما هو دائم، أى ماهية الواقع، على نوع من المعايشة بين الواقعية والبعد السحرى الذى يتجاوز حدود الواقع. وفى عام ١٩٤٨ أطلق الناقد A. Uslar Pietri هذا المصطلح على تيار قصصى فنزويلى فحواه الثورة على الصيغ المغرقة فى الواقعية. واعتباراً من هذا التاريخ أصبح له انتشار غير مسبوق رغم أن تطبيقاته كان بها تعسف واضح. ورغم ذلك يمكن القول أنه يتفق مع سمات "الواقعية الجديدة" إذ تتم محاولة تجاوز الواقع وإضافة بعد آخر له "السحرى وما هو عجيب وغامض". هذا البعد الآخر يحاول رصد عناصر الواقع" الآخر" بطريقة استعارية وهو ما يمكن أن يطلق عليه ما تحت جلد الواقع، الجانب الذى أهملته المدرسة الواقعية(١٥).

وهناك مصطلح آخر هو الواقعية العجيبة Lo real maravilloso الذى استخدمه أليخو كاربينتو عندما نشر قصته "مملكة هذا العالم" عام

١٩٤٩ حيث يشير إلى وجود فوارق بين ماهية ما هو عجيب على الطريقة السريالية فى شطحاتها الأدبية والكتابة الأتوماتيكية واللجوء إلى اللاشعور وما هو عجيب على الطريقة الأمريكية اللاتينية فهو واقع من نوع خاص تشكل بعض الأحداث الغامضة والعجيبة جزءًا لا يتجزأ من نسيجه، وقد أشار جارثيا ماركيث إلى هذه النقطة فى أكثر من حوار أجرى معه وسوف نعرض له فى حينه.

وقد أشرنا سلفًا إلى أنه مهما حاول النقاد رصد بعض التيارات الأدبية فى إطار الواقعية "الواقعية الاجتماعية والواقعية النفسية والواقعية السحرية – وهى الأكثر شيوعًا بتفريعاتها وتنويعاتها المختلفة – والواقعية البنائية والاتجاهات التجريبية بما فى ذلك مضاد القصة an-tinovela ... الخ فإن من الصعوبة بمكان الإلمام الشامل بها، كما أن من طبيعة المبدعين رفض الدخول فى إطار ما يسمى بالجيل أو التيار أو الزمالة .. ربما رغبة منهم فى التميز والتفرد. إذن المحاولة لا تعدو مجرد رسم خطوط عامة ورصد ما يمكن أن يسمى بالظواهر مع الأخذ فى الاعتبار السمات المميزة لكل مبدع يدخل فى إطار هذه الظاهرة أو تلك.

القصة القصيرة عند جارثيا ماركيث

قبل أن نبدأ معالجة القصة القصيرة عند ماركيث تجدر الإشارة هنا إلى بعض آرائه وتصوراته عن الإبداع القصصى عامة ورؤيته للواقع المحيط وفكرته عن الالتزام، فهذه جميعها تسهم بشكل كبير فى إلقاء الضوء على إبداعاته فى ميدان القصة القصيرة خاصة إذا ما وضعنا فى الاعتبار وحدة العالم القصصى، بتطوراته المختلفة، سواء فى القصة القصيرة أم الرواية عند جارثيا ماركيث.

من المعروف عن ماركيث أنه كاتب له توجهه الاشتراكى مثله فى ذلك مثل معظم الكتاب فى أمريكا اللاتينية، ومن المعروف عنه أنه واحد من الذين صفقوا للثورة الكوبية ١٩٥٩، وهو صديق لفيدل كاسترو. "أريد أن يصبح العالم اشتراكيًا – يقول ماركيث – وأظن أنه سيصبح كذلك عاجلاً أم آجلاً". لكن من يقرأ العبارة التى بين الأقواس قد يخرج بنتيجة مفادها أن أدب جارثيا هو أدب "ملتزم" وهذه لفظة أدخلت عليها العديد من التنويهات. الالتزام بماذا؟ نجد لماركيث تحفظات على أدب الالتزام وخاصة ما يسمى بالرواية الاجتماعية فهو توجه لم يؤت بثمرة أو يؤدى إلى نتائج كبيرة، كما أن "الناس فى أمريكا اللاتينية ينتظرون من الرواية ما هو أكثر من فضح الاضطهاد والظلم، فهم يعرفون ذلك لدرجة الملل منه". "إن الكثير من أصدقائى النشطين سياسيًا والذين يعيشون فى إطار شعورهم بإملاء معايير الكتابة على المبدعين إنما يتخذون موقفًا رجعيًا لأنهم يضعون قيودًا على الحرية الفنية. وأعتقد أن رواية تتخذ الحب كموضوع لها نفس الأهمية التى لأية رواية أخرى، فواجب الكاتب – واجب الثورى إن شئنا قول ذلك – هو أن يكتب بشكل جيد[١٦]. أما الواقع فهو مصدر الفن لديه وهو النبع الأصيل الذى يستقى منه المبدعون أعمالهم. والواقع فى أمريكا اللاتينية يوضح لنا، من خلال الحياة اليومية، أنه ملئ بأشياء غير مألوفة، ومن هنا يمكن أن ندرك سر مقولته: "لا تحوى رواياتى سطرًا واحدًا لا يستند للواقع"[١٧] فوجود غير المألوف وغير المعقول – الذى لا تستطيع العقلانية الأوروبية أن ترصده – يرجع بالنسبة لجارثيا ماركيث إلى عناصر كثيرة، فالجد والجدة من جليقية (أسبانيا) كانا يرويان له حكايات كثيرة تتعلق بما هو غير مألوف فى أمريكا، وحكايات ما وراء الطبيعة من الموروثات الجليقية. ويرجع أيضًا إلى إرث إفريقى وخاصة على السواحل الكولومبية المطلة على

منطقة الكاريبى[١٨]. ويؤكد ماركيث إلى أن رحلته إلى أنجولا (١٩٧٨) كانت تجربة من أروع التجارب لديه. أضف إلى ما سبق، من جذور أسبانية وأفريقية تدخل كجزء من نسيج ذلك الواقع المشار إليه، هناك مفاهيم وعقائد السكان الأصليين فى المنطقة. كل ذلك شكل قدرة على النظر إلى الواقع بطريقة سحرية لدى السكان[١٩].

يشير مرات عديدة إلى تأثير جدته عليه فى فن القص والحبكة القصصية وتداخل وتناغم خيوط الواقع الذى لا يرصده العقل وهو الجزء الآخر أو البعد الآخر من الواقع الذى لا يمكن رصده إلا من خلال جرعة إيمانية هى جزء أساسى من وعى الإنسان بما حوله، والمكمل للعقل وما يرصده. وفى هذا المقام يلاحظ من يقرأ الإبدا ع السردى لهذا المؤلف - الرواية والقصة القصيرة - أنه الراوى - يرفض بشدة أن يكون العقل وحده هو المصدر الوحيد لتفسير الواقع. وربما كان ذلك مرجعه إلى تمادى بريق الفلسفة الوضعية فى أوروبا وإلى ذلك التنوع والسحر فى عالم الواقع الذى يرصده الكتاب فى أمريكا اللاتينية.

ولجارثيا ماركيث رؤية خاصة بالحوار كعنصر من عناصر تكوين العملية السردية. والملاحظ قلة الحوار - كعنصر فنى فى الكثير من أعماله، فالحوار الشفهى فى اللغة الأسبانية له وقع خاص يختلف عنه فى الكلام المكتوب "إن حواراً جيداً فى الحياة اليومية لا يكون بالضرورة جيداً فى الأعمال القصصية، لهذا قليلاً ما أستخدمه"[٢٠]. وترتبط التقنية واللغة عنده بموضوع الكتاب، فاللغة المستخدمة فى قصصه القصيرة ورواياته "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" و"الساعة المشئومة" والكثير من مكونات المجموعة القصصية "جنازة الأم الكبرى" تتسم بأنها لغة موجزة ومحكمة وواقعية ولا تستهدف سوى التأثير. أما اللغة فى "خريف

البطريارك" فهى فى رأيه - أكثر الروايات التى ألفها اعتماداً على الفنون الشعبية وأقربها إلى الموضوع والعبارات والأغانى التى تتردد فى منطقة الكاريبى. وهناك جمل لا يستطيع أن يفهمها سوى سائقو سيارات الأجرة [٢١].

نشرت لجارثيا ماركيث أربعة مجموعات قصصية أولاها بعنوان: "عينا كلب أزرق" وتضم إحدى عشرة قصص قصيرة يرجع تاريخ كتابتها إلى الفترة من عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٥، أما المجموعة الثانية فتحمل العنوان التالى : "جنازة الأم الكبرى" وهو عنوان إحدى قصص المجموعة كما هو الحال فى المجموعة الأولى، لكن هذه المجموعة التى تضم ثمانى قصص كتبت كلها خلال عام ,١٩٦٢ أما المجموعة الثالثة فتحمل عنوان واحد من أطول القصص القصيرة - إن جاز ذلك التعبير - وهى الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرنديرا وجدتها القاسية"، وهى تضم سبع قصص كتبت خلال الفترة من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٨٢، وهذه المجموعة تحمل عنواناً مغايراً - أى ليس له صلة بأى من العناوين التى تتضمنها : "اثنتا عشرة قصة فى ترحال"، وذلك للإشارة إلى حالة الترحال والسفر والتعديل التى تعرضت لها قصص تلك المجموعة الأخيرة وقصص أخرى لم تر النور، إذ يشير ماركيث فى تقديمه لهذه المجموعة الأخيرة - والتى ترجمنا منها أربعة من هذه القصص - إلا أنه قد دون ملاحظات لعدد أربع وستين موضوعاً. ومع ذلك "فإن فكرة كتابة هذه الموضوعات المشار إليها بشكل متوالٍ ومن خلال الالتزام بوحدة الإيقاع الداخلى والأسلوب إنما يمثل مغامرة مثيرة إذا ما تمكنت منها"[٢٢]. كما يؤكد أن المجموعات الثلاث السابقة لا تربط بينها وحدة عضوية، فكل قصة مستقلة عن الأخرى ولها لحظة إبداعها الخاصة بها[٢٣]. ومع ذلك فإن القصة القصيرة فى إجمالى إنتاجه

القصصى تمثل جزءًا من الوحدة العضوية لعالمه القصصى، والذى بدونه لا يمكن أن ندرك ملامح البدايات الأولى لهذا الإبداع أو المراحل المختلفة التى مر بها طوال حياته الحافلة بالثراء الإبداعى. وإذا ما كان ماركيث ينظر إلى إنتاجه القصصى كجزء من إجمالى الإنتاج القصصى لكتاب الرواية والقصة القصيرة "فليس هناك خمسة من الكتاب يكتبون خمس روايات، بل إنهم يكتبون رواية واحدة فى عدة مجلدات". فلا عجب إذن أن تكون المجموعات القصصية جزءًا من هذه القصة التى أسهم بها ماركيث فى تناول أحد جوانب الواقع المعاصر فى أمريكا اللاتينية.

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق جزئية بسيطة أخرى، وهى أننا نرى الكثير من الشخصيات تعاود ظهورها من جديد سواء فى هذه القصة أو تلك الرواية، وكأننا بذلك أمام عالم يتحرك فى أرجائه "أفراد أسرة واحدة يجيئون ويذهبون[٢٤] بينما تأخذ الحياة سيرها المعتاد فى ماكوندو تلك القرية الخيالية التى صورها الكاتب فى "مائة عام من العزلة".

وإذا ما كان ماركيث قد تحدث عن بعض قصصه القصيرة – الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريندىدا وجدتها القاسية – ويقول بأنها "تمرينات على البيانو كوسيلة للوصول إلى الأسلوب الذى استخدمه فى الكتاب الجديد (صحيفة - **Triunfo** نوفمبر ١٩٧١)، فإنه يشير فى سياق آخر، وبعد ذلك بعشرين عامًا إلى أن الجهد الذى يبذل فى كتابة قصة قصيرة كبير للغاية وكأن المرء مقبل على كتابة رواية"[٢٥] إنها عملية إبداعية تأخذ فى اعتبارها كافة العناصر التقنية الخاصة بالقصة القصيرة كنوع أدبى. إلا أن الطول والقصر بالنسبة لعدد صفحات كل قصة أمر نسبى، فقد وصل عدد صفحات قصة "الحكاية العجيبة والحزينة ... " إلى ثمان وأربعين صفحة.

هناك أمر آخر يتعلق برؤية جابريل جارثيا ماركيث للقصة القصيرة. والحقيقة أنه لم يسهم بشكل مباشر فى التنظير لهذا النوع الأدبى، وأن كانت له بعض التنويهات والتلميحات التى تتناول القصة القصيرة فى سياق أحاديثه الكثيرة مع الصحفيين أو النقاد، فالقصة القصيرة عنده ليس لها عدد معين من الصفحات أو كيفية البداية أو ما هى خاتمة القصة أو التكثيف... إلى آخر تلك الملامح والمواصفات التى يرددها العديد من النقاد منذ أن نشر آلان بويه ملاحظاته عن القصة القصيرة. "فالقصة القصيرة – يقول ماركيث – ليس لها بداية ونهاية : إما أن تكون أو لا تكون. وإذا لم تأت فإن الخبرة الشخصية وخبرة الآخرين تعلمنا أنه من الأفضل بدء كتابة القصة من جديد أو تناولها من منظور آخر وإلا فإن سلة المهملات هى مآلها "[٢٦] وهو فى هذا الموقف يذكرنا برؤية أوراثيو كيروجا التى عرضنا لها قبل ذلك بشكل موجز والتى تتعلق بنظرية القصة، كما أنه – ماركيث – يتسق مع ما يردده دائمًا من معارضته وضع قواعد منظمة للكتابة أو الثبات وعدم التغيير والتجريب، فذلك معناه الموت للكاتب.

وتتسم القصص القصيرة لجارثيا ماركيث بالبساطة وعدم التعقيد فى البناء الفنى، مثلها فى ذلك مثل رواياته التى حازت شهرة واسعة – وهو فى هذا يعتبر استثناءاً أو شيئًا غير عادى، إلا أن كتاباته لها تأثيرها العميق حتى قبل أن ينال هذا القسط العظيم من الشهرة.

كما أن هذه القصص تمثل لدى بعض الكتاب والنقاد المدخل لعالمه القصصى، فبعد نشر قصصه: "الورقة الذابلة" (١٩٥٥)"ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" (١٩٦١) "والساعة المشئومة" (١٩٦٢) نشر بعد ذلك مجموعته القصصية: "جنازة الأم الكبرى" وهى مجموعة لها صلة

بالروايات الثلاث المشار إليها، كما أنها، رغم سطحيتها الظاهرية، تحوى سخرية مرة من أمومة "الأم الكبرى" ومن الخطابة والطنطنة الرسمية التى يلجأ إليها بعض الصحفيين فى كولومبيا. وتلا ذلك الشهرة التى حازتها روايته: "مائة عام من العزلة" وكان بعدها فى حاجة إلى أخذ قسط من الراحة أو البحث عن أسلوب جديد فى الكتابة من خلال التجريب والتطرق إلى أنماط قصصية مختلفة وذلك حتى يصل إلى الأسلوب الأمثل للبدء فى المشروع الضخم الذى أخذ يعد له، وهو روايته "خريف البطريارك" فكانت مجموعته "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب ..." هى ثمرة هذا الجهد الذى فكر فى توجيهه فى البداية – إلى الأطفال، لكن لم تسر الأمور كما أراد. أما مجموعته. "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" فهى الوحيدة التى أشار إليها على أنها المجموعة القصصية التى كان يصبو إلى كتابتها (٢٧).

هذه المختارات القصصية

تضم هذه المختارات اثنتا عشرة قصة قصيرة ثلاث منها تنسب للمجموعة الأولى: "عينا كلب أزرق" و"الإذعان الثالث" و"ليلة طيور الكروان"، وثلاث أخر تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهى: "قيلولة الثلاثاء" التى يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق، و"الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار" و"جنازة الأم الكبرى" أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين: "الموت الدائم فيما وراء الحب" وقصة "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيريندیدا وجدتها القاسية". أما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" على اعتبار أنها جزء من نسيج فكر فيه المؤلف

بعناية وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التى تدور حول رؤية جارثيا ماركيث - أو إن شئت الدقة الراوى - للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل فها هم مجموعة من المصيفين من الدول الاسكندنافية الذين وصلوا إلى أحد الشواطئ فى إقليم قطالونيا (أسبانيا) لقضاء جزء من عطلة الصيف (قصة : ريح الشمال) يحاولون إجبار أحد الفتيان من ذوى الجذور الكاريبية على الذهاب معهم إلى إحدى القرى الكائنة على الشاطئ الأسبانى والتى كان قد فر منها نظرا لأن ريح الشمال تهب عليها كل عام وتصيب أهلها بالفزع وتؤدى إلى الموت دونما سبب عقلانى مقنع. الشاب يرفض وهم يصرون. رفض الشاب مؤسس على عقيدة لديه تربى عليها فى الكاريبى، أما إصرار مجموعة الشباب من السويديين والسويديات فهو مؤسس على مفاهيم عقلية محضة لا تتلاقى فى كثير أو قليل مع عقيدة الفتى، وتشير الجملة الأولى فى هذه القصة إلى النهاية المأساوية التى تتسق مع عقيدة الفتى "رأيته مره واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونة. كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى".

وها هو الراوى فى قصة "الصيف السعيد للسيدة فوريس" لا يتجاوز عمره حين وقعت تلك الأحداث تسع سنوات يشير إلى أن هذه المربية التى تعاقد والده معها على مرافقته هو وأخيه فى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط أثناء شهر أغسطس بينما يقوم الأبوان برحلة بحرية تطوف بموانى البحر الأبيض المتوسط، هذه المربية لا تستطيع أن تدرك حالة الفزع التى أصابت الطفل الأصغر حينما رأى أحد الثعابين البحرية "أبو مرينا" معلقًا على باب المنزل وكأنه تعويذة غجرية. كما أن رفض أخى تناول هذا النوع من السمك ليس له ما يبرره - عندها - ذلك أنه كان طعام علية القوم كما أنها سمكة تمثل أحد الحيوانات الأسطورية

وبالتالى يجب أن تعامل بتقدير. كما أن الوالد يتعرض لانتقادات حادة من قبل الابن فهو "أحد كتاب منطقة الكاريبى كثير الخيلاء قليل الألمعية. وكان رماد المفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله، كما كان ميالاً للتنكر لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية، وفرض على نفسه وهماً هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه". كما أن هذه المربية تمثل النظام الذى يصل إلى درجة من الميكانيكية القاهرة فهناك ساعات محددة لتناول الطعام والاستيقاظ من النوم والخلود إلى السرير ومشاهدة برامج معينة والجلوس على المائدة بطريقة خاصة، وقبلها السير بدون صوت مسموع، وهناك ترتيب محدد فى الأطباق التى تقدم حتى عدد مرات المضغ لكل لقمة يتناولها. كل هذا يدخل فى صراع وتعارض مع مفاهيم سائدة فى الكاريبى ويدخل أيضًا فى صراع مع عقليات نشء فى طور التكوين.

أما البعد الآخر للجو العام الذى يربط بين قصص المجموعة الأخيرة فهو نقد - أحيانًا مباشر وأخرى غير مباشر- للأنظمة السياسية فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا، خاصة فترة حكم الجنرال فرانكو. ففى قصته : "رحلة طيبة يا سيدى الرئيس" يتناول البعد الإنسانى لحياة هؤلاء اللاجئين من أبناء الكاريبى فى أوروبا وحياة العوز والفقر وشغلهم للوظائف الهامشية فى المجتمع الأوروبى وحياة أناس آخرين هم أولئك الرؤساء الذى خلقتهم أنظمة أخرى أكثر طغيانًا. هؤلاء المخلوعين لا يصلحون لأى شىء فى الحياة حتى لشغل منصب الرئاسة، لكن إذا سمحت لهم الفرصة سوف يعودون لممارسة الدور الذى فشلوا فى القيام به، فها هو الرئيس السابق يبعث برسالة إلى "هومير وزوجته لاثارا" من بنى وطنه اللذين ساعداه فى لحظات مرهفة يخبرهم فيها وقد بلغ الخامسة والسبعين "أنه يرغب فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس

حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله"... إنه نوع من التفاخر التعس بأنه لم يمت فى سريره وإنما وافته المنية وهو يكافح فى سبيل قضية "عادلة".

وهناك خيط آخر يسير ليس بشكل موازٍ ولكنه جزء من نسيج القصة ألا وهو ما عليه أهل الكاريبى وأهل الشرق من إيمان بقراءة الطالع سواء على الطريقة الشرقية، قراءة الفنجان أو اللجوء إلى فتح "الكوتشينة"، أو إلى غير ذلك من وسائل قراءة المستقبل يستوى فى ذلك من كان رئيس دولة ومن هو من عامة الشعب "لاثارا" التى تمارس تلك المهنة خاصة مع علية القوم بحثًا عن لقمة العيش.

أما قصته: "جئت لأتصل بالتليفون فقط" فهى سيدة من أصل مكسيكى تعيش فى أسبانيا وتتعطل سيارة الأجرة التى كانت تقودها متجهة بها إلى برشلونة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع" وتحاول العثور على وسيلة للاتصال بزوجها فتعثر على أوتوبيس خاص ملىء بسيدات يتم اقتيادهن إلى مستشفى للأمراض العقلية وسط الغابات وهو مبنى كان ديراً فى الأصل، فتعامل على أنها واحدة من نزيلات المستشفى، وتحاول بكل جهدها التخلص من هذا العذاب وتلك المعاملة، وتتمكن من الاتصال بزوجها بالتليفون فيحضر لكنه لا يستطيع إخراجها فقد أقنعه مدير المستشفى بأنها مجنونة وعندها هوس بالتليفون والبحث عنه للخلاص، وعند ذلك تحدث القطيعة الفعلية بينهما فقد انضم بذلك إلى صفوف القهر والظلم والطاغوت التى لا يصلح معه أى شىء من محاولات التجميل مثل ذهاب الزوج كل يوم سبت للتسرية عن النزيلات من خلال ألعابه البهلوانية. فالكارثة أكبر من محاولة تجميلها أو البحث عن الأسباب الموضوعية - ظاهريًا - التى تعلن عن وجودها ولا يصلح أى شىء معها إلا زوالها.

وإذا كانت قصص ماركيث تتسم بالبساطة فهى غالبًا بساطة ظاهرية تحوى فى داخلها رموزًا معينة وواضحة، فهذه القصة "جئت لأتصل بالتليفون فقط" تبدأ بتلك العبارة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع، وعندما كانت تسافر وحدها وهى تقود سيارة مستأجرة تعرضت سيارة ماريا لويث ثربانتس لعطل فى صحراء "مونيغروس" فهل ذلك المساء الممطر من أمسيات الربيع يعنى إشارة واضحة الظروف إلى التى سبقت الانقلاب العسكرى الذى قاده الجنرال الراحل فرانكو ضد الجمهورية الثانية التى علق عليها الكثير من عامة الشعب الأسبانى آمالاً عريضة للخروج من الأزمة السياسية والاقتصادية التى عاشتها البلاد فى أواخر أيام ألفونسو الثالث عشر؟ وهل العطل الذى أصاب السيارة هو ذلك الانقلاب؟ كما أن الدير الذى تم تحويله إلى مستشفى للأمراض العقلية هل كان يمثل النظام الفرنكوى وبالتالى لم يكن هناك من حل إلا ذهابه وتحول البلاد إلى الحياة الديمقراطية بعد أن ترك النظام ندبًا وجروحًا غائرة؟

إن المتأمل لكل أو لأغلب الإنتاج القصصى لماركيث سوف يجد صراعًا دائرًا بين عنصرين فيهما إما تضاد كامل أو شبه كامل، فها هى العقلية الأوروبية التى تعتمد على العقل كسبيل وحيد لتفسير كل شىء والتى تدخل فى صراع مع عقلية أخرى ترى العقل ضروريًا لكن ليس الطريق الوحيد لفهم كل ما يدور وتفسير جوهره. هناك صراع بين قوى الطغيان وقوى الحرية. هناك صراع بين الأغنياء والفقراء بين الفن والمادية، بين لحظة المخاض الغنى والحاجة اليومية للوفاء بلقمة العيش. فها هى قصة "الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار" تعكس لنا تلك الصراعات. إن أحداثها تدور فى فترة زمنية لا تتعدى الثمانية عشرة ساعة ابتداء من الانتهاء من صناعة "إبداع" أعظم وأجمل قفص للطيور

فى العالم. ويتم استخدام عنصر الزمن هنا بطريقة تقليدية. ينتهى بلتثار من صناعة القفص بعد أن قضى خمسة عشر يومًا يسهم فيها كثيرًا فى إنجاز هذا الإبداع الفنى ولم يحلق ذقنه ولم يكن ينام بطريقة طبيعية. وإذا كانت زوجته مغتاظة لأنه أهمل العمل فى الورشة من أجل كسب لقمة العيش، فقد ذهب عنها الكدر فها هى القرية كلها تتحدث عن ذلك الإبداع الفنى العظيم وها هى الناس تتوافد من كافة أرجاء القرية لمشاهدة هذه التحفة الفنية. هذا هو نوع من الرضا الداخلى الذى سرعان ما ترجمته بمفاهيمها العملية إلى محاولة للبحث عن الرخاء المادى، فعندما سألت زوجها "كم ستطلب ثمنًا له؟ قال: لست أدرى سوف أطلب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين. فردت عليه: عليك أن تطلب خمسين فلقد سهرت ليال طويلة خلال هذين الأسبوعين، كما أن القفص كبير وأعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى". ليست انتهازية، ولكنها محاولة للخروج من عنق الزجاجة مثلما كان يتخيل بلتثار عندما ذهب فى المساء إلى البار بعد أن سلم القفص لابن "شيبى مونتيل" دون مقابل، وأخذ يحلم وهو برفقة الصحاب والجيران بأنه سوف يقوم بصناعة أقفاص كثيرة وجميلة ويبيعها للأغنياء ليستولى على شىء من أموالهم ويصبح هو الآخر بدوره غنيًا. كان الجميع يحيطون به على أساس أنه يمثل الأمل فى الخروج من وهدة الفقر والعوز والانتقام من الأغنياء الذين فقدوا الإحساس بالحياة وبمن حولهم. شيبى مونتيل ممنوع بأمر الأطباء من الانفعال - هذه ليست حياة - وهو حريص بشكل يجعله ينام القيلولة دون استخدام المروحة الكهربائية لا لتوفير الطاقة الكهربائية بل لما هو أخطر من ذلك وهو ألا يغيب عن سمعه أى شىء مما يحدث فى المنزل. لا يرضخ أبدًا أمام تلهف ابنه على ملكية أجمل قفص فى العالم، وعندما يترك بلتثار القفص للطفل بلا مقابل،

وخجلاً منه يحتج ذلك الغنى بقوله متعجبًا : "ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى". هذا الغنى كان عليه أن يرعى الفن ولم يفعل ، كان عليه أن يكون على مستوى المسئولية نحو الآخرين ولم يفعل، أما بلتثار – فقد أخذته العزة، ودعا رفاقه إلى تناول البيرة وإلى سماع جهاز الموسيقى لمدة ساعتين. ولما لم يكن معه من النقود ما يكفى، استدان وترك ساعته رهنًا ، وظل فى البار حتى ساعة متأخرة من الليل وقد انفض عنه الصحاب، وبينما هو متوجه إلى المنزل ويسير مترنحًا شعر بمن يحاول أن ينتزعه من حذاءه وكأن البشر تحولوا إلى جوارح تلتهم الجيف، ومع ذلك لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته ألا وهو الحلم بالتميز وتقدير المجتمع والعيش فى بحبوحة.

وإذا كانت الفئة الاجتماعية التى ينسب إليها خوسيه مونتيل تعيش حالة استنفار من الفقر والفقراء وبعداً عن الحياة وخوفًا على أموالهم، فإن الطبيب المثقف يقف عاجزاً أمام الوفاء بما وعد به زوجته بالحصول على القفص فهو لا يملك الكثير من المال مثل خوسيه مونتيل لكنه رجل يقدر الفن وأهله كثيراً، فقد أطرى على القفص لدرجة أنه قال: "يكفى أن يوضع القفص وسط الأشجار ليغنى" وأطرى على بلتثار قائلاً : "كان من الممكن أن تكون مهندساً بارعًا"

ولقد صور الراوى استحالة حصول الطبيب على القفص وأنه لم يرض بغيره بديلاً وإن فقده، بأن أخذ "يجفف عرق رقبته مستخدمًا منديلاً وهو يتأمل القفص فى صمت ودون أن يحرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل سفينة أخذت طريق السفر".

عندما يقوم ماركيث برسم ملامح الشخصيات يلجأ إلى ما هو ضرورى للغاية وذلك بغية خدمة الهدف المقصود، هذه الطريقة ضرورة

ملحة فى القصة القصيرة نظرًا لأن الإيجاز والتكثيف من السمات الرئيسية لها. وقد رأينا رسم ملامح الشخصيات فى القصة التى أشرنا إليها، ويمكن أن نراه بوضوح أيضًا فى قصته "قيلولة الثلاثاء" فالمرأة يبدو أنها طاعنة فى السن وذلك لبروز "العروق الزرقاء فى منطقة الحواجب وفى أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه" فهى عبارة عن كتلة صغيرة ليس بها أية جماليات. هذه هى الأوصاف الجسدية، أما الملبس فهو شديد البساطة عبارة عن "فستان يشبه ملابس القساوسة" أما ملامح الفقر البادية على الشخصية فقد تمثلت فى شنطة صغيرة من الجلد اللامع وقد تقشرت. إنها امرأة هادئة مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر، تركب عربة الدرجة الثالثة التى تجرها قاطرة تنفث دخانها المليء بذرات الفحم التى تدخل من نوافذ عربة القطار. طعامها قطعة من الجبن ونصف فطيرة من فطائر الذرة وقطعة بسكويت مسكرة. تمسح عرق وجهها بمسحة بأصابعها. لكنها شخصية قوية لها فلسفتها فى الحياة قامت بهذه الرحلة كنوع من تكريم ابنها الذى أصيب بطلق نارى وهو يحاول أن يسرق أحد المنازل فى تلك القرية بعد أن أعيته الحيل فى الحصول على لقمة العيش بطريقة شريفة. لم يكن الابن يفعل فى نظرها إلا الواجب المنوط به نحو إعالة أسرته رغم تعارض ذلك مع القوانين والأخلاقيات التى يخفى عليها رجال الدين. وأمام هذا الموقف استطاعت الأم بمفردها أن تواجه كافة أهل القرية التى لم يذكر جارثيا ماركيث اسمها فهى مثل كل القرى بأنماط مبانيها وما فى داخلها من أثاث.

بقى لنا أن نشير إلى بعد آخر من الأبعاد التى تتجلى فى السرد القصصى لجابريل جارثيا ماركيث. ويمكن أن نذكر نموذجًا لها فى "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرينديدا وجدتها القاسية"، فرغم

أن القصة طويلة إذ تبلغ فى بعض طبعاتها ثمان وأربعين صفحة فإن العبارة الأولى تفصح عن فحوى ما سيدور على سطورها. كما لوحظ انتقال الراوى فجأة من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم فى مرحلة معينة من مراحل سرد هذه القصة. فالبعد الأسطورى يكاد يغزو كل شىء فيها، فالجدة قاسية القلب لدرجة لا تصدق، وهى ضخمة الجثة كأنها سبع البحر "يسبح فى حمام من الرخام" والحفيدة إيريندبدا لها قدرة عجيبة على أن تسحر البشر كافة بجاذبيتها الجنسية وهى قادرة على أن تنادى بأعلى صوتها الداخلى فيسمعها البطل - عليس - وهو على بعد كيلو مترات منها، وهى قادرة على أن تضاجع آلاف الرجال إلا أنها تحتفظ بطهارة القلب. الجدة هى تلك المرأة التى عندما تصارع البطل عليس يخرج الدم منها بلون أخضر - شىء لا يصدق - هى أيضًا "السيدة" أو "الهانم" - إن صح القول - وذلك فى إشارة واضحة إلى تأثير قصص الفروسية فى أوروبا العصور الوسطى وخاصة القصة الأسبانية "أماديس دى جَولاَ" حتى زوجها كان اسمه "أماديس" تبلغ درجة الأسطورية فيها أن الفتاة تنام وهى تمشى، وتؤدى بعض الأعمال المنزلية. هذه الفتاة لها قدرة عجيبة على تفسير الأحلام التى تلعب هنا دورًا هامًا فى استحضار الماضى البعيد خاصة تلك التى تحلم بها الجدة، وكذلك فى التنبؤ بالمستقبل، وليس هذا فقط بل هناك وصل حميم بين حياة الوعى وحياة اللاوعى، فكلاهما مكمل للآخر، فعلاقات النوم عند الجدة هى أنها تبدأ تتحدث بصوت عال عن أمور حدثت وتحدث وسوف تحدث. هناك أيضًا عالم المهربين والقدرة العجيبة على زراعة برتقال به قطع الملس، والمنزل المليء بالساعات التى كانت فى حاجة إلى ما لا يقل عن ست ساعات لضبطها وملئها.

إنها قصة تعكس تناغماً عجيباً بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية.. وتناغماً عجيباً فيه بساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الأسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع الذى هو السر الأساسى - بالإضافة إلى عناصر أخرى - فى تلك الشهرة التى طبقت الآفاق والتى استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية.

هوامش:

1- Galvez - Marina "H. critica de la lite. Hispanica" (33)
Taurus - Madrid 1992 - pags 51 - 52 - 53 - 54

2- د. علي إبراهيم منوفي، "القصة القصيرة فى أسبـانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية - مكتب الحسينى - القاهرة - ١٩٩٥,

3- P Walker Enrique Pupo
La trayectoria Y significacion del cuento Hispanamericano
- (El cuente Hispano. Ante la critica. Castalia Madrid p 1981
pags 9 - 10.

4- Martinez cachero J.Ma -
Historia de la novela espanola entre 1936 y 1975
Castalic- Madrid pag. 198 y ss.

5- Galvez - Marina op cit pag 17

6- W.E Epupo op. cit. pag 11

7- Alazraki - Jaime "Relectura de H. Q. (el cuento H. ante la critica op. cit pag 64.

8- Valcarlal - Carmen de Mora enlas.
" Teoria y practica del cuento relatos ds Julio Cortazar..
Escuela de estudios hispano americanas (C.S.IC.)
Sevilla 1982 pag 23 ys.

9- Par ej : Bermejo , Ernesto Gonzalez
Conversacianes con cortazar
Editoial Hermes - Mexico 1978

10- Cortazar Julio
"Algunas aspectos del cuento"
Cuadernos Hispano- americanos n- 255
Marzo 197 - page 403 - 416

11- Galvez - Marina, op. cit. Pag 14 y 15

12- W. E. pupo op. cit. Pag 10

-13 Munoz Antonia "Notas Sobre Los rasgos formales del cuento modernista. El cuento hispano americana ante la critica" op. cit pag. 53

-14 Ibid pag 54

-15 Galvez - Marina op. cit. Pag 150 - 151

-16 د. حامد أبو أحـمـد، "قراءات فى أدب أسبانيـا وأمريكا اللاتينية" عرض تلخيص لتلك التوجهات فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب - الهـيئـة المصرية العـامـة للكتاب - القـاهرة ١٩٩٣ - ص ١٧١ والصفحات التى تليها.

-17 "جـابريل جارثـيا مـاركيـث" ترجمـة إبراهيم وصـفى - طلاس للدراسات والتـرجمة والنشر - دمشق، الـطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٢٦ (ملاحظة) قمنا بنقل النص المترجم بتصرف.

-18 نفس المصدر ص ٧٧

-19 نفس المصدر ص ١١١ - ١١٣

-20 نفس المصدر ص ٧١

-21 نفس المصدر ص ٧١

-22 Doce Cuentes peregrinos - Mondadori Barcelona - Segunda edicion 1992 pag 14

-23 Ibid pag 14

-24 Alazraki J. op. cit. Pag 66

-25 Doce Cuentes .. op. cit pag. 14

-26 Ibid pag 15

-27 Ibid pag 15

الإذعان الثالث

(١٩٤٧)

ها هو ذلك الضجيج مرة أخرى، إنه الضجيج البارد والقاطع والرأسى الذى يعرفه كثيرًا، غير أنه جاء هذه المرة أكثر حدة وألمًا وكأنه، بعد انقطاعه عدة أيام، بدا وهو غير معتاد عليه.

كان الضجيج يطوف فى أرجاء الجمجمة بصوت واخذ ومكتوم. كأنه خلية نحل وضعت بين الجدران الأربعة لرأسه. يزداد الضجيج ويعلو فى أشكال حلزونية متتابعة، ويضربه بعنف لدرجة تهتز معها فقرات عمود الظهر اهتزازًا غير منتظم وغير متسق مع الإيقاع الطبيعى لجسده. لقد اختل شىء ما فى هيكله كإنسان ثابت البنيان. وهذا الشىء كان يؤدى عمله بانتظام "فى المرات السابقة" إلا أنه يدق الرأس من الداخل بعنف بضربات قوية ومكتومة من خلال عظام يد هيكل عظمى، وكأنه يذكره بكافة منغصات الحياة.

واتته الرغبة الغريزية فى إطباق قبضتى يديه والضغط على الصدغين اللذين تبرز منهما الشرايين الزرقاء والمحمرة بدرجة تتوافق مع ضغط الأمل الذى لا يتوقف. كم كان بوده أن يمسك بكفى يديه ذلك الضجيج الذى كان يحفز اللحظة مستخدمًا إبرة حفر ماسية. وصدرت عنه حركة كأنه قط

أليف انكمشت عضلاته عندما تصوره، وكأن أركان دماغه الساخنة والمفزوعة تطارده. كان سيمسك به. لا. كان جلد الضجيج ناعمًا لا يكاد يُحسّ. إلا أنه على استعداد للسيطرة عليه مستخدمًا استراتيجيته التى تعلمها جيدًا والضغط عليه طويلاً وبشكل حاسم كأنه إنسان فقد الأمل، ولن يسمح للضجيج أن يدخل مرة أخرى عبر أذنيه. وأن يخرج من فمه ومن كل مسامه أو من عينيه اللتين قد تهتزان بشدة عند خروجه، وربما تفقدان الرؤية وهما تحدقان فى هروب الضجيج من أعماق ظلمته الكئيبة. لن يسمح له بالاستمرار فى الضغط بعنف على زجاج العين المطحون، وعلى البريق الصادر عنها وعلى الجدار الداخلى للجمجمة. هكذا كان ذلك الضجيج، لا يتوقف وكأنه طفل يضرب رأسه فى حائط أسمنتى، مثله فى ذلك مثل تلك الضربات الموجعة التى توجه ضد المكونات الثابتة فى الطبيعة. لكنه لن يخيفه مرة أخرى إذا ما استطاع حصاره وعزله. ثم تقليص تأثيره والضغط عليه هذه المرة بشكل حاسم. وبعد ذلك يقوم بكل ما أوتى من قوة بالإلقاء به على البلاط، وأن يطأه برجليه بعنف حتى لا يستطيع الحراك حقيقة، ثم يقول وهو يلهث إنه استطاع قتل الضجيج الذى كان يؤرقه ويصيبه بالجنون، وها هو الآن مُلقى على الأرض كأنه شىء مهمل مات موتًا كاملاً.

لكن كان من المستحيل عليه أن يضغط على صدغيه، إذ انكمش ذراعاه حتى أصبحا ذراعى قزم. هما ذراعان ممتلآن

صغيران. حاول أن ينفض رأسه فتمكن من ذلك وعندئذ ظهر الضجيج بمزيد من القوة داخل الجمجمة التى تصلبت وكبر حجمها وأصبحت ثقيلة جداً بفضل قوة الجاذبية. كان ذلك الضجيج قويًا وثقيلاً لدرجة أنه إذا ما تمكن منه وقضى عليه فكأنه يقوم بنزع أوراق وردة من رصاص.

كان يشعر بذلك الضجيج "فى المرات السابقة" بنفس الإلحاح، مثلما حدث له يوم أن مات لأول مرة، عندما رأى الجثة وأدرك أنها جثته.

أحس بأنه غير ملموس، ولا يحتل حيزًا، وغير موجود. كان جثة بالفعل، وكان يشعر بمرور الوقت على جسده الشاب السقيم. ازدادت وطأة الجو المخيم فى المنزل كله كأنه امتلأ بالأسمنت عن آخره. وفى وسط هذه الكتلة - التى ترك فيها الأشياء وكأنه جو مليء بالهواء - كان موضوعًا هناك بعناية داخل التابوت الأسمنتى الصلب والشفاف. كان "ذلك الضجيج" فى تلك المرة داخل رأسه. يشعر آنذاك بأن باطن قدميه بعيدتان وباردتان. وفى الجانب الآخر من التابوت توجد مخدة، ذلك أن الصندوق كان لا يزال كبيراً عليه وكان من المناسب ملاءمة وضع الجسد الميت لملبسه الجديد والأخير. لقد لفوه بالقماش الأبيض وربطوا فكه لرأسه بواسطة منديل، يشعر بأنه وسيم وهو ملفوف فى كفنه، بدرجة مميتة.

كان مسجّى فى نفسه ومجهزًا للدفن، ومع ذلك كان يعرف أنه لم يكن ميتًا، وإذا حاول النهوض لاستطاع ذلك بكل سهولة ولو بشكل "روحى" لكن لم يكن الأمر يستحق، إذ كان من الأفضل أن يترك نفسه ليموت هناك، يموت "بالموت" إذ كان ذلك داءه. لقد قالها الطبيب مباشرة لوالدته منذ زمن :

- سيدتى : إن طفلك مريض بداء خطير : إنه ميت، ثم واصل قائلاً، لكن سنفعل كل ما فى وسعنا للحفاظ على حياته فيما بعد الموت، وسوف نتمكن من أن تستمر وظائفه العضوية من خلال نظام معقد للتغذية الذاتية، وما سوف يتغير فقط هو تلك الوظائف الدافعة أى الحركة الطبيعية، سوف نعرف مسار حياته من خلال النمو الذى سيسير فى طريقه المعتاد، إنه مجرد "موت حى" هو موت فعلى وحقيقى.

كان يتذكر الكلمات ولكن بشكل فيه إبهام، وربما لم يسمع هذه الكلمات أبدًا ولم تكن إلا بدعًا من وحى خياله عندما ترتفع حرارة جسمه بسبب حمى التيفود.

أى عندما يلفه الهذيان، وعندما يقرأ تاريخ الفراعنة المحنطين، وعندما ترتفع حرارته، كان يشعر بأنه بطلها، وفى هذه المرة بدأ يعترى حياته نوع من الفراغ. وعندها لم يكن باستطاعته تمييز أو تذكر ماهية الأحداث التى تنسب إلى حالة الهذيان وماهية الأحداث التى تنسب لحياته العقلية، ولهذا داخله شك فى هذه

اللحظة، فربما لم يتحدث الطبيب أبدًا عن هذا "الموت الحى" الغريب. إنه غير منطقى وغير متسق، أى ببساطة ملىء بالتناقض، وهذا ما جعله يشك فى أنه ميت بالفعل وكان موته منذ ثمانية عشر عامًا.

ومنذ تلك اللحظة - كان يبلغ السابعة عندما توفى - أمر أمه بأن تصنع له تابوتًا صغيرًا من الخشب الأخضر، أى تابوت لطفل، غير أن الطبيب أمر بأن يصنع صندوق أكبر حجمًا يتسع لجسد إنسان بالغ. ذلك أن التابوت الصغير يمكن أن يعوق النمو، ويصبح ميتًا معوجًا أو حيًا غير طبيعى - أو لأن إيقاف النمو سوف يحول دون ملاحظة التحسن. فما كان من الأم إلا العمل بالنصيحة واللجوء إلى صناعة صندوق خشبى كبير يصلح لجثة شاب بالغ ووضعت فيه ثلاث مخدات عند القدمين لملء الفراغ الموجود.

وسرعان ما بدأ نموه داخل الصندوق لدرجة أنه كلما مر عام كانت المخدات تُفرغ من بعض ما بها من الحشو لإيجاد مساحة للنمو. قضى وهو على هذا الحال أعوامًا كثيرة، ثمانية عشر عامًا (كان عمره الآن خمسة وعشرون عامًا)، ووصل نموه إلى طول قامته الطبيعى، لقد أخطأ الطبيب والنجار فى تقديريهما وبالتالى كان التابوت كبيرًا بحوالى نصف متر عن المطلوب، إذ تصوروا أن قامته ستكون مثل قامة والده الذى كان يشبه العملاق، لكن لم

يكن كذلك، فالشيء الوحيد الذى ورثه عنه هو أنه كث اللحية. كانت لحيته زرقاء غزيرة واعتادت أمه أن تحلقها له حتى تراه بشكل جميل وهو فى تابوته. كانت تلك اللحية الزرقاء تضايقه بشدة أيام القيظ.

لكن كان هناك أمر آخر يزيد من قلقه: إنه ذلك الضجيج، إنها الفئران. فمنذ طفولته كانت الفئران من أشد الحيوانات التى تثير فزعه. كانت تلك الحيوانات القذرة قد جاءت تتحسس رائحة احتراق الشمع الموضوع عند قدميه، وقرضت ثيابه، وكان يعرف أنها سرعان ما ستقرضه هو وتأكل جسده، تمكن من رؤيتها ذات يوم. كانت خمسة فئران مليئة بالحياة، ناعمة الملمس، تصعد إلى التابوت من خلال أرجل المائدة وتأخذ فى التهامه، وعندما ستدرى والدته بما يجرى فلن يتبقى منه إلا البقايا والعظام الجامدة والباردة.

وأكثر ما يثير فزعه لم يكن التهام الفئران له، فسوف يظل يعيش من خلال هيكله، بل إنه الفزع الغريزى الذى كان يشعر به تجاه تلك الحيوانات الصغيرة. كان يقشعر جلده لمجرد التفكير فى هذه المخلوقات غزيرة الشعر التى تصول فى أنحاء جسده وتسرى فى جلده وتلمس شفتيه بقوادمها الباردة. وقد وصل أحدها إلى أهدابه وحاول قرض القرنية، رآه ضخمًا وفظيعًا وهو يحاول جاهدًا أن يقرض شبكية العين. وعندئذ اعتقد موتًا جديدًا واستسلم بالكامل لوشوك السقوط.

تذكر أنه قد وصل سن البلوغ، فقد أصبح عمره خمسة وعشرين عامًا، وكان هذا يعنى أنه لن ينمو أكثر من ذلك، وأصبحت ملامحه ثابتة وجادة، لكن عندما يشفى فقد لا يتمكن من الحديث عن طفولته، لم يعش طفولته. . فقد قضاها ميتًا.

كان اهتمام الأم به بالغاً خلال المرحلة الانتقالية من الطفولة إلى اليفاعة. إذ اهتمت بنظافة التابوت والحجرة نظافة كاملة، فكانت تغير الزهور فى المزهريات وتفتح النوافذ كل يوم ليدخل الهواء الرطب. ويا له من رضا يعتلى وجهها عندما كانت تراجع المقاس، فبعد كل مرة يتضح لها أنه نما عدة سنتيمترات . كان يظهر عليها رضا الأمومة عندما تعرف أنه حى، واهتمت أيضًا بألا يكون هناك غرباء فى المنزل. إذ كان من الغريب، وغير المناسب، أن يكون هناك ميت موضوع فى حجرة منزل لأعوام طويلة. كانت امرأة متفانية، لكن سرعان ما أخذت تشعر بشبوط الهمة. فقد رآها فى الأعوام الأخيرة وهى تنظر بتعاسة إلى شريط المقاس، فطفلها لم يعد ينمو. ولم يطرأ أى تغيير على نموه خلال الشهور التالية. كانت أمه تدرك أنه من الصعب عليها فى هذه اللحظة مراقبة الحياة فى ميتها العزيز. كانت تخشى أن تصحو ذات يوم وقد أصبح ميتًا "بالفعل" . وربما لهذا السبب استطاع رؤيتها وهى تقترب من التابوت بحرص وتشم رائحة جسده. كانت قد أخذت تعيش أزمة إحساس بالتعاسة، ففى الفترة الأخيرة

لم تعد تهتم به لدرجة أنها لم تكن تقيس الجثة، إذ عرفت أنه لن ينمو كثيراً.

كان يعرف أنه مات "بالفعل" ويدرك ذلك من خلال ذلك الهدوء الذى يلف جسده. تغير كل شىء بشكل غير ملائم، فالنبض الواهن الذى كان يشعر به قد ذهب الآن وكان يشعر بالثقل وأن هناك قوة تناديه بشدة وتجذبه إلى المواد الأولية للأرض. بدت قوة الجاذبية أن تأثيرها الآن لا مناص منه، كان ثقيلاً كأنه جثة قائمة لا تدحض غير أنه كان أكثر راحة فى هذا الوضع لدرجة أنه لم يكن عليه أن يتنفس ليعيش موته.

وعبر الخيال ودون أن يلمس نفسه تحسس أعضاء جسده واحداً واحداً، كانت رأسه هناك ترقد على مخدة غير طرية، وقد مالت إلى اليسار قليلاً. تصور فمه وهو مفتوح بعض الشىء بسبب التيار الخفيف البارد الذى يملأ حنجرته بحبات الثلج. كان مشقوقًا كأنه شجرة عمرها خمسة وعشرون عامًا. وربما حاول إقفال فمه. فقد انحل قليلاً رباط المنديل الذى يحيط بفكه. لم يتمكن من وضع نفسه جيداً أو اتخاذ "وضع" بحيث يبدو ميتًا مهندم الشكل. فالعضلات والأعضاء لم تعد تستجيب بدقة لنداء جهازه العصبى. لم يكن ذلك الطفل الذى كان منذ ثمانية عشر عامًا حيث كان يتحرك بالشكل الذى يرتضيه. شعر بذراعيه ملقيين بشكل أبدى وملتصقتين بحوائط التابوت المبطنة، أما بطنه

فقد تصلبت كأنها لحاء شجرة جوز. وها هى هناك ساقاه كاملتان كأنهما مؤشر على وصوله إلى سن البلوغ. كان جسده مسجى يملؤه ثقل، غير أنه لا تبدو عليه علامات الضيق، وكأن الدنيا توقفت فجأة، ولم يقم أحد بكسر حاجز الصمت. كأن كل رئتين على ظهر الأرض قد توقفتا عن التنفس حتى لا تعكر الهدوء الناعم للهواء. كان يشعر بالسعادة كأنه طفل استلقى على ظهره فوق الحشائش الغضة والكثيفة، وأخذ يتأمل سحابة وهى تمر مبتعدة عبر سماء ما بعد الظهيرة.. كان سعيداً رغم أنه كان يدرك أنه ميت وأنه مسجى بشكل أبدى فى الصندوق المغطى بالحرير الصناعى. كان يشعر بشفافية كبيرة. لم يكن مثل الحالة السابقة، بعد موته الأول، حيث كان يشعر بأنه فى علبة وأنه فظ. الشموع الأربعة التى أشعلوها من أجله والتى كانت تتغير كل ثلاثة أشهر أخذت تتآكل وتخبو وخاصة عندما لم تعد لها جدوى. شعر بأنه بجوار أزهار البنفسج الرطبة التى وضعتها أمه ذلك الصباح، شعر بتلك الرطوبة فى الورود وفى أزهار السوسن.

لكن هذه الحقيقة الرهيبة لم تجعله يشعر بأى قلق، بل على العكس، كان يشعر بالسعادة هناك وهو وحده مع وحدته. أما شعر بالخوف بعد ذلك؟

من يدرى؟ كان من الصعب التفكير فى نفس اللحظة التى كان القادوم يهوى فيها على المسامير لتدخل فى الخشب الأخضر

فيزداد حفيف التابوت على أمل يقينى بأن يصبح من جديد شجرة خضراء. جسده الآن مشدود بقوة لنداء الأرض. فسوف يوارى فى حفرة رطبة وطينية وطرية وفوقه سوف تكون هناك أربعة أمتار مكعبة ثم يقوم اللحادون بالدمدمة. لا. هناك لن يشعر بالخوف، فذلك هو استمرار لموته وهو الاستمرار الأكثر طبيعية لحالته الجديدة.

لن تتبقى فى جسده أية حرارة فسوف يعترى البرد الأبدى نخاعه، وسوف يتجمد كل شئ حتى نخاع العظام - يا لها من راحة عندما يتعود على حياته الجديدة ميتًا.. ومع ذلك ففى يوم من الأيام سوف يشعر أن بنيته القوية سوف تنهار. وعندما يحاول استدعاء ومراجعة كل واحد من أعضائه فلن يجد أيًا منها. وسوف يشعر أنه ليس له شكل محدد كما سيعرف، ويستسلم لذلك، لقد فقد الملامح الكاملة التى تدل على بلوغه خمسة وعشرين عامًا وتحول إلى حفنة تراب ليس لها شكل معين أى بدون أى هوية هندسية.

إنه فى التراب التوراتى للموت. وربما قد يشعر حينذاك بنوع من الحنين، بألا يكون جثة لها ملامحها، بل جثة متخيلة ومجردة ولها ملامح فى المخيلة الباهتة لأقربائه. وسوف يعرف آنذاك أنه سوف يصعد عبر الخاصية الشعرية فى شجرة تفاح وسوف يستيقظ وقد أخذ الجوع بعضه كأنه طفل استيقظ ذات

صباح من أيام الخريف. سوف يعرف أنه فقط وحدته العضوية وهذا ما كان يحزنه، فهو ليس مجرد ميت عادى، بل هو مجرد جثة.

قضى آخر ليلة وهو يشعر بسعادة، مرافقًا جثته :

لكن عندما دخلت أشعة الشمس فى اليوم التالى عبر النافذة المفتوحة شعر أن جلده اعترته طراوة جديدة. أخذ يرقب الموقف هنيهة، كان ساكنًا ومتصلبًا. ترك الهواء يسرى فوق جسده، لم يشك لحظة واحدة فى وجود "الرائحة". فأثناء الليل أخذت الجيفة تحدث أثرها. إذ أخذت أعضاء جسمه فى التفكك والتحلل مثل جثث كل الموتى. كانت "الرائحة" هى رائحة لحم نتنة تذهب ثم تعاود المجىء بقوة. لقد تحلل جسده بفضل حرارة الليلة السابقة: نعم. كان يتحلل وقد تأتى أمه فى غضون ساعات قليلة لتقوم بتغيير الزهور وسوف تتعرض عن قرب لسياط اللحم المتعفن. وعندئذ سوف يحملونه إلى موته الثانى بين باقى الأموات.

لكن سرعان ما قام الخوف بتسديد طعنة له فى الظهر. الخوف يا لها من كلمة عميقة وذات دلالة، ها هو خائف يعتريه خوف "ملموس" وحقيقى. إلام يرجع ذلك؟ كان يفهم ذلك جيداً وكان لحمه يرتعش: ربما لم يكن ميتًا، فقد وضعوه هناك فى ذلك الصندوق الذى يشعر به الآن طريًا ومبطنًا ومريحًا

لدرجة كبيرة، ثم قام شبح الخوف وفتح له نافذة الواقع: كانوا سيدفنوه حيًا

لا يمكن أن يكون ميتًا، ذلك أنه كان يعى كل شىء: الحياة التى تدور أحداثها من حوله بكل ما فيها من همهمة. وكذلك بالرائحة الدافئة التى تحملها أشعة الشمس التى تنفذ عبر النافذة المفتوحة وتختلط "بالرائحة" الأخرى. كان يعى جيداً ببطء، سقوط المياه فى البحيرات وبصرير الجدجد الذى قبع فى الركن وظل يصدر أصواته ظنًا منه أنه الفجر كان مستمراً.

كان كل شىء يشعره بأنه لم يمت ما عدا "الرائحة" لكن كيف له أن يعرف أن تلك الرائحة هى المنبعثة منه؟ فربما نسيت أمه تغيير المياه فى الأوانى ليلة البارحة، وبذلك كانت سيقانه تتعفن. وربما كانت تلك رائحة الفأر الذى جلبه القط ووضعه إلى جواره فأخذت الحرارة تحدث تأثيرها فيه. لا، لا يمكن أن تكون هذه الرائحة صادرة عن جسد.

كان سعيداً مع موته منذ بضع لحظات لظنه أنه ميت، فالميت يمكن أن يكون سعيداً مع وضعه الذى لا مناص منه. لكن الحى لا يمكن أن يُذعِن حتى يُدفن حيًا. ومع ذلك لم تكن أعضاؤه تستجيب لندائه. لم يكن قادراً على التعبير وهذا ما كان يفزعه. إنه أكبر شىء يثير فزعه فى الحياة والموت. قد يدفنوه حيًا. يمكن أن يشعر وأن يعى أنهم يدقون المسامير فى النعش يمكن أن يشعر

بالخواء فى الجسد الذى يحمله الأصدقاء على أكتافهم بينما يتعاظم عنده الكدر وفقدان الأمل مع كل خطوة فى الجنازة.

سوف يحاول النهوض ولكن بلا جدوى وأن ينادى بأعلى صوته الذى ذهب وأن يضرب النعش المظلم والضيق حتى يعرفوا أنه كان لا يزال حياً وأنهم كانوا سيدفنونه حيًا. من غير المجدى، ها هى أعضاؤه لا تستجيب للنداء العاجل والأخير لجهازه العصبى.

سمع ضجيجًا فى الحجرة المجاورة. هل هو نائم؟ هل كانت حياة الميت هذه كابوسًا؟ لكن ضجيج الأوانى لم يستمر، شعر بالحزن وربما أصابه الكَدَر لذلك. كم كان يود لو أن كل أوانى الدنيا كلها تنكسر بضربة واحدة هناك إلى جواره حتى يستيقظ من أجل قضية خارجية ذلك أن إرادته فشلت تمامًا.

لكن لا. لم يكن ذلك حلمًا، كان واثقًا أنه لو كان كذلك فلم تكن لتفشل المحاولة الأخيرة للعودة إلى الواقع. قد لا ينهض مرة أخرى، كان يشعر بطراوة التابوت، أما الرائحة فقد عادت الآن بمزيد من القوة، بل بكل قوة لدرجة أنه كان يشك أنها رائحته هو، كان يود لو يرى أقرباءه قبل أن يبدأ فى التحلل، أما منظر اللحم المتعفن فجعله يشعر بالتقزز، وسوف يهرب الجيران مفزوعين من النعش وقد وضعوا المناديل على أفواههم. وقد يتقيئون. لا. ليس هذا. كان من الأفضل أن يدفنوه. كان من

المستحب الخروج من هذا الموقف بأقـصى سرعة. وهو نفسه يريد أن يتخلص من جثته. كان الآن يشعر بأنه ميت بالفعل أو أنه حى ولكن بشكل غيـر ملحوظ، الأمور تستـوى فى هذا المقام. وعلى أى الأحوال فقد كانت "الرائحة" هناك ولا تزال.

وسـوف يستـمع مـذعنًا لآخـر الصلوات وأخـر العبـارات اللاتينيـة التى يرددها خـدم الكنيـسـة. وسوف ينفـذ البـرد المليئ بالتراب وعظام المقابر إلى عظامه، وربما يتضاءل بعض الشىء تأثير هذه "الرائحة" النفاذة. ومن يدر فربما يؤدى حلول اللحظة - إلى خروجه من هذه الظلمة. عندما يشعر أنه يقوم فى عرقه، فى تلك المياه الكثيفة اللزجة مثلما حدث له ذلك قبل مولده وهو فى رحم أمه، فقد يكون حيًا.

لكن سيكون مذعنًا للموت فربما مات إذعانًا.

عينا كلب أزرق

(١٩٥٠)

نظرت إلىّ عندئـذ. كنت أظن أنهـا تنظر إلىّ لأول مـرة، وبعد ذلك، فعندما استدارت من خلف الشمعدان، كنت لا زلت أشعر بنظرتهـا الناعمة البراقة على أكـتافي وخلف ظهرى. عندئذ أدركت أننى أنا الذى كنت أراهـا لأول مرة. أشـعلت سـيجـارة وابتلعت الدخان القوى الفظ قبل أن أدور بالمقعد حتى يستند إلى واحدة من الأرجل الخلفـية. وبعد ذلك رأيـتها هناك، مـثلما هو الحال فى كل الليالى، تقف إلى جوار الشـمعدان، ترمقنى. وظل كلانا لبضع دقائق لا يفعل أكثر من هذا: ينظر كلانا للآخر، أنظر أنا إليهـا من على الكرسى الذى جـعلته يثبت علـى إحدى أرجله الخلفية، أما هى فواقفـة تسند يدها الطويلة بهدوء على الشمعدان وتنظر إلى. كنـت أنظر إلى أهدابهـا المضـاءة مـثل كل الليـالى، وعندئذ تذكـرت العبارة المـعهودة عندمـا قلت لها : "عـينا كلب أزرق" فقالت لى "أبدًا" خرجت عن المدار المألوف وهى تتنهد : "عينا كلب أزرق. كتبتُ هذه العبارة فى كل مكان".

رأيتها وهى تتـجه صوب التسريحة ورأيتـها من خلال المرآة المستـديرة وقد أخذت تنظر إلى الآن والضـوء يذهب ويجىء بدقة حسابية. رأيتـها وهى تواصل النظر إلى بعينيها الكبيـرتين كأنهما

الجمـرات المتقدة ! كانـت تنظر إلى وهى تفتح الصندوق الصغـير المطعم بالصدف الوردى. رأيتها وهى تضع المسـحوق على أنفها. وعندمـا انتهت أغلقت الصندوق ثم نهـضت واتجهت من جـديد صـوب الشمـعدان وهى تقـول : "أخـشى أن يحلم أحد بهـذه الحجـرة ويبـعثـر حاجـياتى" وفـوق الشعلة مـدت يدها الطويلة والمرتعشة، والتى كانت تقوم بتدفئتها قبل الجلوس إلى التسريحة. وقالت : "أنت لا تشعر بالبرد" فقلت لها "أحيانا" فقالت لى : "يجب أن تشعر به الآن" وعندئذ أدركت لماذا لم أتمكن من البقاء وحدى فى المقعـد. كان البرد هو الذى يؤكد لى حقيـقة وحدتى، فقلت : "الآن أشـعر به وهذا غريب ذلك أن اللـيلة كانت هادئة وربما كنت ملتفًا جيداً بالمـلاءة". فلم تجب ثم أخذت تتحرك بعد ذلك متـوجهة نحـو المرآة، أما أنا فعـدت للاستدارة على المقـعد معطيًـا ظهرى إياها. كنـت أعرف ما تفـعله دون أن أراها. كنت أعـرف أنها عـادت لتـجلس إلى المرآة من جـديد وهى تنظر إلى ظهـرى الذى كان لديه مـتسع مـن الوقت ليصل إلى عـمق المرآة ويلتـقى بنظراتها، التى كـانت لديها هى الأخـرى الوقت الكافى للوصول إلى عمق المرآة، والعودة من جـديد قبل أن يتوفر الوقت لليد فى البدء بالعودة مرة أخرى، لتلتـقى بالشفاه، الموضوع عليها اللون الأحمـر القانى، مع أول حركـة دوران لليد فى المرآة. كنت أرى أمامى الحائط الأملس الذى يشـبه مرآة أخرى لكنها معـتمة، ولم أكن أراها - وهى تجـلس خلف ظهـرى - لكنـى أتصـورها

وكأنها قد وضعت مرآة مكان الحائط. فقلت لها : "أراك" ورأيت في الحائط كأنها رفعت ناظريها، وأن ظهري و رأسي وأنا جالس في عمق المرآة، متوجهان صوب الحائط، وبعد ذلك رأيتها وهي تخفض أهدابها مرة ثانية وتظل عيناها ثابتتين في محاجرها ، ولم تنبس بكلمة. أما أنا فعدت لأقول "أراك" فعادت هي لترفع ناظريها وهما في محجريهما ثم قالت : "مستحيل" . فسألت لماذا؟ فقالت، وعيناها ثابتتان في مكانهما : "ذلك أن وجهك متجه صوب الحائط" . عندئذ استدرت بالمقعد، وكنت أمسك بالسيجارة بين شفتي، وعندما أصبحت أمام المرآة، كانت هي تقف خلف الشمعدان من جديد. ها هي الآن تقترب بكفيها من اللهب كأنهما جناحا دجاجة مفرودين في حالة الشواء. أما وجهها فكان يرى من خلال أصابعها "أعتقد أنني سأتعرض لبرد شديد. لابد أن هذه الليلة جليدية" . ودارت بوجهها بعض الشيء حتى أصبح في صورة جانبية، أما جلدها المحمر فقد اعتراه حزن مفاجئ. "افعلي شيئًا حيال هذا" قلت فقامت هي بخلط ملابسها قطعة تلو الأخرى بادئة بالقطع العلوية. فقلت لها "سوف أوجه رأسي للحائط" فقالت "لا. فأنت على أي الأحوال سوف تراني مثلما رأيتني وظهرك لي" ولم تكد تنتهي من عبارتها حتى أضحت شبه عارية وأخذ اللهب يلعق جلدها النحاسي الممتد. "لطالما وددت أن أراك هكذا دومًا وقد امتلأ جلد بطنك بالتجاعيد وكأنما اخترقته عدة رصاصات" . وقبل أن أدرك

أننى أتعثر فى العبارات التى أتفوه بها أمام عريها سكنت هى بلا حراك وأخذت تدفئ نفسها على نار الشمعدان وقالت : "أحيانًا أتصور أننى من معدن" صمتت لحظة. تغير وضع اليدين على اللهب بعض الشىء فقلت "فى أحلام عشتها أحيانًا شعرت أنك لست إلا تمثالاً صغيراً من البرونز قائم هناك فى ركن فى أحد المتاحف. ولهذا ربما تشعرين بالبرد" فقال "عندما أنام على جانبى الأيسر حيث القلب أشعر أحيانًا أن جسدى مفرغ وأن جلدى عبارة عن إحدى الرقائق وعندئذ يضربنى الدم بعنف من الداخل وكأن هناك من ينادينى بطرقات بعقد أصابعه على بطنى أشعر حينئذ بصوتى النحاسى وأنا فى السرير. كأننى مثلما قلت : " من رقائق معدن" ثم ازداد اقترابها من الشمعدان فقلت "كم بودى لو أسمعك" فقالت "إذا ما التقينا ذات مرة فضع أذنك على ضلوعى عندما أنام على جانبى الأيسر وسوف تسمع رنينى. لطالما رغبت أن تفعل ذلك ذات مرة" سمعتها وهى تتنفس بعمق عندما كانت تتحدث وقالت إنها ظلت لسنوات تفعل نفس الشىء، فقد كرست حياتها لتلتقى بى فى عالم الواقع من خلال هذه الجملة المتفق عليها : "عينا كلب أزرق" وكانت تسير فى الشارع وهى تردد ذلك بصوت مرتفع، ولم تكن إلا وسيلة للحديث إلى الشخص الوحيد الذى يمكن أن يتفهمها. "أنا التى آتى إلى أحلامك كل ليلة وتقول لك هذا : عينا كلب أزرق" وقالت بأنها كانت تذهب إلى المطاعم وتقول للعاملين هناك قبل أن تطلب ما تريد : "عينا

كلب أزرق" لكن الشباب كانوا يعيرونهـا الاحترام والتوقير، لكن دون أن يتذكـروا ولو لمرة أنهم قالوا هذا فى أحـلامهم. ثم تكتب بعد ذلك على المـناديل الورقية وتقـوم باستخـدام السكين لتكتب نفس العـبـارة على دهان الموائد: "عـينا كلب أزرق"، وكـذلك وعلى الزجاج المترب للمحطات. وعلى كل المبـانى العامة. كانت تخط بسـبابتهـا "عينا كلـب أزرق" وقالت إنها ذات مـرة دخلت محـلاً لبيع المنظفات والعطور ولاحظت وجـود نفس الرائحة التى أحست بـها فى حجـرتها ذات ليلة بعـد أن حلمت بأنهـا معى.

"لابد أنه قـريب" أخـذت تفكر وهـى تنظر إلى البـلاط الجـديد اللامع للمحل وعندئذ اقتربـت من البائع وقالت له : أحلم دائمًا برجل يقول لـى : "عينا كلب أزرق" وقالت بأن البـائع نظر إلى عينيها وقال إننى فى حاجة لأجد الرجل الذى قال لى هذه العبارة فى الحلم" فما كان من البائع إلا أن أطلق العنان لضحكاته وتحرك إلى الجانب الآخـر من الحاجـز أما هى فظلت تحمـلق فى البلاط اللامع النظيف وتشـعر بالرائحة. ثم فـتحت شنطتهـا وركعت ثم أخرجت إصبع أحمر الشفاه ذى اللون الأحمر القانى وكتبت على البلاط بحـروف كبيرة "عـينا كلب أزرق" فعاد البـائع من جديد وقال لهـا "لقد اتسخ البلاط بسبـبك يا آنستى" وسلم لها خـرقة قماش مبلله وقال لهـا "عليك بتنظيفه" فقالت، وهى لا تزال إلى جـوار الشمـعدان، بأنـها قـضت عصـر اليـوم كله وهى جالسـة

القرفصاء وتقوم بغسل البلاط وتردد "عينا كلب أزرق" حتى تجمع الناس حولها على الباب وقالوا بأنها مجنونة.

وعندما انتهت من الكلام كنت قابعًا في الركن وأنا أقوم بإحداث التوازن في المقعد. فقلت "إننى أحاول أن أتذكر كل يوم العبارة التى أجدك بها. وأعتقد أننى لن أنساها غدًا، ومع ذلك فقد قلت نفس الكلام ثم نسيت عند استيقاظى ما هى الكلمات التى أجدك بها" فقالت "أنت نفسك ابتكرتها منذ أول يوم" فقلت لها "لقد اخترعتها لأننى رأيت عينيك كأنهما جمرتان لكننى لا أتذكرها أبدًا في اليوم التالى" أما هى فقد ظلت إلى جوار الشمعدان وقبضت كفيها وتنفست بعمق: "آه لو تذكرت اسم المدينة التى كتبت تلك العبارة فيها".

كانت أسنانها المطبقة على بعضها البعض تتلألأ من جراء اللهب. فقلت: "يطيب لى أن ألمسك الآن، فرفعت وجهها حيث كانت تتأمل الشعلة. ورفعت النظرة المشتعلة التى تحترق مثلها ومثل يديها. أما أنا فشعرت أنها رأتنى في ذلك الركن الذى أجلس فيه وأنا أتأرجح على المقعد" وقالت "لم تقل لى أبدًا هذه العبارة" فقلت "أقولها الآن وهذه حقيقة"، فطلبت سيجارة وهى تجلس على الجانب الآخر من الشمعدان. واختفت بقايا السيجارة من بين أصابعى وكنت قد نسيت أننى أدخن. قالت "لست أدرى لماذا لا أتمكن من تذكر المكان الذى كتبت فيه العبارة" فقلت لها

"وهو نفس السبب الذى ينسينى الكلمات صباح اليوم التالى" فقالت بصوت حزين "لا. أحيانًا ما أشعر أننى حلمت بذلك أيضًا" نهضت من مقعدى وسرت متوجهًا نحو الشمعدان. كانت هى بعيدة بعض الشىء أما أنا فظللت أسير وأنا أحمل السجائر والكبريت فى يدى ولم أتجاوز الشمعدان، فمددت يدى لها بالسيجارة فأمسكت بها بين شفتيها ثم مالت لتشعلها من اللهب قبل أن أتمكن أنا من إشعال عود الكبريت وقلت "لابد وأن هذه العبارة مكتوبة فى مدينة ما فى هذا العالم: "عينا كلب أزرق". وإذا ما تذكرتها غدًا سوف أذهب إلى هناك بحثًا عنك. عادت لترفع رأسها من جديد وقد أشعلت سيجارتها وهى فى فمها "عينا كلب أزرق" قالتها وهى تتنهد وتتذكر وقد مالت السيجارة نحو ذقنها. وأقفلت، بعض الشىء، إحدى عينيها. ثم استنشقت الدخان بعد ذلك وقد أصبحت السيجارة بين إصبعيها وصاحت "لقد تغير الأمر، الآن أصبحت أشعر بالدفء" قالتها بنبرة فيها دفء وهروب، وكأنها لم تنطق بذلك حقيقة بل كأنها دونتها على ورقة ثم اقتربت بها من اللهب بينما أنا أقرأ: "أنا أشعر - وكأنها تمسك بما بقى من الورقة بين السبابة والإبهام وتطوحها وهى تشتعل، أما أنا فقد قرأت "بالدفء" قبل أن تحترق الورقة تمامًا وتسقط على الأرض وقد انكمشت وصغر حجمها وتحولت إلى رماد لا قيمة له، فقلت "هذا أفضل، فأحيانًا أشعر بالخوف وأنا أراك هكذا ترتعشين إلى جوار الشمعدان".

كنا نرى بعضنا البعض منذ عدة سنوات. وأحيانًا عندما نكون سويًا. كان هناك أحد ما يترك ملعقة صغيرة تسقط فتحدث رنينًا نستيقظ على أثره. وشيئًا فشيئًا أخذنا ندرك أن صداقتنا مرهونة بالأشياء والأحداث البسيطة. كانت لقاءاتنا تنتهى دومًا بهذا الشكل، أى بسقوط ملعقة صغيرة فجراً.

وعندما وصلت إلى جانب الشمعدان كانت ترمقنى. أتذكر أنها كانت تنظر إلىّ قبل ذلك بنفس الطريقة فى ذلك الحلم البعيد الذى قمت فيه بجعل المقعد يلف على الأرجل الخلفية. ووجدت نفسى أمام امرأة مجهولة ذات عينين رماديتين. وفى ذلك الحلم سألتها لأول مرة "من أنت؟" فقالت لى "لا أتذكر" فقلت لها "لكن أعتقد أننا رأينا بعضنا قبل ذلك" فقالت غير مبالية : "أعتقد أننى حلمت ذات مرة بك فى نفس هذه الحجرة" فقلت لها "هو ذاك، الآن أتذكر الموقف" فقالت "يا له من أمر عجيب حقًا لقد التقينا فى أحلام أخرى".

أخذت من السيجارة نفسين، أما أنا فظللت على حالى ساكنًا أمام الشمعدان عندما أخذت أرمقها فجأة. نظرت إليها نظرة غطتها من أعلى إلى أسفل. وكانت لا تزال من النحاس. لكنه ليس المعدن الصلب والبارد، بل إنه نحاس أصفر وطرى وقابل للتطويع. وعدت لقول هذه العبارة "أود لو ألمسك" فقالت "إنك تغامر بفقدان كل شىء" فقلت "لا يهم الآن، يكفى أن يتقلب

كل منا على المخـدة فنلتـقى مرة أخـرى" ومددت يدى من فـوق الشمعـدان. لكنها لم تتحرك وعـادت لتقول "إنك تغامـر بفقدان كل شيء" قالتهـا قبل أن أتمكن من ملامستهـا" وإذا ما استدرت وأنت خلف الشـمعـدان فربما نسـتيـقظ فزعـين، ومن يدرى أين سيكون هذا فى أى مكان من العالم. لكنى عدت أصر "لا يهم" فقـالت "إذا ما تقلبنا على المخدة فـسوف نلتقـى من جديد لكنك سوف تنسـى ذلك عندما تستـيقظ. وأخـذت فى التحـرك صوب الركن. وظلت هى فى المؤخـرة تقوم بتـدفئة يديهـا على اللهب. ولم أكد أصل إلى المقعد حـتى سمعتها تقول "عندمـا أستيقظ فى منتصف الليل ينتـابنى الأرق وأنا فى سريرى وكأن قـماش المخدة إبر تخزنى فى ركـبتى وأظل هكذا حـتى الصباح : "عـينا كلب أزرق" .

عندما وضعت وجهى صوب الحائط "ها هى تباشير الصباح - قلت هذه العـبارة دون أن أنظر إليـهـا - فعندمـا دقت الثانيـة صباحًا استيـقظت وظللت على هذا الحال لفترة طويلة" وتوجهت نحـو الباب، وعندمـا أمسكت بـالمقبض سـمعت - من جـديد. صوتها الذى لا يـتغير، وهى تقول "لا تفـتح هذا الباب ذلك أن الطرق مليئة بالأحـلام الصعبة" فقلت لها "وكـيف تعرفين ذلك" فقالت لى "إننى كنت هناك منذ هنيهـة وكان على أن أعود عندما اكتشفـت أننى نائمة على جانبى الأيسر" . أما أنا فقـد كان الباب

مواربًا. فحـركت دلفة الباب قليلاً فهـبت علىّ نسمة خفيـفة آتيه معـها ببعـض البرد الخفـيف والرائحة الطازجـة للأرض المزروعة والحقول المروية. تحدثت هى مرة أخرى. فاستدرت وحركت دلفة الباب المرتبطة بالمفصلات التى لا تحدث أصواتًا. وقلت : "أعتقد أن ليس هناك أى ردهة فى الخارج. إننـى أشعر برائحة الحـقول" أما هى التى أصبحت بعيدة عنى بعض الشيء فقالت "أعرف ذلك أكثـر منك، والأمر هو أن هناك امـرأة تحلم بالحقـول" . تشابكت يداها على اللهب وواصلت حـديثـها "إنهـا تلك المرأة التى طالما رغبت أن يكون لهـا منزل وسط الحقول لكنها لم تسـتطع مغادرة المدينة "إننى أتذكر أنى رأيت هذه المرأة فى بعض الأحلام السابقة لكننى كنت أعـرف، والباب مـوارب، أننى يجب أن أنزل لتناول فطورى خـلال نصف ساعـة وقلت "على أى الأحـوال يجب أن أخرج من هنا حتى أستيقظ" .

هبت الرياح فى الخارج هنـيهة وسكنت بعـد ذلك ثم سمع صوت أحـد النائمين وهو يتقلب فى سـريره، وتوقفت الرياح فى الحـقول. لم تعـد هناك أية روائح، فـقلت "غـدًا سوف أتعـرف عليك من خلال هذا. سوف أتعرف عليك عندما أجد فى الشارع امرأة تكتب على الحوائط "عينا كلب أزرق" أما هى فقد ابتسمت ابتسامة حزينة - فهى ابتسامة تعـبر عن الاستسلام المستحيل وغير القابل للمنال - وقـالت "ومع ذلك فلن تتذكر شيئًـا أثناء النهار"

ثم عادت لتضع يديها فوق الشمعدان ولف جسدها ضباب مُرّ "أنت نفس الرجل الذى لا يتذكر أى شىء من أحلامه عندما يستيقظ".

ليلة طيور الكروان

(١٩٥٣)

كنا جالسين ثلاثتنا حول المائدة عندما قام أحدٌ مَا بإدخال قطعة عملة معدنية فى الفتحة فعادت الماكينة (Wurlitzer) لتشغيل الاسطوانة المعتادة. ولم يكن أمام الآخرين منا متسع من الوقت للتفكير فيه. إذ وقع ذلك قبل أن نتذكر أين التقينا، أى قبل أن نتمكن من استعادة تحسس الاتجاه. مد واحد منا يده على المنضدة المستطيلة وأخذ يتحسس (فنحن لم نر اليد، بل كنا نسمعها) فاصطدم بأحد الأكواب ثم سكت بعد ذلك، وكانت يداه لا تزالان فوق المسطح الصلب. عندئذ قمنا نحن الثلاثة بالبحث عن بعضنا البعض فى الظل، والتقينا هناك بأصابعنا على المنضدة المستطيلة حيث التقى ثلاثون إصبعًا. فقال أحدنا :

- هيا بنا.

نهضنا واقفين كأن شيئًا لم يحدث. ولم يكن أمامنا حتى هذه اللحظة متسع من الوقت لتنتابنا الحيرة.

وعند المرور بالردهة سمعنا موسيقى قريبة تقابلنا وشعرنا برائحة نساء حزينات جالسات فى الانتظار. شعرنا بالفراغ الممتد للردهة من أمامنا ونحن نسير صوب الباب قبل أن تخرج

لاستقبالنا رائحة أخرى غير محببة لامرأة كانت تجلس على الباب.
فقلنا :

- هيا بنا.

لم تجب المرأة. وشعرنا بصوت كرسى هزاز وهو يتحرك إلى أعلى فى الوقت الذى نهضت هى فيه. شعرنا بالخطوات فوق الأرضية الخشبية المتفككة، ومن جديد، بعودة المرأة فى الوقت الذى يُسمع فيه صرير المفصلات، وأقفل الباب جيداً خلف ظهورنا.

استدرنا، وخلفنا كان هناك هواء جاف وقوى لفجر لا يرى، كما سمع صوت يقول:

- ابتعدوا عن المكان فإننى أمر ومعى هذا

تراجعنا إلى الوراء فعاد الصوت ليقول :

إنكم لا زلتم تسدون المدخل.

عندئذ تحركنا في كل اتجاه ووجدنا الصوت فى كل مكان فقلنا :

- لا نستطيع الخروج من هنا فطيور الكروان فقأت عيوننا.

سمعنا بعد ذلك صوت أبواب تفتح فنزع أحدنا يده من الأيدى الأخرى وسمعناه وهو يزحف فى الظل متردداً ومصطدماً

بمحتويات المكان التى كانت تحيط بنا. تحدث وهو فى مكان ما من الظلمة.

- لابد وأننا بالقرب، إلا أن هنا رائحة لصناديق متراكمة فوق بعضها.

عدنا من جديد لنشعر بلمسات يديه، واستندنا إلى الحائط، وعندئذ مر صوت آخر ولكن فى اتجاه معاكس. . .

- يمكن أن تكون هذه توابيت - قال واحد منا. فقال الذى كان قد زحف حتى الركن لكنه الآن يتنفس إلى جوارنا.

- إنها صناديق. لقد تعلمت منذ صغرى كيفية تمييز رائحة الملابس المحفوظة فى الصناديق.

عندئذ تحركنا إلى هناك. كانت الأرض طرية وملساء كأنها أرض مخصصة للسير. مد أحد ذراعه. شعر بجلد ممدد وحى، لكننا لم نشعر بالحائط الموجود فى الجانب الآخر.

- إنها امرأة - قلنا

فقال ذلك الذى تحدث عن الصناديق :

- أعتقد أنها نائمة.

تحرك الجسد تحت أيدينا. ارتعش، وشعرنا به وهو يتمطى، وكان ذلك الشعور مؤسسًا على أنه أصبح غير موجود أكثر من

الشعـور بابتعـاد ذلك الجسد. وبعـد هنيهة سكون، وقـد تصلبنا وتراصت أكتافنا إلى جوار بعضها سمعنا صوتًا يقول:

- من هناك ؟

- أجبنا دون أن نتحرك. - ها نحن.

سمع الصوت فى السرير، حيـث الصرير والأقدام تتحسس الشبـشب فى الظلام. عندئذ تصورنا المرأة جالـسة وهى تنظر إلينا لم تستيقظ بالكامل بعد.

- ماذا تفعلون هنا؟ قالت.

فقلنا :

- لسنا ندرى، فطيور الكروان فقأت عيوننا.

فقال الصـوت إنه سمع شيئًا مـثل هذا وأن الصحف قالت بأنه كان هناك ثلاثة رجـال يتناولون البيـرة فى فناء داخلى، حيث كان هناك خـمسة أو ستـة من طيور الكروان. وقام أحـد الرجال بترديد صوت الكروان.

- الأمـر السيئ أن الوقت كـان متـأخراً - قـال. . وعندئذ قفزت الطيور على المائدة وفقأت عيون الرجال.

قـال بأن الصحـف ذكرت ذلك لكن لـم يصدق أحـد هذه الرواية. فقلت :

- إذا ما كان الناس قـد ذهبوا إلى هناك لابد وأنهم قد رأوا طيور الكروان.

وقالت المرأة :

- لقد ذهبـوا. كان الفِناء مليئاً عن آخـره بالناس فى اليوم التالى، لكن المرأة أخذت طيورَ الكروان إلى مكان آخر.

توقفت المرأة عن الكلام عندما اسـتدرنا. ها هو الحائط من جديد، إذ بمجـرد التحـرك هنا أو هناك بعض الشيء نجـد الحائط هناك. الحائط دائمًـا يلفنا ويحاصـرنا. سمعـناه مره أخرى يسـير متثاقلاً وهو يتحسس الأرض ويقول :

- لست أدرى أين هى الصناديق. أعتقد أننا نسير فى مكان آخر.

فقلنا :

- تعال إلى هنا. هناك أحدٌ ما إلى جوارنا.

سمـعناه وهو يقتـرب وشعرنا به وهو ينـهض إلى جوارنا، ومرة أخرى ضربتنا رائحته الدافئة فى وجوهنا.

- امدد يدك - قلنا له - هناك أحد ما يعرفنا.

لابد وأنه مد يده، و تحـرك إلى حيث نشيـر؛ ذلك أنه بعد لحظات عاد ليقول لنا:

- أعتقد أنه فتى.

فقلنا له :

- حسن، اسأله إذا ما كان يعرفنا.

فقام بالسؤال وسمعنا الصوت البسيط اللامبالى للفتى الذى كان يقول:

- نعم أعرفهم، إنهم الرجال الثلاثة الذين فقأت طيور الكروان عيونهم.

وعندئذ تحدث صوت بالغ. إنه صوت امرأة. يبدو أنها تتحدث من خلف باب مغلق. ها هو يتحدث مع نفسه.

فقال الصوت الطفولى بلا مبالاة :

- لا. ها هم من جديد الرجال الثلاثة الذين فقأت طيور الكروان عيونهم.

سمع صرير مفصلات، وبعد ذلك الصوت البالغ، وقد أصبح أكثر قربًا عن المرة الأولى.

- خذهم إلى منزلهم. قال.

فقال الفتى :

- لا أعرف أين يعيشون.

فقال الصوت البالغ :

- لا تكن سيئ الطبع. فكل الناس يعرفون أين يعيشون منذ تلك الليلة التى فقأت طيور الكروان عيونهم.

وبعد ذلك واصل حديثه بنغمة أخرى وكأنه متوجه بالحديث إلينا:

- ما حـدث هو أن الناس لم يريدوا تصديـق ذلك، وقالوا بأنه خبر كاذب أوردته الصحف لزيادة مـبيعاتها. فلم ير أحد هذه الطيور.

فقلنا :

- لكن قد لا يصدقنى أحد إذا ما ذهبت بهم إلى الشارع.

لم نكن نتحـرك. كنا ساكنين ومسـتندين إلى الحائط ونحن نسمع المرأة وهى تقول:

- إذا ما أراد ذلك أن يأخذهم فالأمر يـختلف. وعمومًا لن يُعير أحد اهتمامًا بما قد يقوله فتى.

فتدخل صوت طفولى :

إذا ما خرجت معهم إلى الشارع وقلت بأنهم الرجال الذين فقأت طيور الكروان عيونهم فإن الفـتية سوف يرموننى بالحجارة. فكل الناس يقولون باستحالة هذا الأمر.

مرت لحظة صمت، ثم عاد الباب ليغلق من جديد وعاد الفتى ليقول:

- أضف إلى ذلك أننى أقوم بقراءة قصة "تيرى والقراصنة".

فهمس فى آذاننا صوت:

- سوف أقوم بإقناعه.

سار متثاقلاً إلى حيث الصوت.

- هذا يروق لى - قال - فعليك على الأقل أن تروى لنا ما حدث لتيرى هذا الأسبوع.

فكرنا أنه يحاول كسب ثقته، لكن الفتى قال:

- هذا لا يعنينى فأهم شىء لدى هو الألوان.

- كان تيرى داخل تيه من الأنفاق - قلنا.

فقال الفتى :

- كان ذلك يوم الجمعة. ونحن الآن فى يوم الأحد، وما يهمنى هو الألوان - قال ذلك بصوت غير مبالٍ ولا حرارة فيه.

وعندما عاد الآخر قلنا :

- إننا على هذا الحال تائهون منذ ثلاثة أيام، ولم نركن للراحة ولو لحظة واحدة.

فقال أحدهم :

- حسن. سوف نرتاح بعض الوقت، لكن دون أن يترك أحدنا يد الآخر.

جلسنا. وأخذت شمس دافئة غير مرئية تدفئ أكتافنا. لكن لم يكن يهمنا حتى وجود الشمس. إننا نشعر بها هناك فى أى مكان وقد فقدنا الإحساس بالمسافات والزمن والتوجه. مرت عدة أصوات.

- فقأت طيور الكروان عيوننا - قلنا.

فقال أحد الأصوات:

- لقد أخذ هؤلاء بما قالته الصحف.

اختفت الأصوات. وظللنا جالسين ملتصقة أكتافنا إلى بعضها البعض آملين أن نعثر- فى مرور الأصوات هذه، وكذلك فى الصور - على رائحة أو صوت معروف لدينا.

واصلت الشمس تسخين رؤوسنا وعندئذ قال أحد ما :

- هيا بنا نحو الحائط.

بينما ظل الآخرون بلا حراك، رءوسهم مرفوعة نحو النور غير المرئى.

- ليس الآن بعد. لننتظر هنيهة أخرى حتى تبدأ الشمس فى لفح وجوهنا بشدة.

الأمسية المدهشة التى قضاها بلتثار

(١٩٦٢)

انتهى من صناعة القفص. وقام بلتثار بتعليقه فى مشبك يتدلى من السقف كما هى العادة. وعندما تناول طعام الغذاء سرى الحديث فى القرية بأنه صنع أجمل قفص فى العالم، فجاء أناس كثيرون ليروا القفص، وتجمهروا أمام باب منزله، ولم يكن أمام بلتثار إلا أن ينزل القفص، ويغلق ورشة النجارة.

- عليك أن تحلق ذقنك - قالت له زوجته أرسولا - تبدو كأنك راهب.

-قال بلتثار : ليس من المناسب حلاقة الذقن بعد الغذاء.

لم يحلق ذقنه منذ أسبوعين، وكان شعره قصيراً وقويًا وواقفًا كأنه عرف أحد البغال، أما الهيئة العامة فكانت لفتى أصيب بالهلع لكنه كان تعبيراً زائفًا. فقد أكمل الثلاثين من العمر فى فبراير. وكان يعيش مع أرسولا منذ ما يقرب من أربعة أعوام. ولكن دون أن يتزوجا أو يكون لهما أولاد. وقد أعطته الحياة الأسباب التى جعلته يتخذ هذا الموقف. لكن لم يكن هناك أى مبرر للهلع. حتى أنه لم يكن يعرف أن القفص الذى صنعه بدا للبعض أنه أجمل قفص فى العالم. ولما كان معتادًا على صناعة

الأقفـاص منذ صغره، لم يكن ذلك القـفص إلا عملاً آخـر مثل غيره اللهم إلا أنه بذل فيه جهدًا كبيراً.

- عليك إذن أن ترتاح بعض الوقت - قـالت المرأة - فأنت بهذا الذقن غير الحليق لا يليق أن تذهب إلى أى مكان.

فى الوقت الذى خلد فيه للراحة نهض من السرير، الشبكى المعلق، عـدة مرات حتى يتـفرج الجـيران على القفـص. لم تُعره أرسولا أى انتباه حتى هذه اللحظة. ذلك أنها أصيبت بالكدر لأن زوجها أهمل العمل فى ورشة النجـارة وكرس كل وقته للقفص، وظل لمدة أسبوعين ينام قليلاً. وعندما يحدث ذلك يتقلب ويهذى ببعض الكلمـات، وترك ذقنه بلا حلاقة. لكن ها قـد ذهب عنها الضيق عندما انتهى العمل فى القفص. وعندمـا استيقظ بلتثار من قيـلولته كـانت هى قد قـامت بكى البنطلونات وأحـد القمـصان ووضعتها على أحد المقاعد بجوار السرير الشبكى وحملت القفص ووضعته على مائدة حجرة الطعام، وكانت تتأمله صامتة.

- كم ستقبض ثمنًا له؟ سألت

- لست أدرى - أجاب بلتـثار - سوف أطلـب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين.

- عليك أن تطلب خمسين - قـالت أرسولا - لقد سهرت ليالى طويلة خلال هذين الأسبوعين. كمـا أنه قفص كبير. أعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى.

أخذ بلتثار يحلق ذقنه.

- أتظنين أنهم يمكن أن يعطوننى خمسين بيزو؟

- هذا المبلغ لا يعنى شيئًا بالنسبة للسيد " شيبى مونتيل" . كما أن القفص يساوى هذا المبلغ - قالت أرسولا - من الأنسب أن تطلب ستين بيزو.

كان المنزل فى الظل الخانق. وفى الأسبوع الأول من أبريل، وبدا أن الحر أشد قسوة بسبب طنين الحشرات. وعندما انتهى بلتثار من ارتداء ملابسه فتح باب الفناء لتهوية المنزل، وعندئذ دخلت مجموعة من التلاميذ حجرة الطعام.

ذاع الخبر فى كل مكان. كان الدكتور العجوز أوكتابيو خيرالدو - السعيد فى حياته المتعب من ممارسة المهنة - يفكر فى القفص الذى صنعه بلتثار، يفكر فى ذلك أثناء تناوله طعام الغذاء مع زوجته المعاقة. كانا جالسين فى التراس الداخلى حيث توضع المائدة فى هذا المكان أيام القيظ يحيط بها الكثير من أصص الزهور بالإضافة إلى قفصين بهما طيور الكنارى.

كانت زوجته تعشق العصافير لدرجة أنها كانت تكره القطط فى المقابل إذ هى حيوانات قادرة على التهام العصافير. ولما كان الدكتور "خيرالدو" يفكر فى زوجته، توجه فى ذلك المساء لزيارة مريض، وعند عودته مر بمنزل بلتثار ليرى القفص.

كان هناك عدد كبير من الناس فى غرفة الطعام، وقد وضع القفص على المنضدة وقد علته القبة الضخمة المكونة من الأسلاك، هو قفص مكون من ثـلاثة أدوار داخلية مع ممرات وأماكن خـاصة لوضع الطعام والنوم، وكذلك أرجوحات فى الفـراغات المخصصة لحركة العصافير. بدا القفص بهذا الشكل كأنه نموذج مصغر لمصنع ضخم لإنتاج الثلج، تأمل الطبيـب القفص بعناية دون أن يلمسه، وتصور أن هذا القـفص سوف يكون أغلى مما يطيق هو، كـما أنه جميل لدرجة تفوق ما تصوره كهدية لزوجته.

- تلك هى مغـامرة الخـيال - قال هذه العـبارة باحـثًا عن بلتثار وسط مـجموعة الحاضرين، وأضـاف وهو يلقى نظرة حانية على القفص - كان من الممكن أن تكون مهندسًا بارعًا.

شعر بلتثار بالخجل.

- شكرًا - قال.

- هذا حقـيقى - قـالها الطبـيب. كان ممتلئًا، لـكن كانت سمنة ناعمة ولينة كأنها لامرأة تمتـعت بالجمال أثناء فترة شبابها - كانت يداه رقـيقتـين - كما أن صوته يشـبه صوت القـسيس وهو يتحدث اللغة اللاتينية - كما أنه ليس من الضرورى أن توضع فيه أية عصافير - قالها وهو يقوم بتـوجيه القفص ليكون أمام جمهور الحاضرين وكأنه يقوم ببيعه - يكفى أن يعلق وسط الأشجار فيغنى

مثل العصافير - ثم عاد لوضع القفص على المنضدة، وفكر هنيهة وهو ينظر إليه ثم قال:

- حسن، أنا مستعد لشرائه.

- إنه مباع - قالت أرسولا.

- إنه لابن "شيبى مونتيل" - قـال بلتثار - فقد طلب منى صناعته.

اتخذ الطبيب موقفًا مسئولاً.

- هل أعطى لك النموذج؟

- لا - قال بلتثار - لقد قال بأنه يرغب فى قفص كبير مثل هذا من أجل زوجين من طائر التوربيال (عائلة الببغاء).

فنظر الطبيب للقفص ثم قال:

- لكن هذا القفص لا يصلح لطيور "التوربيال"

- نعم يا دكـتـور - إنه لا يصلح - قـالها بلـتثـار - وهو يقترب من المنضدة. أحاط به الأطفـال - لقد أخذت المقاسات فى الاعتـبار - قـال ذلك وهو يشيـر بالسبـابة إلى الأجزاء المختـلفة للقفص، ثم نقر على قبة القفص بظهر أصابعه فملأ القفص رنين عميق.

-السلك الذى استخـدم فى صنعه شديد المقاومـة، كما أن كل توصيلة تم لحامها جيدًا من الداخل والخارج - قال بلتثار.

- القفص يصـلح أيضًا للببـغاوات - تدخل أحـد الأطفال بالقول.

- هو ذاك - قال بلتثار.

هز الطبيب رأسه.

- حسن لكنه لم يعطك النموذج - قال - ولم يطلب منك شـيئًـا محـددًا، وكل مـا طلبه هـو قفص كـبيـر يصلح لطيـور "التوربيال" أليس كذلك؟

- بلى هو كذلك. قال بلتثار.

- إذن ليست هناك مشكلة - قـال الطبيب - هناك فرق بين قفـص يصلح لزوجين من التـوربيال وهذا القـفص، كمـا أنه لا يوجد دليل على أن هذا القفص هو ما طلبوه منك.

- إنه هو نفسه - قال بلتثـار وهو يشعر بشىء من الضيق - ولهذا قمت بصنعه.

صدرت على الطبيب بوادر فقدانه الصبر.

- يمكن أن تصنع آخـرًا - قـالت أرسـولا وهى تنظر إلى

زوجها ثم تتـوجه بعينيها إلى الطبيب - سـيادتك لست فى عجلة من الأمر.

- لقد وعدت امرأتى به هذا المساء - قال الطبيب.

- أنا متأسف كثيراً يا دكـتور - قال بلتثار - لكن لا يمكن إعادة بيع شىء مباع.

هز الطبيب كتفيه وقام بتخفـيف العرق على رقبته مستخدمًا منديلاً وتأمل القـفص فى صمت دون أن يحـرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل مركبًا أخذ طريق السفر.

- كم أعطوك مقابلاً له؟

بحث بلتثار عن أرسولا دون أن يجيب.

- ستين بيزو - قالت.

ظل الطبيب يرمق القفص.

- إنه قفص جميل - تنهد - جميل للغاية.

ثم تحرك صوب الباب وأخذ يحـرك مروحة اليد بشدة وهو يبتسم ثم اختفت ذكريات ذلك المشهد من مخيلته للأبد.

- مونتيل رجل غنى - قال

لم يكن خوسيه مونتيل غنيًـا بالدرجة التى كان يبدو عليها، لكنه كان قادراً على الوصول إليـها. وعلى بعد قليل من المكان ها

هو هناك فى منزل ملىء عن آخره بسروج الخيل، حيث كل شىء قابل للبيع؛ كـان لا يبالى بالحديث عن القفص. أمـا زوجته التى تعيش حالة فزع من الموت فقد أغلقت الأبواب والنوافذ بعد طعام الغذاء واستـرخت ساعتين وعيناها مـفتوحتين فى محـيط الحجرة شبه المظلمـة بينما خوسيـه مونتيل ينام القيلولة. وبينـما هما على هذه الحال فاجأهمـا خليط من الأصوات. عندئذ فتح باب الصالة ورأى جمعًـا من الناس أمام الباب، ورأى بلتـثار وهو فى الوسط يحمل القـفص وقد ارتدى اللون الأبيض بعـد حلاقـة ذقنه. كان وجهه يحمل فرحة الفقراء وهم يقتربون من منازل الأغنياء.

- يا له من قفص رائع - قالت زوجة خوسـيه مونتيل وقد علا وجـهها بريـق وهى تقود بلتثـار إلى داخل المنزل - لم أر فى حياتى قط شيئًا مثل هذا - قالتها وأضافت وهى تشعر بالضيق من الجمع الذى التف أمام باب المنزل - لـكن عليك أن تأخذ القفص إلى الداخل فسوف يحولون الصالة إلى قفص للدجاج.

لم يكن بلتـثار غـريبًا على منزل خـوسيـه مونتـيل. فنظرًا لقدراته والتزامه استدعوه أكثر من مرة ليقوم ببعض أعمال النجارة البسيطة، لكنه لم يشعر بالراحة وسط الأغنياء. عادة ما كان يفكر فيـهم وفى نسائهم الـقبيـحات سيئات الـطباع، وفى العمـليات الجراحـية الكبرى اللاتى يجـرينها، وكان يشـعر بنوع من الشفـقة عليهن، وعندما كان يدخل منـازلهم لم يكن يتحرك إلا وهو يجر قدميه.

- هل بيبى هنا؟ سأل

كان قد وضع القفص على منضدة حجرة الطعام.

- إنه فى المدرسة - قالت زوجة خوسيه مونتيل - وسرعان ما سيعود إلى المنزل - ثم أضافت - مونتيل يأخذ حمامًا.

فى الحقيقة لم يكن لدى خوسيه مونتيل وقت للاستحمام، وكل ما فعله هو أن قام برش بعض ماء الكولونيا ليخرج ويعرف ما الذى يجرى. كان رجلاً شديد الحذر لدرجة أنه كان ينام دون تشغيل المروحة الكهربائية وذلك حتى لا يفوته، وهو نائم، سماع ما يجرى فى المنزل.

- تعال لترى هذا القفص المدهش - صاحت زوجته.

كان خوسيه مونتيل ممتلئًا غزير الشعر وقد علق الفوطة على رأسه ونظر من نافذة حجرة النوم.

- ما هذا؟

- إنه قفص بيبى - قال بلتثار.

- نظرت إليه المرأة بحيرة.

- لمن ؟

- لبيبى - أكد بلتثار، ثم توجه إلى خوسيه مونتيل قائلاً : طلب منى أن أصنعه.

لم يكن قد حدث شيء حتى هذه اللحظة، لكن بلتثار شعر بخجل شديد وكأن أحداً فتح عليه باب حجرة الحمام. خرج خوسيه مونتيل من حجرة النوم وهو يرتدى السروال.

- يا بيبى - صاح.

- لم يصل بعد - همهمت زوجته دون أن تتحرك.

ظهر بيبى على الباب. كان طفلاً فى الثانية عشرة من العمر، أهدابه مجعدة وعليه الهدوء المؤثر الذى لوالدته.

- تعال إلى هنا - قال خوسيه مونتيل - هل طلبت صناعة ذلك؟

طأطأ الطفل رأسه. فأمسك به خوسيه مونتيل من رقبته وأجبره على النظر إلى عينيه.

- أجب .

أمسك الطفل شفتيه بين أسنانه ولم يجب.

- يا مونتيل - همست الزوجة.

ترك خوسيه مونتيل الطفل واتجه إلى بلتثار - بلهجة من يشعر بالاستفزاز.

- أنا شديد الأسف يا بلتثار - قال - لكن كان عليك أن تبلغنى قبل أن تبدأ فى العمل. أنت الوحيد الذى يعنّ له التعاقد

مع حدث - أخذت تعبيرات الهدوء تعتلى وجـهه شيئًا فشيئًا. ثم رفع القفص دون النظر إليه وأعطاه لبلتثار.

- خذ القفص فى الحال وحاول بيعه ما أمكنك - قال ذلك - وأهم شىء أننى أرجوك ألا تناقشنى - ربت على كـتفه - وقال مفسرًا : لقد منعنى الطبيب من الانفعال.

كان الطفل سـاكنًا دون أن يتحـرك له جفن حتى رآه بلتـثار وقد اعتلته الحيرة وهو يحمل القفص فى يده. عندئذ أصدر صوتًا كأنه همهمـة أو كأنه كلب يعبر عن غضبـه، ثم ألقى بنفسه على الأرض وهو يصيح.

كان خـوسيه مـونتيل ينظر إليـه غير مـبال بينمـا تقوم الأم بتهدئته.

- لا ترفعيه من على الأرض - قال - اتركيه ليضرب رأسه فى الأرض وبعد ذلك نعالج الجـرح بالملح والليمون حتى يعـجبه ذلك.

ظل الطفل يـصـيح ويبكى دون دمـوع بينـمـا تمسك أمـه بمرفقيه.

- اتركيه - أصر خوسيه مونتيل.

تأمل بلتثار الطفل وكأنه ينظر إلى حيوان يحتضر من مرض معد. الساعة تقترب من الرابعة.

كانت أرسولا فى هذه الساعة فى منزلها تردد أغنية قديمة وهى تقطع حلقات البصل.

- بيبى - قال بلتثار.

اقترب من الطفل وهو يبتسم ومد يده إليه بالقفص. فوقف الطفل فى قفزة واحدة واحتضن القفص الكبير، ثم ظل يرمق بلتثار من خلال فتحات القفص دون أن يدرى ماذا يقول. لم تطفر دمعة واحدة من عينيه.

- يا بلتثار - قال خوسيه مونتيل برقة - قلت لك أن تأخذ القفص.

- أعد إليه القفص - قالت المرأة آمرة الطفل.

- هو لك - قال بلتثار - ثم توجه إلى خوسيه مونتيل - على العموم لقد صنعته لهذا الغرض.

طارده خوسيه مونتيل حتى الصالة.

- لا تكن أبلهًا يا بلتثار - كان يقول ذلك وهو يحاول منعه من الخروج - احمل حاجتك إلى المنزل ولا ترتكب المزيد من الحماقات. أنا لا أفكر فى دفع فلس واحد.

-هذا لا يهم - قال بلتثار - لقد صنعت القفص لأهديه إلى بيبى. لم أفكر فى أى مقابل.

وعندما أخذ بلتشار يفسح لنفسه الطريق وسط جمع الفضوليين المنتظرين أمام الباب كان خوسيه مونتيل يصيح وهو فى وسط الصالة. كان بلتشار منتفخ الوجه وأخذت عيناه فى الاحمرار.

- يا أبله - كان يصيح - خذ حاجياتك، ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى، يا لها من مصيبة!

فى صالون البلياردو، استقبل الحضور بلتشار مهللين. كان حتى هذه اللحظة يظن أنه صنع قفصًا أفضل من الأقفاص الأخرى، وأنه قد أهداه إلى ابن خوسيه مونتيل حتى يتوقف عن البكاء ولا شىء أكثر.

لكنه أدرك أن ذلك الأمر له أهمية كبيرة لدى الكثير من الناس، وعندئذ شعر بنوع من الانفعال.

- الأمر هو أنهم دفعوا لك خمسين بيزو مقابل القفص.

- بل ستين - قال بلتشار.

- يجب أن ترتفع الهامات إلى عنان السماء - قال أحد الحضور - أنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يأخذ من مونتيل هذا المبلغ من المال. يجب أن نحتفل بهذا.

قدموا له بيرة فـأجابهم بلتثار بدعوتهم جميـعًا على البيرة. ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى يشرب فيها فقد سكر تمامًا مع حلول الظلام، كان يتحدث عن مشـروع ضخم عبارة عن صناعة ألف قفص سـعر كل واحـد منها ستـين بيزو، وبعـد ذلك مليون قفص بمبلغ إجمالى ستين مليون بيزو.

- لابد من صناعـة أشياء كـثيرة لنـبيعـها للأغنيـاء قبل أن تواتيهم المنية - قال هذه العبـارة وقد أعماه السكر - كلهم مرضى وسوف يمـوتون. لقد وصل الأمر بهم إلـى أنهم لا يقدرون على الانفعال.

ظل جـهاز الاسـطوانات الآلى يعـزف لمدة ساعـتـين على حساب بلتثار - وشرب الجـميع نخب بلتثار وحظه وثروته وموت الأغنياء. لكن عندما حانت ساعة تناول الطعام تركوه وحده.

انتظرته أرسولا حـتى الثامنة، وكـانت قد أعدت طبـقاً من اللحم المفروم المحمر والمغطى بحلقات البـصل. وقد قال لها أحد الناس أن زوجها متواجـد فى صالون البلياردو وقد جن جنونه من السعادة وأخذ يدعو الجميع إلى تناول البيرة على حسابه. لكنها لم تصدق ذلك ونامت حتى اقترب الليل من منتصفه. كان بلتثار فى الصالون المُضاء حيث توجد به مناضد صغيرة تتسع لأربعة، وهناك كراسٍ تحـيط بها، وكذلـك حلبة للرقص فى الهواء الـطلق حيث

تتنقل هناك طيـور الكروان. كـان وجهـه مـحمـراً، ولما لم يكن باستطاعته السير كان يريد مـضاجعة امرأتين مرة واحدة. لقد أنفق الكثير وكان عليه أن يترك ساعته رهنًا على وعد بأنه سيسدد الثمن فى اليـوم التالى. وبعـد ذلك بلحظات، وعندمـا أخذ يسـيـر فى الشارع أدرك أن هناك من ينتزع منه حذاءه، لكنه لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته. ولـم تجرؤ على النظر إليه النسوة اللاتى كن ذاهـبات إلى قداس الخامسة فجراً ظنًا منهن أنه ميت.

قيلولة الثلاثاء

(١٩٦٢)

خرج القطار من الممر المتعرج المحاط بالصخور المائلة للحمرة، ودخل وسط زراعات الموز المتراصة التى لا تنتهى، وأصبح الهواء أكثر رطوبة، اختفت نسمات البحر. دخلت النافذة المفتوحة دفعة كثيفة من الدخان الخانق. وعلى الطريق الضيق الموازى لخط السكك الحديدية تسير عربات تجرها الثيران، محملة بعناقيد الموز الخضراء اللون، وعلى الجانب الآخر تظهر بين الفينة والأخرى مكاتب بها مراوح كهربائية وأفنية تحيط بها أسوار من الطوب الأحمر، ومنازل بها مقاعد، ومناضد صغيرة بيضاء اللون وقد وضعت جميعها فى الشرفات بين النخيل والورود المكسوة بالأتربة. كانت الحادية عشر صباحًا، ولكن لم يكن الحر قد بدأ بعد.

- من الأفضل أن تغلقى زجاج النافذة - قالت المرأة - سوف يمتلئ شعرك بذرات الفحم، حاولت الطفلة أن تغلق النافذة لكن لم تستطع بسبب الصدأ الذى يكسو الشباك. كانتا المسافرتين الوحيدتين فى هذه العربة المتواضعة من عربات الدرجة الثالثة. ولما ظل دخان القاطرة يدخل إلى العربة عبر النافذة تركت الطفلة مكانها ووضعت هناك الأمتعة الوحيدة التى تحملانها. كانت عبارة

عن شنطة من مادة بلاستيكية بها بعض الطعام وباقة زهور ملفوفة في ورق الصحف. جلست على المقعد المقابل وقد ابتعدت عن النافذة، ووالدتها في المقعد المقابل. كانت كلتاهما ترتديان ملابس الحداد الملتزمة والبسيطة.

الطفلة تبلغ اثنتا عشر عامًا، وهذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها، أما المرأة فقد بدا أنها طاعنة في السن بالمقارنة بابنتها، وهذا يرجع إلى العروق الزرقاء البارزة في منطقة الحواجب وفي أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه. ترتدى فستانًا يشبه ملابس القساوسة. وتجلس وهي تسند ظهرها إلى مسند الكرسي. وبكلتا يديها تسند في حجرها شنطة من الجلد اللامع وقد تقشرت. كانت تبدو عليها ملامح الهدوء مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر.

أخذت الحرارة تشتد في الثانية عشرة. توقف القطار لعشر دقائق في محطة ليس بجوارها أية قرى وذلك للتزود بالمياه. وفي وسط الصمت الغامض للمزروعات كان الظل نقيًا، لكن الهواء المتوقف داخل عربة القطار كان يحمل رائحة جلد غير مدبوغ. بعد هذه المحطة لم يعد القطار إلى السرعة المعهودة. وتوقف بعد ذلك عند قريتين متشابهتين حيث المنازل الخشبية المطلية بالألوان الزاهية. مالت المرأة برأسها وغرقت في غفوة. قامت الطفلة بخلع حذائها ثم ذهبت بعد ذلك إلى المرحاض لتبلل باقة الزهور الذابلة.

وعندما عادت، كانت الأم تنتظرهـا لتناول الطعام، أعطتها قطعـة من الجبن ونـصف فطيـرة من فطائر الذرة وقطـة بسكويت مسكرة، وأخرجت لنـفسها نفس الكميـة من الشنطة المصنوعة من المادة البلاسـتيكية. وبينمـا تتناولان الطعام مـر القطار ببطء شديد على كوبرى معدنى، وعن بعيد ترى قرية شـبيهة بالقرى السابقة. والفارق هو أن ميـدان القرية كان غاصًا بالـناس. هناك تقف فرقة موسيقية تعزف مقطوعة مرحة، بينما الشمس تضرب بقوة، وعلى الجـانب الآخـر هناك وادى تحـيط بـه الصـحـراء مـعلنة حـدود الزراعات.

توقفت المرأة عن الأكل، ثم قالت:

- البسى الحذاء.

نظرت الطفلة إلى الخـارج فلم تر شيـئًا إلا الوادى القـاحل الذى أخذ الـقطار يعبـر منه ويأخذ سـرعتـه المعتادة مـن جديد. وقامت بوضع الـبقيـة الباقيـة من البسكويت فى الشنـطة ولبست حذائها. ثم قامت المرأة بإعطائها المشط وقالت :

- قومى بتسريح شعرك.

وبينما كانت الطفلة تسرح شعرها كان القطار يصفر، قامت المرأة بتجفـيف العرق على رقبتـها، وأزالت عرق وجههـا بمسحة بأصابعـها. وعندمـا انتهت الطفلة من تسـريح شعرهـا مر القطار

بالمنازل الأولى لقرية أكبر من القرى السابقة.

- إذا ما كنت تريدين أن تفعلى شيئًا فعليك أن تفعليه الآن
- قالت المرأة - فعليك ألا تشربى ماءًا من أى مكان حتى ولو اشتد بك العطش. وأؤكد على أنك لا يجب أن تبكى.

هزت الطفلة رأسها بالموافقة. كان الهواء الساخن والجاف يدخل من النافذة، وقد اختلط بصفير القاطرة والصوت الرتيب لعربات القطار القديمة. قامت المرأة بلف الشنطة بما بها من بقايا الطعام ثم وضعت فى الشنطة الجلدية. ظهرت صورة القرية كاملة منعكسة على النافذة كأنها وميض. كان اليوم هو الثلاثاء خلال شهر أغسطس. قامت الطفلة بلف باقة الزهور فى ورق الصحف المبلل وابتعدت أكثر عن النافذة ورمقت أمها بثبات. فهدأت الأم من قلق ابنتها. كان القطار قد توقف عن الصفير وأخذت سرعته تقل وتوقف بعد ذلك بلحظات.

لم يكن هناك أحد فى المحطة. وعلى الجنب الآخر من الشارع كان الرصيف مظللاً بأشجار اللوز، ولم يكن مفتوحًا إلا صالون البلياردو. القرية تغط فى القيظ. نزلت المرأة والطفلة من القطار وعبرتا المحطة المتهالكة حيث بلاط الأرضية تحيط به الحشائش من كل ناحية. ثم عبرتا الشارع حتى الرصيف الظليل.

الساعة تقترب من الثانية. والقرية تعيش فى هذه اللحظة

فترة القيلولة، فقد كانت المحلات والمكاتب العامة والمدرسة البلدية تغلق أبوابها فى الحادية عشرة، ثم تعود لاستئناف نشاطها قبل الرابعة بقليل، أى عندما يمر قطار العودة. ولم يظل مفتوحًا إلا الفندق الكائن أمام المحطة - والكانتين وصالون البلياردو ومكتب التلغراف الكائن إلى جوار الميدان. أما المنازل التى بنى معظمها طبقًا للنموذج الذى نفذته شركة الموز فقد كانت أبوابها مغلقة، أسدلت السواتر الخشبية على النوافذ. الحرارة شديدة داخل بعض هذه المنازل لدرجة أن سكانها كانوا يتناولون طعام الغذاء فى الفناء. وهناك آخرون قد جلسوا على بعض المقاعد يستظلون بأشجار الجوز ويقضون ساعة القيلولة فى الشارع.

أخذت المرأة والطفلة تسيران وهما تحتميان بظل شجر اللوز دون أن تعكرا صفو القيلولة على أحد. واتجهتا مباشرة إلى منزل القس. حكت المرأة الشبكة المعدنية للباب بأظافرها وانتظرت لحظات ثم عادت لتنادى. فى الداخل كان ينبعث صوت مروحة كهربائية. لم تسمع أية خطوات، هناك فقط صرير خفيف لباب يفتح ثم صوت حذر يقترب من الشبكة المعدنية : "من الطارق؟" حاولت المرأة أن تعرف المتكلم عبر الشبكة المعدنية.

- إنى أريد التحدث إلى الأب.
- إنه نائم الآن.
- الأمر عاجل - أصرت المرأة.

كان صوتها ينبئ عن عزم هادئ.

فتح الباب بعض الشيء دون أى صرير، وظهرت امرأة ناضجة وممتلئة وشاحبة اللون، وشعرها حديدى اللون. كانت عيناها تبدوان صغيرتين جداً وهما خلف زجاج النظارة الطبية.

- ادخلا - قالتها وفتحت الباب.

دخلتا حجرة صغيرة تفوح منها رائحة معتقة للزهور. قادتهما سيدة المنزل إلى مقعد خشبى وأشارت إليهما بالجلوس. جلست الطفلة، لكن الأم ظلت واقفة بلا حراك وهى تحمل الشنطة الصغيرة بين يديها، لا تسمع أية جلبة غير صوت المروحة الكهربائية.

ظهرت سيدة المنزل على الباب الداخلى.

- إنه يقول: عليكما أن تعودا بعد الثالثة - قالتها بصوت خافت - لقد خلد للنوم منذ خمس دقائق.

- إن القطار سوف يغادر البلدة فى الثالثة والنصف - قالت المرأة.

كان ردها موجزاً وواثقًا، لكن ظل صوتها هادئًا، ابتسمت سيدة المنزل لأول مرة.

- حسن - قالت.

عندما أغلق الباب الداخلى مرة أخرى، جلست المرأة إلى جوار ابنتها. كانت صالة الاستقبال الضيقة متواضعة ومنظمة ونظيفة. وعلى الجانب الآخر من أحد الحواجز الخشبية التى كانت تقسم الحجرة. كانت هناك منضدة للعمل، تتسم بالبساطة، يغطيها مفرش من البلاستيك وفوقها ماكينة للكتابة قديمة الصنع، وإلى جوارها كوبًا به بعض الزهور. وخلف ذلك كان أرشيف الكنيسة الصغيرة. ومن الواضح أن المكتب قد رتبته امرأة غير متزوجة.

عندما فتح الباب الداخلى مرة أخرى ظهر القس وهو ينظف زجاج النظارة بمنديل، وعندما وضعها على عينيه بدا من الواضح أنه شقيق السيدة التى فتحت لهما الباب.

- ماذا يمكن أن أفعل لكما؟ سأل.

- مفاتيح المقابر - قالت المرأة.

كانت الطفلة تجلس وهى تحمل الزهور فى حضنها وقد التفت رجليها تحت المقعد.

نظر إليها القس ثم نظر بعد ذلك للمرأة ثم نظر إلى السماء الصافية عبر الشبكة المعدنية للنافذة.

- إن الجو حار جدًا - قال - كان من الممكن أن تنتظرا حتى قبل الشمس قليلاً.

حركت المرأة رأسها فى صمت. انتقل القس إلى الجانب الآخر من الحاجز الخشبى وأخذ كراسة مجلدة بالبلاستيك من الدولاب، ثم قلمًا من البوص ومحبرة، وجلس إلى المنضدة. والشعر الذى كانت رأسه تفتقر إليه كان يزيد عن حدة على ذراعيه.

- أى مقبرة سوف تزوران؟ - سأل.

- إنها مقبرة كارلوس ثنيتنو - قالت المرأة.

- كارلوس ثنتينو - كررت المرأة.

ظل القس على وضعه وكأنه لم يفهم شيئًا.

- إنه اللص الذى قتلوه هنا خلال الأسبوع الماضى - قالت المرأة بنغمة ثابتة - أنا أمه.

تفحصها القس جيداً، ونظرت إليه المرأة بثبات وهى متماسكة وهادئة. وشعر الأب بشىء من الخجل. وطأطأ رأسه ليكتب. وبينما يملأ الورقة بالبيانات أخذ يطلب من المرأة بياناتها الشخصية، فكانت تجيبه بلا تردد، وتذكر التفاصيل الدقيقة كأنها تقرأ نصًا. أخذ الأب يتصبب عرقًا، فكت الطفلة أزرار حذاء قدمها اليسرى ثم خلعت الحذاء وسندت رجلها إلى رجل المقعد، وفعلت نفس الشىء مع القدم اليمنى.

•

بدأت الخيوط الأولى للأحداث يوم الاثنين من الأسبوع الماضى فى حوالى الثالثة فجرًا، وعلى مسافة قصيرة من هذا المكان. شعرت السيدة دبيكا - وهى أرملة تعيش بمفردها فى منزل ملىء بالأمتعة المتهالكة - بأن ثمة صوت يسمع من خلال صوت المطر الخفيف، وأن أحدًا ما يحاول أن يكسر الباب من الخارج. فنهضت وبحثت وسط ملابسها عن مسدس قديم لم تنطلق منه أى طلقة، منذ أيام العقيد "أوريليانو بوين ديا"، ثم اتجهت إلى الصالة دون أن تشعل النور. وأخذت تتوجه يقودها خوف تربى داخلها على مدى ثمانية وعشرين عامًا باحثة من خلال خيالها عن المكان الذى فيه الباب وكذا الارتفاع المحدد للمزلاج.

أمسكت السلاح بكلتا يديها ثم أغمضت عينيها وضغطت على الزناد ولأول مرة فى حياتها تطلق النار. وبعد هذه الطلقة لم تشعر بشىء على الإطلاق اللهم إلا صوت قطرات المطر المتساقطة على السقف المصنوع من الزنك. وبعد ذلك سمعت صوت ارتطام معدنى على الرصيف الأسمنتى وصوت واهن ومستسلم لكنه منهك للغاية.

"آه يا أمى" كان الرجل الميت والملقى أمام المنزل، وقد تهتك أنفه، يرتدى فانلة مقلمة وبنطلونًا عاديًا يربطه بحبل بدلاً من الحزام. كما كان حافى القدمين. لم يتعرف عليه أحد فى القرية.

- إذن كان اسمه "كارلوثنتينو" - همهم الأب عندما انتهى من الكتابة.

- كارلوس ثنتينو أيالا - قالت المرأة - كان الابن الوحيد.

عاد القس إلى الدولاب. وفى داخل الباب كان هناك مفتاحان قديمان يعلوهما الصدأ معلقان على أحد المسامير، وقد عاشت الطفلة والأم عندما كانت طفلة، وكذلك القس عندما كان صغيراً خيال هذه المفاتيح على أنها مفاتيح القديس بطرس. فأخذها ووضعها على الكراسة المفتوحة وأشار بالسبابة إلى مكان على الصفحة المكتوبة وهو ينظر إلى المرأة.

- وقعى هنا.

نقشت المرأة اسمها وهى تمسك بالشنطة الجلدية تحد أبطها. وأخذت الطفلة الزهور ثم توجهت إلى الحاجز وهى تجر حذاءها وتراقب أمها باهتمام.

تنهد القس.

- ألم تحاولى أن تجعليه يسير فى الطريق القويم؟

- فأجابت المرأة بعد أن فرغت من نقش اسمها.

- كان رجلاً طيبًا.

أخذ القس يتنقل بعينيه بين الأم والطفلة ورأى وهو يشعر بشيء من الخجل الرحيم أنهما لم تدمعا. استمرت المرأة فى حديثها دون أن تتغير نبرتها.

- لقد قلت له بألا يسرق أبدًا من إنسان يكون فى حاجة للطعام، وكان يعمل بما أقول له. وقبل ذلك، عندما كان يمارس رياضة الملاكمة كان يقضى ثلاثة أيام فى السرير يعانى من الكدمات وآثار اللكمات.

- اضطر لخلع أسنانه كلها - قالت الطفلة.

- بالفعل - أكدت المرأة - وكل لقمة كنت أمضغها فى تلك الفترة كان طعمها هو الضربات التى يكيلونها لابنى مساء السبت.

- لا راد لقضاء الله - قال الأب.

لكنه نطق العبارة بشيء فيه بعض من عدم الاقتناع، ذلك من تجارب الحياة وكذلك بتأثير الحر. طلب منهما أن تحميا رأسيهما حتى لا تصابا بضربة شمس. أشار وهو يتثاءب ويكاد ينام إلى الطريقة التى تستطيعان من خلالها العثور على القبر. وعندما تعودان ليس من الضرورى أن تناديا عليه، وما عليهما إلا أن تتركا المفاتيح من تحت الباب وكذلك صدقة للكنيسة إذا ما كان معهما. أنصتت المرأة للشرح باهتمام بالغ، لكنها شكرته دون أن تبتسم.

وقبل أن يفتح الأب الباب المؤدى إلى الشارع أدرك أن هناك أحد ما ينظر إلى من بالداخل إذ كانت أنفه ملتصقة بالشبكة المعدنية للباب. كانوا مجموعة من الأطفال، وعندما فتح الباب عن آخره تفرقوا. وعادة ما لا يوجد أحد فى الشارع فى مثل هذه الساعة، لكن كان هناك الأطفال ومجموعات من الناس تحت ظلال الجوز. تفحص الأب الشارع الذى تبدلت أحواله - وأدرك ماذا يحدث. ثم عاد لإغلاق الباب فى هدوء.

- انتظره دقيقه - واحدة - قال هذه العبارة دون أن ينظر إلى المرأة.

ظهرت أخته على الباب الداخلى وهى تحمل جاكتة سوداء على قميص نومها، وقد انساب شعرها على كتفيها، نظرت إلى الأب فى صمت.

- ماذا هناك. سأل الأب.

- لقد تنبه الناس - همهمت الأخت.

- من الأفضل أن تخرجا من باب الفناء - قال الأب.

- لا فرق - قالت الأخت - الناس فى كل مكان.

- وحتى هذه اللحظة بدا أن المرأة لم تفهم ما يجرى - حاولت أن تتطلع إلى الشارع من خلال الشبكة المعدنية ثم أخذت

باقـة الزهور من الطفلة واتجـهت صوب البـاب. فسـارت الطفلة خلفها. قال الأب:

- انتظرا حتى تميل الشمس قليلاً.

- سوف تتصـببان عرقًا - قـالت الأخت وهى ساكنة وسط الصالة - انتظرو وسوف أعيركما شمسية.

شكرًا ردت المرأة الأمر أفضل هكذا.

أمسكت ذراع ابنتها وخرجت إلى الشارع.

جنازة الأم الكبرى

(١٩٦٢)

أيها الجاحدون فى هذا العالم، هذه هى القصة الحقيقية للأم الكبرى، العاهل المطلق لمملكة ماكوندو، التى عاشت ولها السيطرة الكاملة طوال اثنين وتسعين عامًا، ثم توفيت وكأنها قديسة، يوم الثلاثاء من الشهر الماضى وحضر قداسة البابا تشييع جنازتها.

لقد استعادت الأمة توازنها بعد الهزة العميقة التى أصابتها. كما أخذ العديد من الناس يلتقطون أنفاسهم بعد فترة ترقب وانتظار طويلين. كان منهم عازفو مزمار القرية ومهربو بلدة "غواخيرا" ومزارعو الأرز فى "سينو" وفتيات الليل فى "غواكامايال" والسحرة فى "سيربى" ومزارعو الموز فى أراكاتاكا. كما عاد رئيس الجمهورية لاستئناف مهام منصبه، وكذلك الوزراء وكل هؤلاء الذين يتولون مناصب عامة، وأولئك الذين يمثلون قوى ما وراء الطبيعة أثناء الفرصة السانحة التى تمثلت فى هذه الجنازة العظيمة التى تسجلها صفحات التاريخ. الآن وقد صعد قداسة البابا إلى الملأ الأعلى جسدًا وروحًا وأضحى من المستحيل التجول فى ماكوندو نظرًا لكثرة ما خلفته الجنازة من زجاجات فارغة وأعقاب السجائر والعظام المكسرة والعبوات المعدنية والخرق

البالـية والروث إلى غـير ذلك مما خلفـته الجـموع التى حـضرت الجنازة. ها قـد حانت سـاعـة وضع كرسى عـالٍ والجلوس على قارعة الطريق والبدء فى سرد تفصيلى لهذا الفوران الوطنى قبل أن يتوفر الوقت لدى المؤرخين.

منذ حوالى أربعة عـشر أسبوعًا وبعـد اليال طويلة لا تنتهى من الكمادات ولصقات الخردل والحجامة، أمرت "الأم الكبرى"، التى أنهكها هذيان الاحتضـار بأن يجلسوها على سريرها الشبكى القديم لتـعبر عن طلـبها الأخـير. وكان ذلك هو الشىء الوحـيد السـابق على موتهـا. فصـبـاح ذلك اليوم كـانت قد أنجـزت كل التفاصيل المتعلقة بروحهـا من خلال الأب أنطونيو إيسابيل. أما ما بقى فكان توزيع ثروتها على أبناء إخوتها ويبلغ عددهم تسعة وهم الورثة الطبـيعيـون لها والذين تحلـقوا حول سـريرها. ظل القس يتكلم بمفرده، كـان على وشك إكمال مائة عام مـن العمر، وبقى فى الحجرة. لكنه حتى يصل إلى حـجرة الأم الكبرى كانت هناك حاجة إلى مـساعدة عشرة رجال، واسـتقر الرأى على أن يظل فى هذه الحجـرة حتى يوفروا على أنفـسهم تعب نزوله وصعـوده مرة أخرى فى الدقائق الأخيرة.

ذهب نيكانور ابن الأخت الكبرى - الضـخم الجثة، الفظ، الذى يرتدى الكاكى وحذاء ذا رقبة به مهماز ويحمل مسدسًا عيار ٣٨ ذا ماسورة طويلة يضعـه تحت القميص - للبحث عن الكاتب

المحلف. توقف كل شيء منذ أسبوع في البيت الضخم المكون من طابقين والذي تنفذ في أرجائه رائحة العسل الأسود والكافور وما تحتويه خزائنه من صناديق وحاجيات قديمة تعود إلى أربعة أجيال مضت وقد تحولت كلها إلى رماد، انتظاراً لهذه اللحظة. وفي الردهة الرئيسية الممتدة والمليئة بأسياخ الحديد التي كانت تعلق فيها لحوم الخنزير المملحة وتصفى الأيائل من دمها أيام الآحاد من شهر أغسطس، كان العمال ينامون متراصين على أجولة الملح، وعلى رد عدد العمل في الحقول انتظاراً للنواح والإعلان بذلك عن الخبر السيئ وسط أرجاء ذلك المُلك الذي لا حدود له. أما باقي أفراد الأسرة فقد ظلوا في الصالة. فالنساء اتشحن بالسواد وأصابهن الشحوب من جراء القلق على الميراث والسهاد. كن يرتدين ملابس الحداد المبالغ فيها وكأنه حداد فوق حداد. ذلك أن "الأم الكبرى" اتسمت بالتشدد في مشاعر الأمومة وأحاطت ثروتها واسمها بسياج متين بداخله كان الأعمام يتزوجون ببنات الأخوات، وأبناء الأعمام يتزوجون بالعمات، والأخوة يتزوجون بأصهارهن من النساء حتى أصبح الأمر عبارة عن شبكة معقدة من القرابة، وبذلك دخلت عملية التناسل في حلقة مفرغة. ولم تستطع الإفلات من هذا الحصار إلا "ماغدالينا" أصغر بنات الأخوة. ولما أفزعها الهذيان قام برقياها الأب أنطونيو إيسابيل وحلقت شعر رأسها ورفضت ملذات الدنيا وسارت في طريق الرهبنة. وإلى جانب أفراد العائلة الرسميين كان الذكور قد

استخدموا حقهم فى فض بكارة عـرائس مخدوميهم المنتشرين فى الأكواخ والعـزب والمنازل، وبذلك كان هناك عـدد كبـير من أبناء السفـاح منتشـرين بين الناس البسطاء وليس لهم ألـقاب اللهم إلا الابن بالتبنى والتابع والمفضل والذى يحظى بحماية الأم الكبرى.

أثار قـرب أجل الأم الكبـرى حـالة ترقب شـديدة. كـان صوت هذه التى تحـتضر والتى تعودت على عـبارات المديح وعلى أن يطيعها الآخـرون واهنًا كأنه أقل درجات آلة الأرغن، لكنه مع كل هذا له صداه فى كافة أرجاء أملاكها. فلم يكن أحد بمعزل أو غير مـبال بحالة الوفاة هذه. كانت الأم الـكبرى طوال هذا القرن بمثابة مـركز الجاذبيـة فى ماكوندو، كـما كان على ذلك أشـقاؤها ووالديها وأجدادها فى الماضى الذى امتـد لقرنين من الزمان. لقد تأسـست القرية حـول لقبـهـا، ولم يكن أحد يعـرف الأصل أو الحدود أو القيمة الحـقيقية للتركة، إلا أن الناس جمـيعهم اعتادوا على الظن بأن الأم الـكبـرى هى مـالكة للمـيـاه، الجـارية منهـا والراكدة، الآتية عن أمطار سابقـة أو لاحقة، وأنها مالكة الطرق المجاورة وأعـمدة التلغراف. والسنوات الكبـيسة والحـر، وأن لها الحق الموروث على الحـيـاة والأملاك. وعـندما تجلس فـى شرفـة منزلها بجـسدها الضـخم وسلطانها المحشـورين فى هذا الكرسى الهزاز القديم لتستمتع بنسمـات ما بعد الظهيرة كـانت تبدو قوية وغنية، أى السيدة الأكثر قوة وغنى فى هذا العالم.

لم يخطر على بال أحد أن "الأم الكبـرى" فانية، اللهم إلا أفـراد عائلتـها، وكـذلك هى نفسـها بعـد أن وخزتهـا علامـات الشيخوخة التى يعانى منهـا الأب أنطونيو إيسابيل. إلا أنها كانت واثقة أنها سوف تعـيش أكثر من مائة عام مثل جـدتها لأمها التى استطاعت خـلال حرب عـام ١٨٧٥ أن تواجـه دورية للعـقيـد "أوريليانو بوين ديا". وقد فعلت ذلك متحصنة فى مطبخ أعزل. إلا أنه أثناء شهـر أبريل من هذا العام عـرفت الأم الكبرى أن الله لن يساعـدها على أن تقوم بنفسـهـا بالقضاء على مـجمـوعة من الماسونيين الفيدراليين.

خلال الأسبوع الأول من مرضها قام الطبيب بتخفيف الآلام من خـلال ضمـادات الخردل والجـوارب الصـوفيـة. كان طبـيبًـا بالوراثة، تخرج فى مونبيلييـه، وكان على قناعة تامة بعدم جدوى التقدم فى مضمـار الطب. وقد قامت الأم الكبرى بمنع أى طبيب آخـر لإقامـة عيـادته فى ماكـوندو. وفى الزمن الذى مضى كـان يطوف بأرجاء القرية ممتطيًا صهوة الجواد، وذلك لزيارة مرضاه فى فترة المساء. كما أن الطبيعة حبته ميزة أن يكون أبًا لأبناء ليسوا من صلبـه. لكن التهـاب المفاصل جـعله يقبع فى مكانه، وانتـهى به الأمـر ليـعود مـرضـاه دون زيارته لهم، وكـان ذلك من خـلال المراسيل والافتراضات وتناقل الأخبار المرضية.

وعندما طلبته الأم الكبرى عبـر الميدان وهو يرتدى البيجامة متكئـًا على اثنين من العصـى، واستقـر به المقام فى حـجرة نوم

المريضة. وعندما أدرك أن الأم الكبرى تعـيش لحظاتها الأخيرة أمر بأن يأتوا له من المنزل بصندوق فيـه بعض الأوانى من البورسلين، وقد كتبت عليها بعض الرموز باللغة اللاتينية. قام بدهان المحتضرة فى الأجـزاء الظاهرة وتحت المـلابس بمجـمـوعـة من اللصـقـات الأكاديمية وماء الورد الطبى والتحاميل العظيمة التأثير. وبعد ذلك وضع على مكان الألم علجـوم مبلل والعلق على الكليتـين حتى فجر ذلك اليوم الذى كان عليـه أن يواجه أحد أمرين: إما أن يتم استـدعاء المتخصص فى الحـجامة، أو يقوم الأب أنطونيـو إيسابل بقراءة بعض التعاويذ.

أمر نيكانو بالبحث عن القسيس، وقـام أفضل عشرة رجال عنده بحمل الرجل من المنزل المخصص للقساوسة حتى مخدع الأم الكبـرى وهوة جالس على الكرسى الهـزاز المصنوع من الخـيزران الذى وضعت عليه شلتـة خاصة للمناسبـات الكبرى. كان توزيع الطعام ذات صبـاح حار من شهر سبتـمبر أول بادرة لإبلاغ سكان ماكوندو. وعندما أشرقت شمس ذلك اليـوم تحول الميدان الصغير المواجه لمنزل الأم الكبرى إلى واحد من مشاهد الأسواق الريفية.

بدا الأمر وكـأنه إحياء لذكرى أزمنة مـضت، وذلك عندما بلغت الأم الكبرى السـبعين من العـمر واحتـفلت بعيد مـيلادها احتفالاً بهيجًا وطويلاً لم يعـرف بمثله من قبل، فقد نصبت أماكن تقـديم المشروبـات الكحوليـة لكل أبناء القـرية وذبح العـديد من

رؤوس الماشية في الميدان العام. وتم استدعاء جوقة موسيقية أخذت تعزف دون انقطاع لمدة ثلاثة أيام. وتحت ظلال أشجار اللوز، التي علا التراب أوراقها، عسكرت قوات العقيد أوريليانو بوين ديا، وأقيمت منافذ لبيع خمر قصب السكر والفطائر والسجق المحشو بالدم، وشحم الخنزير المقلى، والفطائر المملحة المحشوة، والسجق والجبن والكعك المقلى والرقاق المحشو والنقانق الأسبانية وأحشاء الذبائح والكعك المصنوع من جوز الهند ومشتقات عصير قصب السكر المخمر. وإلى جانب ذلك العديد من أماكن بيع أدوات التزين الصغيرة والبسيطة، وكذا أماكن بيع الأواني وحلقات مصارعة الديكة ومناضد لعب اليانصيب ووسط ذلك الجمع الحاشد من الأماكن والناس كانت تباع الصور والأوشحة التي تحمل صورة الأم الكبرى.

كانت الاحتفالات تبدأ قبل يوم عيد الميلاد بيومين، وتنتهى بعد ثلاثة أيام. وفى اليوم الثالث تطلق الألعاب النارية وتقام حلبات للرقص بين أفراد الأسر داخل منزل الأم الكبرى، وكان يقوم على تلبية وخدمة المدعويين وباقى أبناء أسرة الأم الكبرى هؤلاء، أبناء السفاح. المدعوون وغيرهم يرقصون على أنغام البيانولا القديمة التى تم تزيينها بأشرطة حديثة. الأم الكبرى ترأس الاحتفال وهى جالسة فى عمق الصالون على كرسى وقد حُشيت حولها الوسائد الصوفية. وأثناء الاحتفال تصدر تعليماتها

بطريقـة مستـترة من خـلال تحريك يدها اليـمنى التى تزين كـافة أصابعها خواتم مختلفة. وفى تلك الليلة كانت تقوم بترتيب وعود الزيجـات للعام التـالى، وذلك يتم إما بالاتفـاق مع العـشاق أو انطلاقًا مـن تخمينهـا الشخـصى. كانت الأم الكبـرى تخرج إلى الشرفـة فى تلك الليلة لتعلن انتـهاء الاحتـفالات وهى تضع على رأسـهـا بعض الحلوى والأوراق الملونة وتلقى بـقطع العـملة على جمهور الحاضرين.

كانت هذه الاحـتفـالات قد توقـفت وذلك لفتـرات الحداد المتعاقبـة للأسرة، وكذا لعدم الاستقـرار السياسى الذى لوحظ فى الأعوام الأخـيرة. ولم تشهـد الأجيال السـابقة تلك الاحتـفالات البهيـجة إلا عن طريق الروايات التى يتم تناقلها عبـر الأجيال. إذ لم تسـتطع تلك الأجـيـال أن تشـهد الأم الـكبرى وهى تحـضـر القداس، ويقوم بعض أفراد السلطة المدنية بالتـهوية عليها، وكانت تفخر بميزة أنها لا تركع أثناء القداس حفاظًا على التنورة المصنوعة أدوارها فى هولندا. وحتى لا يتجعـد الثوب المكوى بالنشاء. كان كبار السن يتذكرون الحصير الممتد لمسافة مائتى متر من المنزل وحتى المذبح الكبيـر وكأنهم يهذون بلمـحات من أيام الصبا. يتـذكرون أيضًا ذلك المساء الذى حضرت فيه "مـاريا دل روساريو كاستانبيدا إى مونتيرو" تشييع جنازة والدها ثم عادت بعد ذلك وهى ممشوقة القوام رافعة رأسها ترتدى الحلل البـهية لمركزها الجديد وقد تحولت

إلى الأم الكبرى وهى فى سن الثانية والعشرين. وتنسب صورة العصور الوسطى هذه لا إلى ماضى الأسرة فحسب، بل إلا ماضى الأمة أيضًا. ومع مرور الأيام أصبحت لا ترى إلا قليلاً، وعندما تظهر كان ذلك قبل المساء فى شرفتها وقد أحاطت بها حرارة الجو. وبذلك كانت صورة الأم الكبرى تأخذ نمطًا أسطوريًا. تمارس سلطاتها من خلال نيكانور. كما أن هناك عهدًا غير معلن، على أساس التقاليد، يقول بأنه عندما يأتى اليوم الذى تنتهى فيه الأم الكبرى من كتابة وصيتها وختمها بالشمع الأحمر يقوم الأقرباء بإعلان الاحتفالات الشعبية لمدة ثلاث ليالى. لكن كان معروف أيضًا أنها قررت عدم الإفصاح عن آخر رغبة لها إلا عند اللحظات الأخيرة لحياتها. ولم يكن أحد يفكر جديًا فى أن الأم الكبرى ستموت يومًا. لكن عندما استيقظ سكان ماكوندو ذلك الصباح على توزيع طعام الصدقة اقتنعوا ليس فقط بأن الأم الكبرى فانية بل أنها تحتضر.

كانت ساعتها أكيدة. فهى ملقاة فى سريرها المصنوع من الكتان وقد ضمد جسدها حتى أذنيها بالألوة وعلتها ظلة أهدابها متربة، ولا تكاد علامات الحياة تلاحظ من خلال تنفسها الواهن الذى يلمح عبر الحركة الضعيفة لنهديها الكبيرين. كانت الأم الكبرى - التى تقدم لها العرسان من كل صوب وحدب حتى بلغت سن الخمسين، لكنها رفضتهم جميعًا - تحتضر وهى عذراء

بلا أبناء. وفى لحظة المسحة طلب الأب أنطونيو إيسابيل المساعدة ليمسح كف يديها بالزيت ذلك أنه عندما بدأت لحظات الاحتضار كانت تقبض يديها. لكن لم تفلح فى شئ تلك المساعدة التى قدمها أبناء إخوتها. وطوال أسبوع من المحاولات ضمت المحتضرة يدها المليئة بالأحجار الثمينة إلى صدرها وسلطت ناظريها على بنات الأخوات لكنها كانت نظرة لا تحمل أى حرارة، ثم قالت "أيتها الناهبات" ثم رأت الأب أنطونيو إيسابيل وهو يرتدى ملابس الجنازة وكذلك مساعده وهو يحمل أدوات القداس، فهمهمت بعبارة فيها قناعة الإذعان : "إننى أموت". وعندئذ نزعت من إصبعها الخاتم ذا الماسة الكبرى وأعطته "لماغدالينا" على أساس أنها أصغر الوريثات. كان ذلك بمثابة نهاية تقليد وعرف: ذلك أن ماغدالينا رفضت هذا الإرث وتبرعت به للكنيسة.

عند شروق الشمس طلبت الأم الكبرى أن يتركوها وحدها مع نيكانور وذلك لإعطائه آخر وصاياها.. ولمدة نصف ساعة طلبت إبلاغها تفصيليًا بمسار أمورها المالية وهى فى كامل قواها العقلية. وقامت بالإعراب عن رغبتها بالنسبة لمصير ومثوى جثتها وتركت وصاياها إلى آخر الحديث: "عليك أن تكون واعيًا - قالت - وعليك أن تحافظ على المقتنيات الثمينة ذلك أن الكثير من الناس يقصدون الجنازات بغرض السرقة". وبعد أن أصبحت

وحيـدة يرافقهـا القس اعترفت تفـصيليًا بآثامـها وتلا ذلك لحظة التناول، لكن هذه اللحظـة كانت فى حـضور أبناء أخـوتها وقـد طلبت عندئذ أن يجلسوها فى الكرسى الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة لتعبر عن آخر رغباتها.

كان نيكانور قد أعد قائمة من أربعة وعشرين صفحة مكتوبة بخط واضح تضم كـافة ممتلكاتهـا. تتنفس باستكـانة وكان الأب والطبيب شاهدين. قامت الأم الكبرى بـإملاء قائمة ممتلكاتها على الكاتب المحلف، وهذه الممـتلكات هى المصـدر الوحيـد والكبيـر لعظمتهـا وسلطتها. ممتلكاتهـا الفعلية عبارة عن ثـلاث إقطاعيات ممنوحة من خلال مـرسوم ملكى أثناء الفترة الاستـعمارية. وبمرور الزمن، ومن خلال زيجـات المصلحة، آل كل ذلك إلى ملك الأم الكبرى. وعلى هذه الأراضى الواسعة وغير واضحة الحدود، التى كانت تنتـشر عبـر خمسـة قرى والتى لم تزرع فيـها حبـة واحدة لحسـاب الملاك، كانت تعيش ٣٥ أسـرة بصفتهـا مستـأجرة لتلك الأراضى. وكانت الأم الكبـرى قبل يوم الاحـتفال بعـيد اسمـها تمارس سلطة الملـكيـة التى حـالت دون عـودة هذه الأراضى إلى أملاك الدولة. وتمثلت السلطة فى تلقى الإيجـار من المستأجرين. فكانت تجلس فى الردهة الداخليـة لمنزلها وتتلقى بنفـسها حـقوق الإقامة على أراضيها سيرًا على عـادة أسلافها التى امتدت ما يزيد على قرن من الزمان. وبعد مرور أيام التـحصيل الثلاثة كان الفناء

يمتلئ عن آخره بالخنازير وديوك الرومى والدجاج والأعشار وحصص الفواكه، كل ذلك كان الحصاد الوحيد الذى لم تأخذ الأسرة بيديها أبدًا من أراضٍ ميتة منذ البداية، والتى كانت مساحتها تقدر بحوالى مائة ألف هكتار. لكن الظروف التاريخية أدت إلى أن تنمو وتزدهر داخل هذه المساحة القرى الست التابعة لماكوندو، وبذلك كانت كان كل من يسكن فى إحدى الدور لم تكن حقوقه تتجاوز حقوق الآخرين على الأراضى، ذلك أنها كلها تدخل ضمن أملاك الأم الكبرى، وإليها يتم سداد الإيجار مثلما يفعل السكان مع الحكومة عندما يقومون بسداد ما عليهم لها مقابل حق استخدامهم للشوارع.

وفى المناطق المحيطة بالكفور كان هناك عدد من الحيوانات، لم يعرف عددها أبدًا، تسير طليقة فى كل مكان وقد ظهرت على مؤخرتها علامة - بالكى - تشبه القفل. هذه العلامة أضحت مألوفة مع مرور الزمان حتى فى تلك الأماكن القصية التى كانت تصل إليها الحيوانات والمشتتة، وقد اشتد بها العطش. كان هذا الوضع هو أحد الدعائم الرئيسية على الأسطورة السائدة. ولأسباب لم يستطع أحد فهم فحواها كانت الاصطبلات قد خلت من الخيول منذ آخر حرب أهلية وأخذت تحل محلها فى الآونة الأخيرة نباتات البوص وبعض معاصر الزيتون ومصنعًا لضرب الأرز.

وبالإضافة إلى القـائمة المذكورة فى الوصيـة تم إضافة ثلاثة أوانى ضخمة دفنت فى مكان ما فى الدار أثناء حرب الاستقلال، لكن لم يعـثر عليـها بعـد محـاولات عديدة. ويضـاف إلى حق الاستمـرار فى استغلال الأرض المؤجـرة وتلقى الأعشار وتبـاشير الثمار وكل الأنواع الإضافية الأخـرى، إن الورثة يتلقون جيلاً بعد جيل خـرائط معدلة وتوضـيحيـة تساعد على العـثور على الكنز المدفون.

ظلت الأم الكبرى تقوم بتعـداد البنود المتعلقة بالأراضى لمدة ثلاث ساعات، وكان صوتهـا وسط حرارة حجرة النوم يحبط كل بند من هذه البنود بالأهمـية. وعندما وضعت توقـيعهـا المتلعثم، وكذا وقع مـعها الشـهود سرت هزة غامـضة فى قلوب الجمـهور الذى أخـذ فى النوافذ أمـام المنزل واحـتمـى بظلال شجـر اللوز المترب.

كان ما تبـقى هو إحصاء التركـة غير المنظورة. وبعـد جهد جهـيد - مـثلما فـعل ذلك أجدادها قـبل موتهم من أجل تأكـيد استـمرار سـلالتهم - نهـضت الأم الكبرى عـلى عجز ضـخم. وبصوت واثق ومـسيطر أملت عـلى الكاتب قائمـة ممتلكاتها غـير المنظورة.

إنها الثروة التى يخفيـها باطن الأرض والمياه والقلم والسيادة الوطنيـة والأحزاب التـقليديـة وحقـوق الإنسان وحـرية المواطنين

والقضاء من محاكم الدرجة الأولى والثانية والثالثة وخطابات التوصية والثوابت التاريخية والانتخابات الحرة وملكات الجمال والخطب الهامة والمظاهرات الضخمة والآنسات رفيعات المقام والفرسان الأجلاء والأوسمة العسكرية وصاحب الفخامة والمجلس الأعلى للقضاء والمواد التى تمنع الاستيراد والسيدات الليبراليات ومشكلة اللحم وشفافية اللغة ونقائها وضرب المثل الذى يحتذى. والنظام القضائى والصحافة الحرة، لكنها حرية مسئولة. وأثينا الأمريكية اللاتينية والرأى العام والانتخابات الديمقراطية والأخلاق المسيحية وقلة العملة الحرة وحق اللجوء والخطر الشيوعى وغلاء المعيشة وكيان الدولة والتقاليد الجمهورية وطبقات المعدمين ورسائل التضامن.

لم تستطع الانتهاء من القائمة، فكثرة المحتوى أدت إلى ذهاب آخر أنفاسها. ولما غرقت فى خضم بحر الصيغ المجردة التى ظلت طوال قرنين من الزمان بمثابة المبرر الأخلاقى للسيطرة على العالم صدر عن الأم الكبرى صوت تجشوء، ثم لفظت آخر نفس لها.

فى ذلك المساء رأى سكان العاصمة صورة امرأة تبلغ من العمر عشرين عامًا على صدر الصفحات الأولى للصحف فى طبعة خاصة، وفكروا أنها ملكة جديدة من ملكات الجمال. كانت الأم الكبرى تعيش من جديد الشباب المؤقت فى صورتها التى

نشرت فى الـصحف على أربعة أعـمدة بعـد أن خضعـت لبعض الأصناف وقد ظهرت فى الصورة مصففا شعرها إلى أعلى، وعلى رأسـها مـشط عاجى وجـوهرة تزين عـقدة الشـريط. كان أحـد المصورين الجـوالين الذين مروا بماكوندو فى بداية القرن قـد التقط هذه الصورة وحفظتهـا دور الصحف فى الأرشيف طوال سنوات كثيرة ضمن باب الشخصيات غير المعروفة. كان حظ هذه الصورة هو الاسـتمـرار فى مخـيلة الأجيـال القادمـة. وفى الأتوبيسـات القديمة ومـصاعد الوزارات وصالونات الشاى المظـلمة التى بهتت دهاناتهـا. تناقل الناس همسًـا وبوقار السلطة الميـتة فـى إقليمـها المشهور بالحر والملاريا. كان اسمهـا مجهولاً حتى تحول إلى كلمة مطبوعة. بلل رذاذ المطر المارة، وأخذت أجراس كل الكنائس تقرع إيقاع الموت. فـاجأ الخبـر رئيس الجمهورية وهـو متوجه لحـضور حفل تخريج دفعـة جديدة من الضباط، فقام بكتـابة تعليماته إلى وزير الحـرب على ظهـر ورقة التـلغراف التى تـتلخص بأن ينهى كلمته بدقيقة حداد تكريمًا للأم الكبرى.

تأثرت الأوضـاع بهذه الوفـاة لدرجة أن رئيس الجـمهـورية الذى كانت تصل إليه أحاسيس سكان المدينة من خلال فلتر تنقية. أدرك ، وهو فى سيارتـه، من خلال نظرة عابرة لكنها فـاحصة، الصمت المتألم الذى يلـف المدينة، فلم تبق مفتوحة للجـمهور إلا بعض المقـاهى التى تكاد تخلو من الزبائن، وأخذت الكـاتدرائية

الكبـرى تستـعـد لتسـعـة أيام من التكريم الجنائزى، وفى مـبنى الكابيـتول الوطنى، حيث ينـام المتسولون، وقـد التحـفوا بأوراق الصحف، إلى جوار الأعمدة الدورية والتـماثيل المكهفرة للرؤساء الذين ماتوا، أُضيئت الأنوار داخل البـرلمان. وعندما دخل المسئول الأول عن البلاد غرفـة مكتبه وقد بدا عليه التأثر بالعـاصمة وهى فى لباس الحداد، كان وزراءه ينتظرونه وهم واقفون شاحبو الوجوه وقد ارتدوا ملابس الحداد.

وُصِفَـت وقائع هذه الليلة والليـالى التاليـة لها بأنـها درس تاريخى ليس فقط على أنها تمثل الروح المسيحية التى كانت مصدر إلهام كبار الشخصيات فى السلطة - بل أيضًا على أساس أنها تمثل حالة التراضى وتوافق المصالح المتضـاربة ووجهات النظر المتعارضة فيما يتـعلق بكيفية دفن رفات عظيم مثـل هذا. فعلى مدى أعوام طويلة اسـتطاعت الأم الكبرى الحـفاظ على السـلام الاجتـماعى والوفاق السـياسى فى إمـبراطوريتهـا من خلال صناديق الاقـتراع الثلاثة التى كانت تخرج من دوائر انتخابية مزيفة والتى كانت بمثابة إرث سـرى لها. فـالذكـور من أتبـاعهـا، وكـذا من تحـميـهم، والمستأجـرين الصغار منهم والكبـار، يمارسون حقهم الانـتخابى سواء الأحياء منهم أو الأمـوات الذين مضى على وفاتهم قرن من الزمـان. هى صـاحـبـة الأولوية على أسـاس أنهـا تمـثل السلطة التقليدية مـقابل السلطة المعارضة. تمثل هيمنة الطبقـة على العامة

وأهميـة الحكمة الإلهيـة فوق الارتجال الفـانى. وخلال أيام السلم كانت بهيمنتـها تعقد الاتفاقيـات وتفك رباطها بشأن وظائف قليلة العمل جزيلة الراتب وأرزاق الكهنة وأرزاق العـاطلين وتسهر على راحة المرافقين ومن أجل ذلك كانت تلجأ إلى الخداع أو الغش فى الانتخـابات. أما فى أوقات الأزمات فـقد أسهـمت الأم الكبرى سريًا فـى تسليح أنصارها وفى نجـدة ضحـاياها فى العلن. وهذه الغيرة الوطنية رشحتها لتحتل أرقى مراتب الشرف.

لم يكن رئيس الجـمهورية بحـاجة إلى استـشارة مسـاعديه لتـقيـيم حـجم مـسئـوليـاته، ففى المنـطقة الفـاصلة بين صـالة الاستقبـالات فى القصر والفناء الصغير المرصـوف الذى كان بمثابة مرآب سـيارات لنواب الملوك، كـانت هناك حديقة داخلـية تملؤها الحشـائش الداكنة اللون والتى كان أحـد الرهبان البـرتغاليـين قد انتحر فيها فى الفترة اللاحقـة للعهد الاستعمارى. ورغم ما يحيط بالرئيس من جهاز أمن مهيب لم يستطع إيقاف رعـشة خفيفة شعر بها وهو يعـبر ذلك المكان بعد مغيب الـشمس. إلا أن الحزن هذه الليلة كـان هـو القـوة المسـيطرة. وعندئذ وعـى تمامًـا بمصـيـره التـاريخى، وأصدر قـرارًا بالحداد الوطنى لمدة تسـعة أيام، وكـذا اتخاذ عدة خطوات لتـكريم يتيم للأم الكبرى بصفتـها البطلة التى ماتت فى ميـدان المعركة من أجل الوطن. وقد عـبر عن ذلك فى كلمـة دراميـة وجهـها فـجر ذلك اليـوم إلى الأمة عـبر الإذاعـة

والتليفزيون معلنًا ثقته فى أن تشييع جثمان الأم الكبرى سيكون مثالاً جديدًا يحتذى به فى العالم.

هذه الغايات العظمى اصطدمت ببعض الصعاب الخطيرة. فالسلك القضائى فى البلاد، والذى كان يشغله العديد من الأقرباء الأباعد للأم الكبرى، لم يكن مهيئًا لمواقف مثل تلك التى على وشك أن تبدأ. واستغرق جهابذة القانون والخبراء بدهاليز تفسيراته، فى البحث عن صيغة تسمح للرئيس حضور الجنازة. وعاش كبار شاغلى المناصب السياسية والدينية والمالية أيامًا من الترقب والقلق. وفى قاعة البرلمان الفسيحة التى خلخلتها القوانين والتشريعات المجردة على مدى قرن من الزمان والمليئة بلوحات علية القوم والتماثيل النصفية للفلاسفة الإغريق، تردد اسم الأم الكبرى كثيراً فى الوقت الذى أخذت جثتها تصاب بالتعفن فى شهر سبتمبر الشديد الحرارة فى ماكوندو. ولأول مرة يتم التحدث عنها فى هذا المكان، ويتم تصورها بدون الكرسى الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة. وبدون لحظات الغفوة التى كانت تعتريها فى الثانية ظهراً وبدون الدهانات التى تغطيها. كانوا يرونها نقية فتية وقد رسمتها ريشة الأسطورة.

ولساعات طويلة ترددت الكلمات والكلمات التى ذاع صداها فى أنحاء الجمهورية لدرجة فقدانها لقيمتها من خلال أبواق الصحافة. ولم يتوقف سيل هذه الكلمات إلا عندما نهض أحد

الناس الواقعيين وسط جهابذة القانون، وقطع هذا السيل الكلامى مذكرًا بأن جثة الأم الكبرى فى انتظار قرار يتخذ ودرجة الحرارة ٤٠ فى الظل. لم يتأثر أحد من جمهور القانون المكتوب بهذا الرأى، وكل ما فى الأمر هو أن صدرت الأوامر لتحنيط الجثة حتى يتم إيجاد الصيغة المطلوبة والتوفيق بين وجهات النظر أو إضافة تعديلات دستورية تسمح لرئيس الجمهورية حُضور الجنازة.

كان الكلام كثيرًا كثيرًا لدرجة أنه تجاوز حدود الوطن وانتقل عبر المحيط حتى وصل إلى الأسماع البابوية فى كاستيلغادولفو. وبعد أن استرد البابا عافيته من وعكة ألمت به كان يجلس إلى جوار النافذة وهو يتطلع إلى البحيرة ويشاهد الغواصين الذين نزلوا تحت الماء بحثًا عن رأس الأميرة التى ضرب عنقها. وكان ذلك هو الموضوع الرئيسى للصحف المسائية خلال الأسابيع الأخيرة، ولم يكن باستطاعة قداسة البابا أن يكون بمعزل عن مشكلة وقعت على مقربة من مقره الصيفى. لكن الصحف فى ذلك المساء غيرت فجأة اهتماماتها بصور الضحايا ونشرت صورة امرأة تبلغ من العمر عشرين عامًا ووضع على الصورة شريط الحداد؛ إنها صورة الأم الكبرى. وعندئذ صاح قداسته متذكرًا ملامح اللوحة القديمة التى أهديت إليه منذ أعوام طويلة، بمناسبة توليه كرسى القديس بطرس. "الأم الكبرى" ردد ذلك كل أفراد المدرسة الكاردينالية وهم فى حجراتهم الخاصة. وللمرة الثالثة

على مدى عـشرين قرنًا يحدث ارتبـاك وكرب وركض هنا وهناك فى الإمبراطورية المسيـحية المترامية الأطراف، إلى أن قـام قداسته بركوب الجندول الأسـود الطويل المخصص له مـتوجـهًا إلى هناك للمشاركة فى تشييع هذه الجنازة المهيبة للأم الكبرى.

خلّف وراءه الأضواء المتلألئة وطريق "بيا أبيا أنتيكا" بما فيه من ممثلات السينما وهن يأخذن حمام شمس فى الشرفات قبل أن تصل إليـهن الأخـبار؛ كـمـا خلف وراءه أيضًـا القمـة المعـتمـة لكاستيلسا نـياخيلو فى أفق كبير. وعند مغـيب الشمس اختلطت الخطوط القـوية للكاتـدرائية الـبازيلـكية لـلقديـس بطرس باللون البرونزى لماكـوندو. ومن تحت المظلة الواقية من الشـمس ومرورًا بالمواسير المتشابكة والمستنقعات الصامتة التى كانت بمثابة آخر حدود الإمبـراطورية الرومانية وأملاك الأم الكبـرى، سمع قداستـه جلبة القرود الصـاخبة والناجـمة عن وجود الجمـاهير الغفـيرة. وأثناء جولاته الليلية كانت المركبـة البابوية تمتلئ عن آخرها بأجولة نبات اليوكا وعناقيد الموز الأخضر وأقفاص الدجاج وبرجال ونساء تركوا مشاغلهم اليوميـة وحاولوا الحصول على بعض المال من خلال بيع بعض المنتـجات أثناء جـنازة الأم الكبرى، ولأول مـرة فى تاريخ الكنيسة يعانى البابا فى ذلك المسـاء ارتفاع درجة حرارته من جراء السهر ولدغات الناموس. لكن إشراقة الشمس الرائعة على أملاك العجـوز الكبرى ومشـاهدة مملكة النباتات والحيـوانات أبعدت عن

ذاكرته كل آلام الرحلة، وكانت بمثابة تعويض عن التضحية.

تم إيقاظ نيكانور بواسطة ثلاث ضربات على الباب حيث كانت بمثابة الإعلان عن قرب قدم قداسته. ولقد سيطر الموت على المنزل. كانت الخطابات المتوالية للرئاسة وكذا المناقشات البرلمانية المحمومة التى أدت إلى أن تلتهب الأحبال الصوتية للبرلمانيين ولم يكن أمامهم إلا الحديث بلغة الإشارة، كل هذا أدى بالكثير من الناس فى مختلف أنحاء الدنيا إلى ترك مشاغلهم والحضور إلى المنزل وشغل كل مكان فيه بما فى ذلك الممرات والردهات وكذلك فى الحجرات العلوية ذات السقف الجمالونى. أما من وصلوا متأخرين فقد حاولوا أن يسلكوا لأنفسهم طريقًا إلى الاستحكامات والقلاع والأبراج وغيرها من الحجرات الصغيرة. وفى الصالون الرئيسى كانت جثة الأم الكبرى مسجاة فى انتظار القرارات الكبرى وقد كستها آلاف التلغرافات. وجفت الدموع من المآقى، وكان أبناء الأخوة التسع يتناوبون السهر لحراسة الجسد.

كان على هذا الجمع الحاشد أن ينتظر لأيام طويلة. وفى صالون المجلس المحلى حيث يوجد أربعة كراسٍ مرتفعة من الجلد، ووعاء فخارى ملىء بالماء المفلتر وسرير شاطئ من الأرقطيون، عانى قداسته من الأرق مع الكثير من العرق وتسلى بقضاء الوقت وهو يقرأ القرارات والمواد الوزارية فى الليالى الصيفية الحارة. أما أثناء النهار فكان يوزع الحلوى الإيطالية على

الأطفال الذين كـانوا يقتـربون من النافذة لمشاهـدته. وكان يتناول طعام الغذاء تحت البرجولة فى رفقة الأب أنطونيو إيسابيل أحيانًا، وأحـيانًا أخـرى مع نيكانور. ظل هكذا لأسـابيع وشهـور طويلة يعيش حالة التـرقب تحت الحر حتى جاء باسـتـور باسترانا وتوقف وسط الميدان وهو يحمل الطبلة، ثم قـرأ نص القرار. يُعلن أنه قد تعكر صفو الأمن العام، تررن تررن، وأن رئيس الجمهورية، تررن تررن، له كافـة الصلاحيـات، تررن تررن، التى تهيئ له حـضور جنازة الأم الكبرى، تررن ترن رن رن.

جـاء اليوم الأعظم، كـانت الشـوارع قد امـتلأت بألعـاب الروليت وموائد اليانصيب ورجال يحملون ثعابين وقد لفوها حول رقابهـم وأخذوا يروجون لبـيع الترياق الـذى يشفى من العـضات السامة ويـؤكد الحياة الأبدية. وفى الميـدان الصغير قام الكـثير من الناس بنصب مظلاتهم وفردوا حصائرهم، وقـام رجال مهرة بفتح الطريق للسلطات.

كانت غسـالات سان خورخى وصيـادى اللؤلؤ فى كابودى بيلا فـى انتظار اللحظة الحاسـمة، وكـان كذلك كل من صـيادى الجمبـرى فى تاساخيرا والحواة فى مـواخانا ومستـخرجو الملح فى ماناورى، وعـازفوا الأكورديون فى سان بيـلايو ومربو الديوك فى لاكـويب والمرتجلون فى سـاياس دى بوليـفـار وفى ريبـولو وفى ماغدالينا وأصحاب المصانع فى مومبوكس، وإلى جانب كل هؤلاء

ما سبق أن ذكرناهم فى بداية هذا التقرير، وآخرين غيرهم. كما أتى أيضًا قدامى رجال العقيد أوريليانو بوين ديا - وعلى رأسهم دون مارلبوروح بلباسه الجلدى وأظافره وأسنانه التى تشبه أسنان الفهد، وتناسوا أحقادهم القديمة على الأم الكبرى وأهلها - لحضور الجنازة، ومن أجل أن يطلبوا من رئيس الجمهورية دفع معاشات الحرب التى ظلوا ينتظرونها لمدة ستين عامًا.

وقبل الحادية عشر بقليل صدر عن هذا الجمع الغفير الذى خنقته حرارة الشمس، والذى يسيطر عليه ثلة من المحاربين الأشداء، وقد ارتدوا لباس الجندية، ووضعوا على رؤوسهم خوذات ضخمة، صدر عن هذا الجمع صوت غبطة مهيبة. أما رئيس الجمهورية ووزرائه فكانوا فى وضع مهيب وقد ارتدوا ملابسهم الرسمية.

حضر أيضًا كل من اللجان البرلمانية ومجلس القضاء الأعلى ومجلس الدولة والأحزاب التقليدية والسلطة الدينية وممثلى البنوك والتجارة والصناعة، وقد كان مكان كل هؤلاء على ناصية مركز التلغراف. كان رئيس الجمهورية العجوز أصلعًا

وقصير القامة بدينًا يسير أمام نظرات استغراب جمهور الحاضرين الذين نصبوه رئيسًا دون أن يعرفوه، وهم الآن يمكن أن يتأكدوا من وجوده بين الأساقفة الذين أخذتهم خطورة مسئولياتهم

والعسكريين من ذوى القامات الممشوقة وقد علت رؤوسهم الخوذات. كان المسئول الأول عن الأمن يتنفس ويتذوق طعم السلطة.

يأتى بعد ذلك فى ملابس من "الكريب" الأسود كل الملكات فى الوطن. وهن المسيطرات على كافة أنواع الأنشطة الآتية والقادمة، وقد خلعن لأول مرة كل ما يتعلق بزينة الحياة الدنيا، كانت تتقدمهن الملكة الكبرى ملكة المانجو وملكة الخضروات وملكة التفاح الغينى وملكة اليوكا الناعمة وملكة الجوافة وملكة الأناناس وملكة الفاصوليا ذات الحبة السوداء وملكة ما يزيد على ٤٢٦ كيلومتراً من عقود بيض الأيجوانا، وكل هؤلاء اللاتى لم نذكرهن حتى لا نطيل من صفحات هذا التقرير.

كانت الأم الكبرى موضوعة فى نعشها وقد غطيت بطبقات من القماش الأرجوانى، وتم فصلها عن الواقع بثمانية أجراس من النحاس، وغرقت حتى الثمالة فى غمرة الخلود، ولم تعد تستوعب حجم عظمتها. وكل ما حلمت هى به من أبهة أثناء جلساتها فى شرفة منزلها بعد الظهر، ها هى تتحقق حيث حضرت كافة رموز العظمة فى العصر لتكريمها. فها هو قداسة البابا الذى تصورته فى هذيانها، الذى ولّى، وهو جالس على محفة متلألئة وسط حدائق الفاتيكان، قد قاوم الحرارة واستخدم مروحة مصغرة من جريد النخيل وشرفت به أضخم جنازة فى الدنيا.

لقد ملك مشـهد السلطة لب العامة الذين لم يسـتطيعوا أن يميـزوا ماهية الحـركة الدؤوبة التى دارت تحت السقف الجـمالونى للمنزل وذلك عندما فـرض الاتفاق نفسـه على خلافات المشـاهير وتم إخراج النعش إلى الشارع مـحمولاً على أكتـاف علية القوم. ولم ير أحـد الظل الحارس للرمـاح الملكى الذى تابع الجنازة وهو يسير فـى الشوارع الحارة لماكوندو. كـما لم يستدع انتـباه أحد أن علية القـوم عندما مروا كانت الـشوارع قد بقى بها مـخلفات من الروث. ولم يلاحظ أن أبناء الأخوة والأبناء بالتبنى والخدم والذين يحظون بحـماية الأم الكبرى كـانوا قد أغلقـوا الأبواب عندما تم إخـراج الجثـة وقامـوا بخلع الأبواب وفك المناضد للحـفر حـول الأساسات حتى يوزعوا المنزل ومحـتوياته فيما بينهم. لكن الشىء الوحيـد الذى لم يغب عن ذهن أحد فى هذه الجنازة هو التنهـيدة المزلزلة شعوراً بالراحة والتى صدرت عن الجماهير بعد أربعة عشر يومًـا من الصلوات والمدائح. وتم بعدها تغطيـة القبـر بطبقـة من الرصاص. كان بعض الحاضرين يحظى ببصيرة نافذة فهم منها أن الجميع يشهـد ميلاد عهد جديد. ويمكن لقداسـة البابا أن يصعد إلى السمـاء روحًا وجسدًا وقـد أتم مهمـته على الأرض، ويمكن لرئيس الجـمهورية أن يجلـس على كرسى الحكم ويصـدر أوامره طبقًا لما يرى، ويمكن للملكات كل ما كـان وما سيكون أن يتزوجن ويصبحن سعيدات وينجبن الكثـير من الأطفال، ويمكن للجماهير

أن ترفع مظلاتها طبقًا لما تعلمته وأدركته طوال سيطرة الأم الكبرى ذلك أن المرأة الوحيـدة التى يمكن أن تعترض وتجـعل اعتراضـها فاعلاً. ها هى الآن تتحلل تحت غطاء من الرصاص. وما بقى هو أن يقوم أحـد الناس بالجلوس على كرسى أمام البـاب ليقص هذه الحكاية وهذا الدرس وهذه العبرة للأجيـال القادمة وألا يبقى أحد من الجاحدين فـى هذه الدنيا إلا وقد وصلته أخـبار الأم الكبرى، وسوف يأتى الكناسـون غداً الأربعاء لتنظيف الشوارع من القـمامة التى خلفتها الجنازة إلى أبد الآبدين.

الموت الدائم فيما وراء الحب

(١٩٧٠)

بقيت ستة أشهر وأحد عشر يومًا حتى يموت السناتور/ أونيسيمو سانشيث وذلك عندما التقى بالمرأة التى كان يحلم بها فى حياته. تعرف بها فى "روسال دل بيرى" وهى قرية متخيلة - كانت أثناء الليل مرفأ للسفن الخاصة بالمهربين التى كانت تجوب أعالى البحار. أما فى النهار فكانت تبدو بمثابة منعطف غير ذى قيمة فى الصحراء الممتدة أمام بحر قاحل لا قرار له وبعيدًا عن كل شىء لدرجة أن أحدًا لم يكن يخالجه شك فى أنه يوجد هناك من قد يستطيع التأثير فى مصير إنسان آخر حتى اسم القرية كان مثيراً للسخرية فالوردة الوحيدة التى كانت موجودة فيها قطفها السناتور/ أونيسيمو سانشيث فى نفس الأمسية التى تعرف فيها على "لاورافارينا".

كانت وقفة لا غنى عنها أثناء الحملة الانتخابية التى كانت تجرى كل أربعة أعوام. ها قد وصلت سيارات نقل الركاب الصغيرة ، تلتها سيارات النقل وهى تحمل هنوداً تم استئجارهم ليكونوا جزءاً من الجمهور الذى يحضر الخطب التى تلقى. وقبل الحادية عشرة بقليل بدأ عزف الموسيقى وأخذت تطلق الصواريخ النارية، وبعدها وصلت السيارة الوزارية بلون الفراولة. كان

السناتور/ أونيسيمو مبتسمًا وهو جالس داخل السيارة المكيفة. لكنه بمجرد أن فتح الباب لفحته نسمة هواء نارية وغرق قميصه، المصنوع من الحرير الطبيعى، فى بحر من العرق وشعر عندئذ بأنه قد شاخ عدة سنوات وأصبح أكثر عزلة عن أى وقت مضى. لم يكن عمره إلا اثنين وأربعين عامًا، وكاد قد تخرج بمرتبة الشرف ليكون مهندسًا للحديد والصلب فى "غوتيغا" كما كان من أكثر الناس حرصًا على القراءة رغم أنه لم يقرأ الكثير للمؤلفين باللغة اللاتينية والذين ترجمت أعمالهم بشكل ردىء. تزوج من ألمانية جميلة أنجبت له خمسة أبناء وكان الجميع سعداء فى منزلهم، هو أكثرهم سعادة حتى جاءت لحظة وقالوا له قبل هذا الوقت بثلاثة أشهر أنه سيموت فى عيد الميلاد المجيد القادم.

فى الوقت الذى تجرى فيه الاستعدادات لإلقاء خطبته، استطاع السناتور أن يظل بمفرده طوال ساعة كاملة فى المنزل الذى أُعد لراحته. وقبل أن ينام وضع فى مياه الشرب وردة طبيعية استطاع أن يحملها وسط الصحراء دون أن تذبل. تناول غذاءه المكون من حبوب الحنطة حسب تعليمات الطبيب، وكان قد أتى بها معه حتى يتفادى أكل التحميصة وهى الطعام الذى كان ينتظره بقية اليوم. وبعد ذلك تناول بعض الحبوب المسكنة قبل الساعة المحددة لها بحيث يسبق تأثيرها معاودة الآلام. ثم قام بتشغيل المروحة الكهربائية القريبة من الشبكة وتمدد عريانًا لمدة خمسة عشر

دقيقة فى ظل الوردة. وأثناء هذه اللحظات، حاول جاهدًا مباعدة ذهنه عن فكرة الموت. لم يكن أحد يعرف أنه سيموت فى وقت محدد إلا الأطباء، ذلك أنه قرر أن يتألم وحده مع سره دون أن يدخل حياته أى تغيير. وقد فعل ذلك ليس كبرياء بل خجلاً.

كان يشعر بالسيطرة الكاملة على قواه العقلية عندما عاود الظهور على الملأ حوالى الثالثة بعد الظهر وقد أكمل هندامه وارتدى بنطلونًا من الكتان الخالص وقميصًا ملونًا برسوم الزهور، وقد هدأ روعه من جراء تناوله الحبوب المسكنة. ومع ذلك فإن الموت أخذ يحدث تآكلاً فيه بشكل أفظع مما كان يتصور. فعند صعوده إلى المنصة شعر باحتقار غريب نحو هؤلاء الذين أخذوا يتزاحمون ليصافحوه، ولم تأخذه الشفقة مثلما حدث مرات سابقة بهؤلاء الحضور الحفاة الذين لا يكادون يتحملون حرارة البلاط فى هذا الميدان القاحل. أسكت التصفيق بإشارة آمرة كأنها تعبر عن حنق. ثم أخذ يتحدث دون أن يحرك يديه، وناظريه مثبتان على البحر الذى كان يتنهد من الحر. كان صوته رتيبًا وعميقًا كأنه مياه ساكنة، لكن الخطاب الذى حفظه عن ظهر قلب وكرره كثيراً لم يخطر على باله أن يقول الحقيقة إلا من أجل مقابلة مصير محتوم فى الكتاب الرابع لذكريات ماركو أوريليو.

إننا هنا حتى نهزم الطبيعة - بدأ خطابه بشكل غير تقليدى على الإطلاق - ولن نكون بعد اليوم لقطاء الوطن أو يتامى الله

فى مملكة العطش والضياع، ولن نكون المنفيين ونحن نعيش على أرضنا - سنكون أناسًا آخرين أيها السيدات والسادة، سنكون عظماء وسعداء.

كانت هذه هى الصيغ التى تقال فى السيرك الخاص به، وفى الوقت الذى كان يتحدث فيه كان المساعدون يقومون بإلقاء حفنات من عصافير ورقية فى الهواء فتبدو كأن بها حبًا وتدور حول المنصة المرتفعة وتذهب لتسقط فى البحر. وفى الوقت نفسه يقوم آخرون بإخراج أشجار صناعية مخصصة للمسرح - من السيارات - ويقومون برصها خلف الجمهور. وأخيرًا قام المساعدون بتركيب واجهة كرتونية بها صور منازل مبنية بالطوب الأحمر ونوافذ زجاجية وبذلك غطوا الملامح البائسة للحياة اليومية.

استمر السناتور يلقى خطابه وأطال الإلقاء بذكر عبارتين باللغة اللاتينية وذلك حتى يوفر الوقت للملهاة. وعد بأن يأتى لهم بماكينات المطر والوحدات المتنقلة لتربية الحيوانات الداجنة وأن يأتى لهم بزيت السعادة الذى سيساعد على زيادة نمو البقول فى الأصص، وكذا زهور البنفسج المعلقة على النوافذ. وعندما أدرك أن عالمه الخيالى أوشك على الاكتمال أشار إليه بإصبعه.

- هكذا سنكون أيها السيدات والسادة - قالها صائحًا - هكذا سنكون.

نظر الجمهـور إلى الوراء فوجد سفينة عـابرة المحيطات وقد رسمت وهى تمر مـن خلف البيوت كـما كانت أكـثر ارتفـاعًا من أعلى المنازل فى المدينة المتـخيلة. وقد لاحظ الـسناتور - وحده - أن كثرة الفك والتركيب لهذه اللوحة والانتقال بها من مكان لآخر أدى إلى إصابتـها بالتهالك والفناء وأصـبح يعلوها التراب وتملؤها الكآبة مثلها مثل قرية روسال دل بييرى.

ولأول مرة طـوال اثنا عشـر عامًـا لم يذهب نلسون فـارينا لتحية السناتور، فضل الاستـماع للخطاب وهو يتمدد على سريره تعتريه غفوة القيلولة تحت سقف منزل تكسوه الخضرة، وهو منزل مبنى من الألواح غير الناعـمة، بناه بنفس الأيدى التى كان يعمل بها صيـدلانيًا وهى نفسها التى قطع بها زوجـته الأولى إربًا. كان قد هرب من سجن كايينا ثم ظهر فى روسال دى بيرى قادمًا على متن سفينة مـحملة بالببغـاوات البرية وترافقه امرأة سـوداء جميلة وسليطة اللسـان، كان قد التـقى بها فى بارامـاريبو وأنجـبت منها طفلة -، لكن المرأة توفـيت بعد قليل، لكن لم يكن حظهـا مثل الأولى التى قطع جسدها إربًا من أجل تسميـد حديقته، بل دفنها كاملة فى مدافن القرية ووضع اسـمها ذا الأصل الهولندى. كانت الابنة قد ورثت عن أمـها لون بشرتهـا وقامتـها وورثت عن الأب عينيه الصفراوين والمستغربتين. هذا الأب كانت له أسبابه ليظن أنه يربى أجمل امرأة فى العالم.

ومنذ أن تعرف نلسون فارينا على السناتور أونسيمو سانشيث فى أول حملة انتخابية له، توسل إليه أن يساعده فى الحصول على بطاقة تحقيق شخصية مزيفة تنفذه من يد العدالة. وكان رد السناتور رقيقًا وواثقًا لكنه رافض للطلب. ولم يستسلم نلسون فاريتا مع مرور السنين وكان كل مرة يرى السناتور فيها يكرر طلبه بشتى الطرق. لكن الإجابة كانت واحدة. وعلى هذا ظل هذه المرة فى نفس المكان وقد شعر بأنه سوف يهلك حيًا فى ملجأ القراصنة ذلك. وعندما سمع التصفيق الختامى أطل برأسه من فوق السياج المحيط فرأى المشهد الخلفى للملهاة : المسامير الساندة للمبانى المصورة وهياكل الأشجار والرجال الذين اختبئوا وهم يدفعون عابرة المحيطات. فبصق غيظًا. وقال:

- زبالة.

وبعد الخطاب قام السناتور - كما هى العادة بالتجول فى شوارع القرية على قدميه ترافقه الموسيقى والصواريخ النارية ويحيط به أهل القرية الذين كانوا يقصون عليه آلامهم، وكان السناتور يستمع إليهم باهتمام ودائمًا ما كان رده عبارات العزاء والمواساة دون أن يعد بالكثير. كانت هناك أم تصيح وهى فوق منزلها ويحيط بها أبنائها الستة، واستطاعت أن تصل بصوتها رغم الضجيج وصوت الفرقعات النارية.

- إننى لا أطلب الكثـير أيها السناتـور - قالت - لا أطلب إلا حماراً لأحمل عليه الماء من بئر أوركادو.

نظر السناتور نظرة فاحصة للأطفال الستة النحفاء وسأل:

- ماذا يعمل زوجك . سأل.

- ذهب ليبحث عن الرزق فـى جزيرة أروبا - أجابت المرأة بمرح - وما وجده هناك هو امرأة من تلك اللاتى يضعن الماس فى أسنانهن.

أثارت هذه الإجابة ضحكات مجلجلة.

- حسن - قال السناتور مقرراً - سوف يكون لك حمارك.

وبعد ذلك بقليل كان أحد مـساعديه يذهب إلى منزل المرأة ومعه الحمار الذى كتبت على ظهره أحد الشعارات الانتخابية حتى لا ينسى أحد أنه كان هدية السناتور.

وفى المسافة القصيرة المتبقية من الشارع صدرت عنه إيماءات وإشارات ومنها أنه أعطى مـلعقة صغيـرة لأحد المرضى الذى كان قد خـرج من منزله وهو على سريره حـتى يرى السناتور. وعلى الناصية الأخيرة رأى نلسون فارينا بين ألواح السياج وبدا له رمادى اللون ذابلاً فحياه تحية ليس فيها حرارة.

كيف حالك.

تحرك نلسون فارينا فى سريره المعلق وتركه وهو غارق فى خضم نظرته الحزينة.

- أنا، أنتم تعرفون - قال

خرجت ابنته إلى الفناء عندما سمعت التحية، كانت ترتدى جلبابًا باليًا من جلاليب الفلاحات، وكان شعرها ملفوفًا بكرات ذات ألوان متعددة، ووجهها مدهون اتقاء لأشعة الشمس، ورغم أنها على هذا الوضع كان من الممكن تصور أن ليس هناك من هى أجمل منها فى هذا العالم. وقف السناتور جامداً.

- عجبًا - تنهد باستغراب - تبارك الله فيما خلق!

فى هذه الليلة قام نلسون فارينا بإلباس ابنته بأفضل ما عندها من ثياب وأرسلها إلى السناتور. طلب منه اثنان من الحرس المسلحين الجالسين على الباب وقد انتابتهما غفوة الحر أن ينتظر على الكرسى الوحيد الموجود فى الدهليز.

كان السناتور يجتمع فى الحجرة المجاورة مع الكبار من أهالى القرية والذين جمعهم خصيصًا ليحكى لهم بعض الأسرار التى كان يحجم عن البوح بها فى خطبه. كان الحاضرون شديدى الشبه بهؤلاء الذين يحضرون مثل هذه الجلسات من أبناء القرى الصحراوية لدرجة أن السناتور كان يشعر بالملل الشديد من نفس الجلسة التى تتكرر كل ليلة. كان قميصه يذوب فى العرق وحاول

أن يخفف القميص وهو على جسده عن طريق تعريض نفسه للهواء الساخن الذى تحركه المروحة الكهربائية التى كان طنينها ينتشر فى كالة أرجاء الحجرة.

- نحن بالطبع لا نأكل عصافير ورقية - قال - تعرفون حضراتكم أنه فى اليوم الذى توجد فى أشجار وزهور فى حظيرة ذكور الماعز هذه، وفى اليوم الذى تختفى فيه الديدان والحشرات من الآبار، فلن يكون لنا جميعًا وجود هنا. هل أقول الحقيقة؟

لم يجب أحد، وفى الوقت الذى أخذ يتحدث فيه جذب ورقة من أوراق نتيجة العام وصنع فراشة ثم ألقى بها تجاه الهواء الذى تدفعه المروحة دون اكتراث فطارت الفراشة فى أنحاء الحجرة وخرجت بعد ذلك من الباب الموارب. وظل السناتور يتحدث وهو متماسك أمام فكرة الموت.

- حينئذ - قال - ليس من الضرورى أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونه جيداً: إن إعادة انتخابى هى أفضل شىء بالنسبة لكم أكثر منى، فها أنا متعب ومثقل إلى أبعد الحدود، أما أنتم فهذه حياتكم.

شاهدت لاورافارينا الفراشة الورقية وهى تخرج ولم يرها أحد غيرها، ذلك أن الحارسين المتواجدين فى الردهة قد غرقا فى النوم وهما جالسان على الكرسى وقد احتضنا سلاحيهما.

وبعد عـدة لفات تفككت الفـراشة الضخـمة ثم اصطدمت بالحـائط والتصـقت به. حاولت لاورافـارينا نزعهـا مسـتخـدمة أظافرها. كان أحد الجنود الذى استيـقظ على صوت التصفيق فى الحجرة قد لاحظ محاولة فارينا غير المجدية.

- لا يمكن نزعـها - قـال العـبارة وهو شـبه نائم - إنهـا مرسومة على الحائط.

عادت لاورافارينا للجلوس من جديد عندما بدأ الحضور فى الخروج من الاجتماع. وظل السناتور على باب الحجرة ويده على السقاطة ولم يدر بوجود فارينا إلا عندما خلت الردهة من الناس.

- ماذا تفعلين هنا؟

- هذا ما أمرنى به والدى - قالت.

فـهم السناتور. تمعن فى الحـرس شـبه الـنائم ثم تمعن فى لاورافارينا وفى جمالها الأخاذ الذى يتجاوز حدود آلامه. وعندئذ أراد أن يتولى الموت اتخاذ القرار نيابة عنه.

- ادخلى - قال لها.

فغـدت لاورافارينا فاها وهى علـى الباب : هناك آلاف من الأوراق النقدية وهى تطير فى هواء الحجرة وكـأنها مثل الفراشة، لكن السناتور أطفأ المروحـة فأصبـحت الأوراق بلا هواء وسقطت متناثرة فوق محتويات الغرفة.

- ها أنت ترين - قال مبتسمًا - ها هى القذارة تطير أيضًا.

جلست لاورافارينا وكأنها تجلس على مقعد مدرسى. بشرتها ناعمة ومشدودة ولونها مثل لون البترول الخام، وكان شعرها مصففًا على شكل عرف، نظراتها أكثر شفافية من النور. تابع السناتور خط بصرها ووجد الوردة التى زال عنها بريقها بسبب النطرون.

- إنها وردة.

- نعم - قالت وقد علت وجهها ملامح الحيرة - لقد رأيت مثلها فى "ريوأتشا"

جلس السناتور على سرير منطبق وأخذ يتحدث عن الورود وهو آخذ فى فك أزرار قميصه، وعلى أضلاعه اليسرى، حيث تصور أن القلب وراءها، هناك وشم عبارة عن قلب قد اخترقه سهم. ألقى بالقميص المبلل على الأرض وطلب من لاورافارينا أن تساعده فى خلع الحذاء ذو الرقبة. جلست على ركبتيها أمام السرير بينما ظل السناتور يتأملها وهو يفكر، وبينما تقوم هى بفك رباط الحذاء، كان يتساءل أى واحد من الاثنين سيكون بمثابة الحظ السيئ للآخر فى هذا اللقاء.

- إنك لا زلت صغيرة.

- لا تظن ذلك - قالت - سوف أكمل التاسعة عشرة من عمرى فى أبريل.

فأبدى السناتور اهتمامه.

- أي يوم؟ فقالت :

- الحادى عشر.

شعر السناتور بالتحسن "كلانا من برج الجدى" ثم أضاف مبتسمًا.

- إنه برج الوحدة والعزلة.

لم تبد لاورافارينا اهتماماً بما يقول إذ كانت مشغولة بكيفية فك أربطة الحذاء. كما أن السناتور نفسه لم يكن يدرى ما الذى يفعله مع لاورا فارينا فهو غير معتاد على أنواع الحب المفاجئ، كما أنه كان واثقًا أن ذلك النوع من الحب مؤسس على اللاجدارة. وحتى يجد لديه متسعًا من الوقت ضغط على لاورافاريتا بركبتيه واحتضنها من خصرها واستلقى بظهره على السرير. وعندئذ أدرك أنها لا ترتدى شيئًا من الملابس الداخلية. فقد صدرت عن جسدها رائحة غامضة لحيوان جبلى لكن كان قلبها يرتعد خوفًا ويعتلى بشرتها عرق بارد.

- لا أحد يريدنا - تنهد.

أرادت لاورافارينا أن تقول شيئًا لكن لم يسعفها الهواء إلا فى التنفس. جذبها إلى جواره حتى يساعدها ثم أطفأ الأنوار

وبقى المكان فى ظل الوردة. تركت هى نفسها تحت رحمة قدرها. قام السناتور بتحسسهـا ببطء وبحث عنها باليد دون أن يلمسها إلا بالكاد، لكن يده اصطدمت بقـطعة حـديدية فى المكان الذى فكر أنها فيه.

- ماذا تحملين؟

- إنه قفل - قالت.

- يا له من تناقض! قال السناتور - وهو غاضب وسأل عن الشىء الذى يعرفه جيدًا : وأين المفتاح؟

تنهدت لاورافارينا بارتياح.

- إنه مع والدى - أجابت - لقـد قال لى أن أقفل. وعلى سيـادتك أن ترسل فى البحث عنه وأن ترسل أيضًـا وعدًا كتـابيًا بأنك ستساعده فى حل مشكلته.

انتـابت السناتور حـالة توتـر. "يا له من ديوث فـرنسى" غمـغم باستيـاء. ثم أغمض عينيـه ليستـرخى والتقى بنفـسه فى الظلمة. تذكر - تذكر - أنت أو غيرك ستموتون فى غضون وقت قصير، وبعد ذلك بقليل لن يتبقى منكم شيئًا بما فى ذلك الاسم. انتظر حتى تنتهى الرعشة.

- قولى لى شيئًا - سألها - ماذا سمعت عنى؟

-أتريد الحقيقة، ولا شيء غيرها؟

- نعم الحقيقة ولا شيء غيرها؟

- حسن - تجرأت لاورافارينا - إنهم يقولون بأنك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف.

لم يبد على السناتور أى تغيير. صمت طويلاً وعينيه مغلقتين، وعندما عاد لفتحهما كان يبدو أنه عائد من غرائزه المخفية.

- يا للعجب - قال مقرراً - قولى للديوث والدك أننى سوف أساعده فى مشكلته.

- إذا ما كنت تريد فإننى سأذهب بنفسى للبحث عن المفتاح - قالت لاورافارينا.

أمسك بها السناتور.

- إنسى المفتاح - قال - ونامى معى بعض الوقت، فمن الطيب أن يكون هناك رفيق عندما يشعر المرء بالوحدة.

وعندئذ قامت هى بجعله ينام على كتفها وعيناه موجهتان نحو الوردة فاحتضنها السناتور وأمسك بخصرها ودفن رأسه تحت إبطها الذى تفوح منه رائحة الحيوان الجبلى واستسلم للفزع. بعد ستة أشهر وأحد عشر يومًا سيموت فى نفس هذا الوضع، وقد أخذت فضيحة لاورافارينا تطارده، وسيبكى غيظًا من موته وحده بدونها.

الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب

"إيريندira" وجدتها القاسية

(١٩٧٤)

كانت إيريندira تقوم بمساعدة الجدة على الاستحمام عندما هبت رياح تعاستها. تعرض المنزل الضخم - المبنى وسط سكون الصحراء والذى يبدو كأنه شامة - لهزة عظيمة زلزلت كيانه مع أول الهجمات. لكن إيريندira وجدتها كانتا مهيأتين لمجابهة أخطار الطبيعة ولم تلحظا مدى شدة الرياح وهما فى البانيو المزين بصفوف الطاووس والموزايك المكون من رسوم صبيانية مثلما هو الحال فى الحمامات الرومانية.

كانت الجدة تبدو فى عرقها وضخامة جثتها كأنها سبع بحر جميل ذو لون أبيض يسبح فى حمام من الرخام. أما الحفيدة فلم تكد تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، كانت نحيفة وطرية العظام وبها طيبة تتجاوز حدود سنها. تقوم بصب الماء على الجدة بخفة ورقة يصحبهما دقة تصل إلى القدسية. كانت قد غلت الماء وأضافت إليه بعض النباتات بغرض التنقية وبعض الأوراق الأخرى حتى تكون ذات رائحة طيبة، وقد تعلقت تلك الأوراق بتجاعيد الظهر وبالشعر القوى المنسدل وعلى الكتف القوى الذى يحمل وشمًا قويًا وضع بلا رحمة وهو عبارة عن مسوخ من البحارة.

- لقد حلمت فى المساء أننى أنتظر رسالة - قالت الجدة.

أما إيريندير التى لم تكن تنطق بكلمة إلا عند الضرورة فقد سألت:

- أى يوم فى هذا الحلم؟

- كان الخميس.

إذن كانت رسالة تحمل أنباء سيئة - قالت - لكنها لم تصل أبدًا:

عندما انتهت من إعطاء الحمام لجدتها أخذتها إلى حجرة نومها. الجدة ضخمة لدرجة لا يمكن معها أن تسير إلا مستندة على كتف الحفيدة أو متكئة على عصا تشبه عصا الأسقف. ورغم هذه الصعوبات يبدو عليها أنها صاحبة سلطان قديم. وعلى السرير الذى يضم الكثير من التفاصيل فى مكوناته بدرجة تزيد عن الحد لتصبح كأنها هذيانًا، كانت الحفيدة بحاجة إلى ساعتين أخريين حتى تجعل الجدة تبدو مهذياناً فقامت بفك شعرها خصلة خصلة ثم قامت بتعطيرها وتصفيف شعرها وألبستها فستانًا مشجراً بألوان استوائية ووضعت بودرة التلك على وجهها ووضعت لها أحمر شفاه ثم وضعت لها أحمر الخدود، وخططت لها حواجبها بالمسك وطلت لها أظافرها بلون الصدف اللامع. وعندما أصبحت أمامها كأنها عروس - لعبة - أكبر حجمًا من الإنسان. ذهبت بها إلى حديقة صناعية من الزهور الخانقة مثل المرسومة على فستانها

وأجلستها على كرسى بمسند كان كأنه العرش بشكل الظهر والأجناب ثم تركتها لتستمع إلى اسطوانات وضعتها على الجرامافون.

وفى الوقت الذى أخذت فيه الجدة تطوف فى مستنقعات الماضى كانت إيرينديرا تقوم بكنس المنزل الذى كان معتمًا وممتلئاً بقطع الأثاث الفخمة وتماثيل قياصرة من وحى الخيال وثريات تتدلى منها الأذرع وملائكة مصنوعة من الألباستر وبيانو مذهب والعديد من الساعات ذات الأشكال والأنماط المختلفة. وفى فناء البيت هناك مستودع لتخزين المياه التى تصل عبر مزاريب من عيون المياه البعيدة. وعلى أحد جوانب الخزان هناك نعامة واهنة، وهى الحيوان الوحيد من الحيوانات ذات الريش الذى أمكنه مقاومة هذه الطبيعة العاتية. كانت النعامة بعيدة عن كل شىء، أى فى قلب الصحراء فى عزبة ذات شوارع حزينة وساخنة حيث تموت ذكور الماعز رعبًا عندما تهب رياح ....

كان هذا الملجأ غير المفهوم مكانه قد بناه زوج الجدة وهو رجل كان يعمل دائمًا فى التهريب، ونال شهرة أسطورية. اسمه أماديس، وكان له ابن منها سمى بنفس الاسم أيضًا وهو والد إيرنديرا. لم يعرف أحد أصل هذه الأسرة أو فصلها. والرواية الأكثر شهرة التى تذكر بلغة الهنود تقول بأن أماديس، الوالد، كان قد افتدى زوجته الجميلة من بيت دعارة فى أنيتاس بأن قتل رجلاً

بطعنات سكين ونقلها لتكـون فى حماية الصحراء. وعـندما مات كل أفراد عائلة أماديس، أحدهم بسـبب حمى الكدر والآخر قتلاً أثناء تصفية حسابات بين المتنافـسين، قامت المرأة بدفن الجثتين فى الفناء وقامـت بإقالة الأربع عشـرة خادمة وأخـذت تجتـر ذكريات عظمتـها فى ظلال هذا المنزل بفـضل تضحيـات الحفـيدة المولودة سفاحًا والتى قامت الجدة بتربيتها منذ مولدها.

كانت إيريندير فى حاجة لست ساعات لتقوم بملء الساعات وضبطها. وفى اليوم الذى بدأت فيه تعاستها لم تقم بهذا العمل، ذلك أن الساعات كـانت مملوءة لتعمل حتى صبـاح اليوم التالى، ومع ذلك قـامت بمساعـدة الجدة لأخـذ الحمام وارتـداء ملابسـها وتنظيف الأرضية بالمياه وإعداد طـعام الغذاء وتلميع الزجاج. وفى الحادية عشرة قـامت بتغيير المياه للنعامـة ورى الحشائش والنباتات الصحراوية الموضوعة على المقابر المجـاورة الخاصة "بالأماديسيين" كان عليهـا أن تقاوم شدة الرياح التى لم تعد محـتملة. لكنها لم تتصور أبدًا أن هذه ستكون رياح تعاستها. وفى الثانية عشرة كانت تلمع آخـر كؤوس الشـمبـانيا. فـى هذه اللحظة أحست برائحـة شوربة وفعلت المستحيل لتصل عدوًا إلى المطبخ دون أن يتأتى عن ذلك أى كسر للأوانى الزجاجية الواردة من فيينا.

اسـتطاعت بالكـاد أن ترفع الحلة التى أخـذت تفـور فـوق الشعلة ثم قـامت بوضع طبيخ آخـر، على النار كانت قـد أعدته

مسبقًا، وانتهزت الفرصة لترتاح بعض الشيء على كرسى فى المطبخ. أغمضت عينيها ثم فتحتهما بعد ذلك لكن لم يبد عليها التعب وأخذت تفرغ الشوربة فى السلطانية وتؤدى هذا العمل وهى نائمة.

كانت الجدة تجلس بمفردها على حافة مائدة لتناول الطعام أثناء الاحتفالات عليها الشمعدانات الفضية وأطقم السفرة لاثنى عشر فردًا. قرعت الجرس الصغير وفى الحال ظهرت إيريندا وهى تحمل السلطانية مملوءة بالشوربة. وفى اللحظة التى كانت تغرف لها الشوربة لاحظت الجدة أن الفتاة تبدو عليها ملامح النعاس، فمررت كفها أمام عينيها وكأنها تقوم بتنظيف الزجاج. لم تر الطفلة يد الجدة التى تابعتها بنظراتها، وعندما أدارت إيريندا ظهرها لتعود إلى المطبخ صاحت فيها الجدة.

- يا إيرنديدا

استيقظت فجأة فسقطت سلطانية الشوربة من يديها على السجادة.

- لا شىء يهم يا ابنتى - قالت الجدة بحنان صادق - لقد عدت للنوم وأنت تمشين.

- إنها عادة الجد - قالت إيريندا وهى معتذرة.

ركعت لتستعيد السلطانية ولا زالت آثار النوم عليها وحاولت تنظيف السجادة من البقعة.

- اتركيها هكذا - قالت الجدة وهى تنهرها - وعليك أن تغسليها هذا المساء.

الأمر هو أن إيريندير أضافت إلى أعباء المساء المعتادة عبء غسل سجادة حجرة السفرة. أضف إلى هذا أنها انتهزت عملية الغسيل هذه لتقوم بغسل الملابس التى ترتديها يوم الاثنين. بينما تضرب الرياح ضرباتها حول المنزل وتبحث عن منفذ للدخول. كانت أعباء الفتاة كثيرة لدرجة أن الظلام حل عليها دون أن تدرى، وعندما انتهت من سجادة حجرة الطعام كانت ساعة النوم قد حانت.

كانت الجدة تحاول العزف على البيانو بالضرب على أصابعه طوال المساء، وتحاول أن تغنى وتترنم بأغانى أيام الشباب وبقايا المسك لا زالت عالقة بأهدابها وبها آثار الدموع. لكنها عندما استلقت فى سريرها وهى ترتدى قميص نومها المصنوع من قماش "الموسلين" زالت عنها مرارة تذكر الأيام الخوالى.

- انتهزى يوم الغد فى تنظيف سجادة الصالة - قالت لإيريندير- فهى لم تر الشمس منذ أيام الهرج والمرج.

- حاضر يا جدتى - أجابت الطفلة.

أخذت مروحة من الريش وأخذت تحرك الهواء على السيدة التى لا ترحم والتى بدأت تعدد مفردات الواجبات الليلية وهى تخلد للنوم.

- عليك كى كافة الملابس قبل أن تخلدى للنوم حتى يرتاح ضميرك.

- حاضر يا جدتى.

- وأن تفحصى دواليب الملابس جيداً ذلك أن العتة تنشط فى المساء.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك فى الوقت المتبقى أمامك أن تخرجى أصص الزرع إلى الفناء لتتنفس.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك أن تضعى للنعامة طعامها.

أخذت تغرق فى النوم ومع ذلك لا تزال تصدر أوامرها. وقد ورثت الطفلة الحفيدة عنها صفة الاستمرار فى الحياة أثناء النوم. خرجت إيريندرا من الحجرة دون جلبة وقامت بباقى الأعمال الليلية مستجيبة دائمًا لما تأمر به الجدة النائمة.

- وعليك أن تسقى الزرع الموجود على المقابر.

- حاضر يا جدتى.

- وقبل أن تنامى تأكدى من أن كل شىء على ما يرام، فالأشياء كثيراً ما تتألم عندما لا تكون فى موضعها السليم.

- حاضر يا جدتى.

- وإذا ما حضر "الأماديسيون" أبلغيهم ألا يدخلوا - قالت الجدة - ذلك أن عصابة بورفيديوغالالان - تترقبهم للقضاء عليهم.

لم تجبها إيريندira بعد ذلك فهى تعرف أنها أخذت تدخل فى مرحلة الهذيان. ومع ذلك لم تخالف أية تعليمات. وعندما انتهت من مراجعة مزاليج النوافذ وأطفأت باقى الأنوار، أخذت شمعدانًا من حجرة الطعام لتستضىء به حتى تصل إلى حجرتها فى الوقت الذى تملأ فيه أنفاس الجدة النائمة جو المكان عند اللحظات التى تهدأ فيها حدة الرياح.

لها حجرتها فاخرة أيضًا لكن ليس بنفس الدرجة التى عليها حجرة الجدة. كانت مليئة بالعرائس المحشوة ولعبًا أخرى على شكل حيوانات جاءتها فى آخر فترات طفولتها. ولما كان إعياء العمل يغالب إيريندira لم تجد متسعًا من الوقت لتخلع ملابسها فقامت بوضع الشمعدان على "الكومودينو" واستلقت فى سريرها. وبعد ذلك بقليل استطاعت رياح تعاستها أن تنفذ إلى حجرة نومها دفعة واحدة كأنها مجموعة من الكلاب فانقلب الشمعدان فوق الستارة.

وفى صباح اليوم التالى كانت الرياح قد توقفت وبدأت تتساقط قطرات المطر التى أطفأت الجمرات الأخيرة وجعلت

الرمـاد، فى المنزل، يتصلب. حـاول أهل القـرية، الذين هم فى أغلبهم من الهنود إنقاذ ما تبقى من الكارثة، أخـرجوا جثة النعامة وقد تفحمت وهيكل البيانو المذهب والجزء الخلفى لأحد التماثيل. كانت الجدة تتأمل كسيرة رماد ثروتها. أما إيريندرا فكانت جالسة بين المقبـرتين بعدمـا توقفت عن البكاء. وعندمـا أصبـحت الجدة على قناعـة بأن بقى لها القليل من الحـريق نظرت إلى الطفلة بألم نابع من القلب.

- يا طفلتى المسكينة - تنـهدت - لو عشـت حياتك كـلها فلن تستطيعى أن تدفعى لى ثمن هذا.

أخذت تسـدد لها ذلك منذ هذا اليـوم تحت المطر وذلك بأن أخذتها إلى تاجر القرية وهو رجل مـاتت زوجته، نحيف الجسم، يعرفه كل من فى الصحـراء وذلك لأنه يدفع ثمنًا مناسبًا للعذرية. وأمـام ناظرى الجدة التى أخـذت ترقب وهى رابطة الجأش، قـام الرجل بفـحص إيريندرا بتقـشف علمى: أخذ فى الاعـتبـار قوة ساقـيها وحجم ثدييـها ومحـيط أردافها. ولم ينبس بكلمـة حتى استطاع تقدير قيمتها.

- لا زالت صـغيـرة بعد - قـال فى هذه اللحظة - ولهـا نهدان صغيران.

وبعد ذلـك طلب منها أن تصـعد على الميـزان ليتـأكد من صحة تقديره، كانت إيريندرا تزن ٤٢ كجم.

- لا تزيد عن مائة بيزو - قال الرجل الأرمل.

- مائة بيزو فقط مقابل مخلوقة جديدة تمامًا ! قالت بصوت فيه صياح - لا يا رجل إن هذا هو مخالفة صريحة للحقيقة.

- يمكن أن يصل السعر إلى مائة وخمسين - قال.

- لقد ألحقت الطفلة بى أذى بليغًا يقدر بحوالى مليونى بيزو - قالت الجدة - وعلى هذا فهى فى حاجة إلى مائتى عام لتدفع لى ما عليها.

- فقال : لحسن الحظ فإن أفضل شىء لديها هو صغر سنها.

كانت العاصفة تهدد بالقضاء على المنزل، كما أن المطر يتسرب من السقف من أماكن كثيرة كأنها تمطر بشكل متقارب فى الداخل والخارج، شعرت الجدة أنها وحيدة وسط عالم من الركام. فقالت:

- ليتك ترفع السعر إلى ثلاثمائة.

- مائتان وخمسون.

وفى النهاية اتفقا على سعر مائتين وعشرين بيزو على أن تدفع نقدًا بالإضافة إلى بعض الأطعمة، وعندئذ أشارت الجدة على الطفلة بأن تذهب مع العجوز الأرمل، بينما أمسك هو بيدها وأدخلها فى مؤخرة المحل وكأنه يأخذها إلى المدرسة.

- إنى أنتظرك هنا - قالت الجدة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريديرا.

الجزء الخلفى من المحل عبارة عن منطقة مظلمة قائمة على أربعة أعمدة من الطوب الأحمر، أما السقف فكان من سعف النخيل المتهالك وسياج جدارى من الطوب الأخضر يبلغ ارتفاعه مترًا حيث توضع فوقه البقايا الناجمة عن العواصف. وفوق هذا الساتر من الطوب وضعت أيضًا أصص الصبار والنباتات الصحراوية الأخرى، كما كان هناك سرير معلق مربوط إلى عمودين يتأرجح فى الهواء كأنه شمعة. لم يكن للسرير لون معين، وبالإضافة إلى صفير العاصفة وصوت قطرات المطر كانت تسمع صرخات آتية من بعيد وأصوات حيوانات واستغاثة غريق.

عندما دخلت إيريديرا والعجوز فى هذا المكان اتكأ كل منهما على الأخر حتى لا تلقى بها زخة مطر تركتهما مبللين تمامًا. لم تكن أصواتهما مسموعة، كما أن حركاتهما كانت مختلفة من جراء المطر. وفى أول محاولة قام بها العجوز صاحت إيريديرا بصوت غير مسموع وحاولت الفرار. فكان رد العجوز عليها بلا صوت، بأن قام بليًّ ذراعها وأخذها من معصمها وجرها إلى السرير، قاومته بأن خربشته فى وجهه وعادت لتصيح فى صمت، فكان رده هو صفعة قوية على وجهها رفعتها عن الأرض وجعلتها تطير فى الهواء للحظة وشعرها الطويل يتموج

فى الفـراغ. وقام بالإمـساك بهـا من خـصرها قـبل أن تنزل إلى الأرض وألقى بها فى السرير دفعة واحدة ملؤها الفظاظة، وأمسك بركبتها حتى أصبحت بلا حراك. أذعنت إيريندира فى هذه اللحظة للرعب وفقدت وعيها وتحولت إلى حالة من إصابة الذهول، بينما يقوم العـجوز بنزع ملابسـها وكأنه يقلع الحشائش ويقذف ببـقايا الملابس فكانت تطير فى الهواء متأرجحة.

ولما لم يتـبق فى القـرية أى رجـل آخر يـمكن له أن يدفع مـقابل ممارسـة الحب مع إيريندیرا، ذهبت بهـا الجدة فى شـاحنة متجهة إلى الأماكن التى تتم فيها عمليات التهريب. كانت الرحلة فى صندوق الشاحنة وقد أحاطت بهما أجولة الأرز وصفائح دهن الخنزير وما تبـقى من الحريق: مقـدمة سرير ملكى ومـلاك حرب والعرش المحتـرق وبعض الأشياء الأخرى غير ذات القـيمة. وفى الصندوق المرسـوم عليه صليـبـين بريشة عـريضة حـملتا رفـات الأماديسيين.

كانـت الجدة تحـتمى من الشـمس القوية بأن فـردت مظلة متهالـكة فوق رأسها. تتنفس بصعوبة من جـراء العرق والتراب. ورغم هذه الحالة تحـتفظ ببـعض سلطانها. خلف صف الصـفائح وأجـولة الأرز قامت إيريندیرا بسـداد ثمن الرحلة ونقل الأمـتعـة وذلك بممـارسة الحب مع عـمال الشاحـنة مقابـل عشرين بـيزو. وكانت دفاعاتها - فى البداية - مـشابهة للدفاع الذى اتخذته عند

اعتداء العجوز، لكن طريقة الحمال كانت جد مختلفة إذ اتسمت بالبطء والخبرة، وانتهى به الأمر إلى تطويعها باللين. وعندما وصلت الشاحنة إلى أول قرية بعد يوم ثقيل كانت إيريندير والحمال يستريحان من ممارسة الحب الجيد خلف الشحنة الساترة.

صاح سائق الشاحنة فى الجدة :

- العمار هو ابتداء من هذا المكان فصاعداً.

راقبت الجدة الشوارع البائسة وهى لا تكاد تصدق. لم يكن هناك أحد من المارة فى شوارع هذه القرية الكبيرة بعض الشىء، لكنها كانت حزينة بنفس الدرجة التى كانت عليها القرية السابقة.

- لا يلاحظ شىء.

- إنها أرض إرساليات دينية - قال السائق.

- أنا لا يهمنى الحصول على الصدقات بل ما يهم هو التهريب - قالت الجدة.

كانت إيريندير تستمتع إلى الحوار الدائر بينما تحاول وضع إصبعها فى أحد أجولة الأرز، وسرعان ما وجدت فتلة جذبتها فأخرجت عقداً من اللؤلؤ الحر. تأملته وهى تشعر بالفزع وأخذته بين أصابعها وكأنه حية ميتة. فى هذه اللحظة كان السائق يرد على الجدة:

- لا تحلمى أحلام اليقظة - يا سيدتى. لا يوجد هناك مهربون.

- وكيف لا - قالت الجدة - قل لى أنت ذلك!

- ابحثى عنهم وسترين - قالها السائق حازماً - إن كل الناس تتحدث عنهم لكن لا أحد يراهم.

أدرك الحمال أن إيريnديرا قد استخرجت العقد فسارع بأخذه منها ووضعه مرة أخرى فى جوال الأرز. وعندئذ قررت الجدة البقاء فى هذه القرية رغم فقرها فنادت على الحفيدة لتساعدها فى النزول من الشاحنة . ودعت إيريnديرا الحمال بقبلة سريعة لكنها عفوية وحقيقية.

انتظرت الجدة وهى جالسة على العرش وسط الشارع حتى انتهوا من إنزال الأمتعة، وكان آخرها الصندوق الذى به رفات "الأماديسيين" .

- إنه صندوق ثقيل الوزن كأنه ميت - ضحك السائق.

- إنهما اثنان - قالت الجدة - وعليك أن تعاملهما باحترام.

- أراهن على أنها تماثيل من العاج - ضحك السائق.

وضع الصندوق الذى يحمل الرفات كيفما اتفق وسط قطع الأثاث التى أصابها الحريق ومد يده مفتوحة إلى الجدة.

- خمسين بيزو - قال.

أشارت الجدة إلى الحمال.

- لقد تم السداد لعبدك باليد اليمنى.

نظر السائق مندهشًا إلى الحمال وصدرت عن هذا إيماءة تؤكد القول، فعاد إلى كابينة القيادة حيث كانت هناك امرأة تسافر وهى ترتدى ملابس الحداد ومعها طفل تحمله على ذراعيها وهو يبكى من الحر. كان الحمال واثقًا من نفسه جدًا وتوجه إلى الجدة بالقول:

- سوف تأتى إيريندريا معى. إلا إذا رغبت سيادتك فى شىء آخر. إننى أقول ذلك بنية صادقة.

تدخلت الطفلة مفزوعة.

- أنا لم أقل شيئًا!

- أنا الذى أقول فهذه فكرتى - قال الحمال.

تفحصته الجدة وهى تراه بقامته كاملة دون أن تقلل منه بل تحاول أن تدرك الحجم الحقيقى لبنيته.

- لا مانع عندى - قالت الجدة - إذا ما دفعت لى ما خسرته بسبب إهمالها. المبلغ هو ٨٧٢٣١٥ بيزو، ولما دفعت لى

مسبقًا ٤٢٠ بيزو، أى أن المبلغ المطلوب هو ٨٧١٨٩٥,

أخذت الشاحنة تتحرك.

- صدقينى ! إننى على استعداد لأسدد لك هذا المبلغ الضخم إذا ما توفر لدى - قال الحمال جادًا - فالطفلة تساوى ذلك.

شعرت الجدة بارتياح لقرار الفتى.

- إذن عد عندما يتوفر لك هذا المبلغ يا بنى - ردت عليه بلهجة فيها ظرف - أما الآن فعليك بالذهاب لأننى إذا ما عدت لمحاسبتك مرة أخرى ستكون مدينًا لى بعشرة بيزو.

قفز الحمال على مؤخرة الشاحنة التى أخذت تبتعد. ومن هناك ودع إيريندرا ملوحًا لها بيده، ولما كانت لا تزال تشعر بالفزع لم ترد عليه.

على نفس الأرض البوار التى تركتها الشاحنة قامت إيريندرا والجدة بارتجال كشك مصنوع من ألواح الصفيح والسجاد الآسيوى للعيش فيها وضعتا حصيرتين على الأرض، ونامتا براحة كأنهما فى المنزل الكبير، ومكثتا نائمتين حتى نفذت الشمس بين ثقوب السقف ولفحت وجهيهما.

الجدة هى التى قامت بإصلاح هندام إيريندرا هذا اليوم عكس ما كان يحدث دائمًا. فوضعت المساحيق على وجهها

بشكل مبالغ فيه طبقًا للموضة التى كانت سائدة أيام شبابها، وتلت ذلك بوضع أهداب صناعية وربطت شعرها بشريط بدا كأنه فراشة.

- سوف ترين نفسك فى شكل فظيع - قالت - لكن هذا أفضل : الرجال قساة جداً فى معاملتهم للنساء.

عرفت كلتا المرأتين صوت حوافز اثنين من البغال قادمين من الصحراء، وقد وصل الصوت إلى سمعيهما قبل رؤيتهما بوقت طويل. وبناء على أوامر الجدة استلقت إيرينديرا على حصيرة وكأنها ممثلة مسرح مبتدئة أخذت وضعها عند رفع الستار، واتكأت الجدة على عصا الأسقف ثم خرجت من هذه الحجرة المرتجلة وجلست على العرش فى انتظار مرور البغال.

كان رجل البريد يقترب. لم يكن عمره يتجاوز العشرين رغم أن المهنة قد أضافت إلى عمره سنوات، يرتدى الكاكى وغطاء رأس من الفلين، ويحمل مسدسًا خاصًا بالجنود يضعه فى حزامه المعد لحمل الطلقات. كان يمتطى بغلة جيدة ويسحب أخرى لا زالت أقل حجمًا من التى يمتطيها وقد وضع عليها أجولة و"خرج" البريد المصنوع من القماش.

قدم التحية للجدة ملوحاً بيده عند مروره بها، وواصل سيره، لكنها أشارت إليه حتى يلقى نظرة على ما بداخل الكشك.

فتوقف الرجل ورأى إيريnديرا وهى مستلقية على الحصيرة مهندمة وقد ارتدت فستاناً مزخرفاً بالألوان الحمراء.

- هل تروق لك - سألت الجدة.

لم يدرك رجل البريد حتى هذه اللحظة ما تريدانه.

- ليس الأمر بسيئ على غير إفطار - ابتسم.

- السعر خمسون بيزو - قالت الجدة.

- عجباً هل هى من ذهب! قال - هذا المبلغ هو المطلوب لطعامى طوال شهر.

- لا تكن بخيلاً - قالت الجدة - فالبريد الجوى دخله أفضل من دخل القساوسة.

- أنا من البريد الوطنى - قال الرجل - أما البريد الجوى فهو ذلك الذى ينقل على شاحنة صغيرة.

- على أى الأحوال، الحب هو أمر هام مثله مثل الطعام - قالت الجدة.

- لكنه لا يغذى.

أدركت الجدة أن ذلك الرجل الذى يعيش على آمال الناس سيكون لديه الوقت الكافى للفصال.

- كم معك ؟ سألته.

نزل الرجل من على البغلة وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية المتآكلة وأبرزها للجدة فأخذتها جميعها كالكرة بأصابعها الخمسة وكأنها مخلب إحدى الطيور الجوارح.

- سوف أخفض لك السعر - قالت - لكن بشرط : أن تذيع الخبر فى كل مكان.

- سوف أفعل ذلك حتى الطرف الآخر من الدنيا - قال رجل البريد - فأنا أكثر نفعًا فى مثل هذه الأمور.

لم تكن إيريندیرا قد تمكنت من تحريك أهدابها وعندئذ نزعت الرموش الصناعية وأخذت جانبًا من الحصيرة لتخلى مكانًا للخطيب المؤقت. وعندما دخل الكشك قامت الجدة بإغلاق المدخل بأن جذبت الستارة بقوة.

كان الاتفاق الذى تم ذا فاعلية فقد كان الرجال معلقون بصوت وصول البريد فجاءوا من كل حدب وصوب ليعرفوا الخبر الجديد الخاص بإيريندیرا. وخلف الرجال جاءت ترابيزات القمار ومنافذ بيع الطعام. ووراء كل هؤلاء قدم المصور على دراجته واستقر به المقام أمام المعسكر فوضع الكاميرا اليدوية ذات القماش الأسود وكذا الستارة الخلفية وعليها رسمت بحيرة مليئة بالبجع الذى لا حياة فيه.

كانت الجدة تحرك الهواء بالمروحة وهى تجلس على العرش. بدا أنها غير مبالية بهذا التجمع، فما يهمها هو النظام فى طابور الزبائن الذين أخذوا أدوارهم، وكذا حقيقة المبلغ الذى يدفعونه مقدمًا ليدخلوا على إيريندير ا. كانت حادة فى البداية لدرجة أنها رفضت زبونًا جيدًا كان المبلغ الذى يقدمه أقل خمسة بيزو من المطلوب. لكن بمرور الشهور أخذت تتعلم دروس الواقع وانتهى بها الأمر لقبول سداد باقى المبالغ المتفق عليها من خلال ميداليات تحمل صور القديسين أو بعض المقتنيات القديمة للأسرة وخواتم الزواج وكل شىء تتأكد من أنه ذهب جيد العيار، عندما تضغط عليه بأسنانها، رغم أنه لم يكن يلمع.

وبعد وقفة طويلة فى تلك القرية الأولى، كانت الجدة قد جمعت المال الكافى لتشترى حمارًا وبدأت تبحث داخل الصحراء عن أماكن أخرى أكثر مناسبة من أجل قبض الدين المستحق لها. كانت تسافر على بردعة مرتجلة وضعت على ظهر الحمار، وكانت تحتمى من الشمس باستخدام الشمسية المتهالكة التى كانت إيريندير ا تمسك بها. كان يسير خلفهما أربعة هنود من الحمالين وهم يحملون معهم مكونات العسكر: العرش الذى تم إصلاحه وعدة النوم والملاك المصنوع من الألباستر والصندوق الذى يضم رفات الأماديسيين. وكان المصور يسير وراء القافلة وهو يركب دراجته لكنه كان بعيدًا عنهما وكأنه ذاهب إلى مهرجان آخر.

كان قد مضى على الحريق ستة أشهر، وفى هذه اللحظة كان للجدة تصور كامل عن هذه التجارة.

- إذا ما سارت الأمور هكذا - قالت لإيريندير ا - فستكونين قد وفيت بالدين خلال ثمانى سنوات وسبعة أشهر وأحد عشر يومًا.

أخذت تراجع حساباتها وهى مغمضة العينين وتمضغ بعض الحبوب التى كانت تخرجها من كيس قماش تحتفظ فيه بالمال أيضًا ثم قالت :

- وهذا دون أن نأخذ فى الاعتبار أجر الهنود وطعامهم، بالإضافة إلى نفقات أخرى غير كبيرة.

لم تعترض إيريندير ا، وهى تسير إلى جوار الحمار وقد أنهكها الحر والتراب، على الحسابات التى تقوم بها الجدة، لكن حاولت ضبط نفسها حتى لا تنهمر دموعها.

- إن عظامى تتكسر - قالت.

- حاولى أن تنامى.

- حاضر يا جدتى.

أغمضت عينيها ثم أخذت شهيقاً عميقاً من الهواء الساخن وواصلت سيرها وهى نائمة.

* * *

ظهرت فى الأفق المترب شاحنة صغيرة محملة بالأقفاص وقد أخذت ذكور الماعز تفر هنا وهناك، ثم كان ظهور الطيور بمثابة المياه العذبة فى يوم أحد حار للقديس ميخائيل، قديس الصحراء. يقود السيارة مزارع هولندى ضخم الجثة اكتوى جلده بالطقس المستعر، وله شنب رمادى اللون ورثه عن أحد آباء أجداده. أما ابنه "عليس" الذى يجلس إلى جواره فهو شاب يافع ذهبى اللون عيناه زرقاوين تنطقان بالعزلة، وهيئته هى هيئة ملاك هبط عرضًا. استرعى انتباه الهولندى وجود خيمة يقف أمامها على شكل طابور كل جنود الحامية المحلية. كانوا يجلسون على الأرض ويشربون من نفس الزجاجة التى تنتقل من فم إلى فم، ويضعون على رؤوسهم أغصان شجر اللوز وكأنهم يريدون التمويه إيذانًا بالدخول فى معركة. سأل الهولندى بلغته.

- ما الذى يباع هنا بحق الشياطين؟

- إنها امرأة - أجابه الابن بتلقائية - اسمها إيريندىرا.

- وكيف عرفت

- كل الناس فى الصحراء يعرفون ذلك - أجاب عليس.

نزل الهولندى بالفندق الصغير فى القرية وأبطأ عليس بعض الشيء في الشاحنة وقام بأصابعه الماهرة بفتح حافظة النقود والأوراق التى تركها والده على المقعد وأخذ رزمة من الأوراق

المالية ووضع بعضًا منها فى جيوبه ثم عاد وترك كل شىء فى مكانه، وانتهز حلول الظلام، وعندما كان والده نائمًا تسلق خارجًا من نافذة الفندق وذهب ليأخذ دوره أمام خيمة إيرينديرا.

كانت الحفلة فى أوج ازدهارها. الجنود سكارى يرقصون وحدهم حتى يفيدوا من مجانية الموسيقى. والمصور يلتقط الصور الليلية مستخدمًا ورق الماغنسيوم للإضاءة. وفى الوقت نفسه تشرف الجدة على التجارة وتقوم بعد النقود فى الخفاء وتقوم بتوزيع الأوراق كل فئة على حدة ثم تقوم بترتيب كل ذلك فى سلة. لم يتبق إلا اثنى عشر جنديًا، غير أن طابور المساء كان يضم بعض المدنيين، وكان عليس آخر فرد فى الطابور.

وقع الدور على جندى كئيب الشكل، فباعدته الجدة وزادت من هذا بأن باعدت نفسها عن لمس نقوده.

- لا يا بنى - قالت له - لن تدخل ولو كان معك ذهب الدنيا - إنك إنسان ثقيل.

شعر الجندى بالمفاجأة فهو ليس من هذه النواحى.

- ما معنى هذا؟

- إنك مُعدى بثقلك - قالت الجدة - وهذا بمجرد النظر إلى وجهك.

أبعدته بإشارة من يدها. وأذنت للجندى الثانى بالدخول.

- أدخل أنت أيها الضخم - قالت له بمزاجية - وعليك ألا تتأخر كثيراً فالوطن فى انتظارك.

دخل الجندى، لكنه خرج فى الحال ذلك أن إيريندير كانت تريد التحدث مع جدتها. فقامت بوضع سلة النقود على صدرها ودخلت الخيمة ضيقة المساحة لكنها كانت مرتبة ونظيفة. كانت إيريندير ممددة على السرير الشبكى وهى غير قادرة على أن تتحكم فى رعشة سرت بجسدها. فقد عوملت بقسوة وملأتها قذارة الجنود.

- يا جدتى - وفى صوتها حشرجة البكاء - إننى أموت.

وضعت الجدة يدها على جبهتها وعندما تأكدت أن حرارتها ليست مرتفعة حاولت تهدئتها.

- لم يبق إلا عشرة من الجنود - قالت.

أجهشت إيريندير باكية بصوت حيوان يشعر بالغيظ. عرفت الجدة حينئذ أنها تجاوزت حدود الرعب، فقامت بملاطفتها بأن ربتت على رأسها لتساعدها على استرجاع هدوئها.

- كل ما فى الأمر أنك تعبت - قالت لها - هيا لاتبكِ أكثر من ذلك قومى بالاستحمام بماء الرضاب حتى يسرى الدم فى عروقك.

خرجت من الخيمة فى اللحظة التى أخذت فيها إيريندا تستعيد هدوءها. فأعادت النقود للجندى الذى كان عليه الدور "لقد انتهينا اليوم - قالت له - عد غداً وسوف تكون فى أول الطابور.

ثم صاحت فى باقى الطابور.

- انتهينا اليوم أيها الفتية. إلى اللقاء غداً فى التاسعة صباحًا.

خرج الجنود والمدنيون من الطابور وهم يصيحون احتجاجاً.

واجهتهم الجدة بذكاء لكنها خففت من وقع هراواتها.

- أنتم لا تضعون اعتباراً لما يحدث أيها الحمقى - كانت تصيح - هل تظنون أن هذه المخلوقة من حديد، أه لو كنتم مكانها، أيها الفاسدون يا روثاً بلا وطن

فكان رد الرجال عليها بشتائم أقذع لكن انتهى الأمر بأن سيطرت على الموقف وظلت تترقب وهى تحمل الهراوة حتى رفع البائعون موائد بيع شحم الخنزير المقلى وانفض أصحاب موائد القمار. وبينما كانت تستعد لدخول الخيمة رأت عليس وحده فى المساحة الخالية والمظلمة التى كان الطابور يصطف فيها شكله يوحى بهيئة غير واقعية لكنه بدا مرئياً فى هذه الظلمة بفضل وميض وسامته.

- وأنت - قالت له الجدة - أين تركت أجنحتك؟

- كان جدى هو صاحب الأجنحة - أجاب عليس بتلقائية - لكن لا أحد يصدق ذلك.

عادت الجدة لتفحصه باهتمام كأنها مسحورة " أنا أؤمن بذلك - قالت - وعليك أن تأتى غداً وقد وضعت الأجنحة " .

دخلت الخيمة وتركت عليساً وهو يغنى فى مكانه.

شعرت إيريندريا بالتحسن بعد الحمام، وقد ارتدت ملابس قصيرة مزركشة، وأخذت تجفف شعرها لتنام، ومع ذلك تغالب الدموع، استغرقت الجدة فى النوم.

ومن وراء سرير إيريندريا أطل عليس برأسه بخفة وحذر فرأت هى العينين الشغوفتين الرقراقتين، لكنها - قبل أن تنطق بكلمة - قامت بدعك وجهها بالفوطة للتأكد أن ما تراه حقيقة، وعندما طرف عليس بعينيه لأول مرة سألته إيريندريا بصوت هامس.

- من تكون أنت؟

ظهر عليس بجزء من جسده حتى الأكتاف - "أنا أسمى عليس" - قال، وأظهر لها الأوراق المالية التى سرقها من والده، ثم أضافت :

- هات النقود.

وضعت إيريندبرا يديها على السرير ثم اقتربت بوجهها من وجه عليس وواصلت حديثها معه كأنهما تلميذان في مدرسة ابتدائية.

- كان عليك أن تكون فى الطابور - قالت له.

- لقد انتظرت الليل بطوله - قال عليس.

- والآن عليك الانتظار حتى الصباح - قالت إيريندبرا - إننى أشعر وكأنى قد تعرضت للضرب على كليتى.

فى هذه اللحظة بدأت الجدة تتحدث وهى نائمة.

- لقد مضى عشرون عامًا منذ آخر مرة أمطرت - قالت - كانت زوبعة رهيبة إذ اختلط المطر بماء البحر وأصبحنا فوجدنا المنزل مليئًا بالسمك والكاراكول، أما جدتك يا أماديس رحمها الله فقد شوهدت مضيئة وهى تسبح فى الفضاء.

عاد عليس ليهرب خلف السرير، ابتسمت إيريندبرا ابتسامة لذيذة.

- اهدأ - قالت له - إنها تبدو مجنونة وهى نائمة لكنها لا يوقظها زلزال.

عاد عليس ليطل من جديد. تأملته إيريندير بابتسامة ماكرة وفيها شيء من الود وقامت برفع الملاءة المستخدمة من على الحصيرة.

- تعال - قالت له - ساعدنى على تغيير الملاءة.

عندئذ خرج عليس من خلف السرير وأخذ الملاءة من أحد أطرافها. ولما كانت أكبر بكثير من حجم الحصيرة فقد استغرقا وقتاً فى طيها أكثر من مرة، وفى كل مرة يصبح عليس أكثر اقترابًا من إيريندير.

- جن جنونى لأراك - قال سريعاً - الجميع يقولون بأنك جميلة للغاية وهذا حقيقى.

- لكننى سأموت - قالت إيريندير.

- تقول أمى أن من يموتون فى الصحراء لن يصعدوا إلى السماء بل سيذهبون إلى البحر - قال عليس.

- قالت : أنا لا أعرف البحر.

-قال عليس: إنه مثل الصحراء لكن به ماء.

- إذن لا يمكن السير فيه.

- عرف والدى أحد الناس الذى كان يسير فى البحر - قال عليس - لكن ذلك كان منذ زمن طويل.

كانت إيريندیرا سعيدة لكنها كانت بحاجة للنوم فقالت:

- إذا مـا أتيت غداً فى الصـباح البـاكر سـوف تكون أول الطابور.

-فقال عليس: سوف أرحل مع والدى فجر هذا اليوم.

- ألن تعود إلى هنا مرة أخرى؟

- لا أحد يدرى مـتى - قال عليس - إننا نمر بهـذه القرية بمحض الصـدفـة لأننا فـقدنا الاتجـاه الصـحـيح فى الطريق إلى الحدود.

نظرت إيريندیرا، مفكرة، إلى الجدة النائمة.

- حسن - قالت مقررة - هات ما معك من نقود.

أعطاها عليس النقود، فنامت إيريندیرا فى السرير لكنه ظل يرتعش فى مكانه، وفى اللحظة الحاسمة خارت عـزيمته، فأخذته إيريندیرا من يده لتنتـهى بسـرعة وعندئذ أدركت رهبـته، كـانت تعرف هذا الخوف.

- أهذه أول مرة؟ سألته.

لم يجب عليـها لكن ظهـرت على وجهه ابـتسامـة خيـبة الأمل، فتغيرت إيريندیرا.

- تنفس بهدوء - قالت له - الأمر صعب فى البداية - لكن ستتعود عليه بعد ذلك.

جعلته ينام إلى جوارها، وبينما تساعده فى خلع ملابسه كانت تربت عليه بمداعبات فيها أمومة.

- ما اسمك؟

- عليس.

- إنه اسم أجانب - قالت إيريندريا.

- لا، إنه اسم بحار.

كشفت إيريندريا عن صدره وقبلته قبلات مثل تلك التى تعطى لليتامى، ثم أخذت تشمه.

- تبدو كأنك ذهب - قالت - ذلك أن رائحتك هى الزهور.

- لابد وأنها رائحة البرتقال - قال عليس.

وبعد أن عاد إليه الهدوء ابتسم ابتسامة ماكرة.

- إننا نحمل الكثير من الطيور للتمويه - أضاف - لكن ما نحمله فى السيارة ونتجه به إلى الحدود هو تهريب البرتقال.

- البرتقال لا يهرب - قالت إيريندريا.

- هذا النوع نعم يتم تهـريبه - قال علـيس - فكل واحدة تساوى خمسين ألف بيزو.

كانت إيريندبرا تضحك لأول مرة منذ وقت طويل.

- إن أفـضل شىء يعـجبنى فـيك - قـالت - هو هدوءك وأنت تخترع هذه الترهات.

استـعادت إيريندبرا تـلقائيتـها وكـأن براءة عليس أثرت فى تغيير مزاجها وتوجهاتها.

كانت الجدة وهى على مسافة قـصيرة منهما لا زالت تتكلم وهى نائمة.

- فى هذه الأزمنة، أى فى بداية مـارس أتوا بك إلى المنزل - قالت - كنت تبدو أنك سلحفاة صـغيرة ملفوفة فى القطن. أما أماديس والدك الشـاب الوسيم فـقد كان سـعيـدًا فى ذلك المساء لدرجة أنه أرسل فـى البحث عن عشـرين عربة صغـيرة مـحملة بالزهور. ثم وصل وهو يصـيح ويلقى بالزهور فى الشـارع حتى أصبح اللون الذهبى هو المسيطر على القرية وكأنها البحر.

أخذت تـهذى عدة سـاعات بصـوت مرتفع وبـشغف فـيه إصرار. لكن لم يسـمعهـا عليس ذلك أن إيريندبرا أحبـته كثـيراً وبصدق. عادت لتمارس معه الحب بنصف السعر فى الوقت الذى

ظلت الجدة تهذى فيه. وظلت تمارس معه الحب حتى الصباح بدون مقابل.

كانت هناك مجموعة من المبشرين يرفعون الصلبان إلى أعلى قد تراصوا جنباً إلى جنب وسط الصحراء. كانت الرياح العاتية، مثل رياح التعاسة، تعصف بملابسهم المصنوعة من الخيش وبلحاهم الخشنة لدرجة أنهم لا يكادون يصمدون على أقدامهم. كانت دار التبشير خلفهم وهى عبارة عن مبنى من العصر الاستعمارى بها برج صغير للأجراس يقوم على حوائط خشنة عليها طبقة من الجير.

أشار المبشر الأصغر سنًا والذى كان يقود المجموعة بسبابته إلى وجود شرخ طبيعى فى الأرضية الطينية اللامعة.

- لا تعبروا هذا الخط - صاح فيهم.

توقف الحمالون الأربعة من الهنود الذين كانوا يحملون الجدة على محفة خشبية عندما سمعوا هذه الصيحة. ورغم أن الجدة كانت تجلس جلسة غير مريحة على المحفة، كما أن مزاجها غير طبيعى بسبب الصحراء وترابها، إلا أنها كانت تحتفظ بتعاليها. إيريندرا تسير إلى جوارها. وخلف المحفة هناك ثمانية من الحمالين الهنود، المصور على دراجته فى المؤخرة.

- الصحراء ليست ملكًا لأحد - قالت الجدة.

- إنهـا لله - قال المبـشـر - وأنتم تعتـدون على القـوانين المقدسة بما تحملون من قذارة.

عرفت الجدة أن المبشر قـادم من شبه جزيرة أيبريا وذلك من خلال لكنته فى الحـديث. فحاولت تفادى مـواجهة مباشـرة معه حتى لا تصطدم بعناده. استعادت رباطة جأشها وقالت.

- لا أفهم ألغازك يا بنى.

أشار المبشر إلى إيريندريا.

- هذه المخلوقة لا زالت قاصراً.

- لكنها حفيدتى.

- هذا أسوأ - رد المبشر - عليك أن تضـعيها تحت وصايتنا بالحسنى، وإلا لجأنا إلى أساليب أخرى.

لم تكن الجدة تنتظر أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

- حسن ليكن ذلك - تنازلت وهى تشـعر بالفزع - لكننى سأعود آجلاً أم عاجلاً وسوف ترى.

ظلت الجدة وإيريندريا تـنامان لمدة ثلاثة أيام فى قرية قـريبة من الدير، وعندئذ دخلت أجـساد صـامتـة وهى تزحف، كأنـها مجـموعة اقتـحام، داخل الخيمـة. كانت هذه الأجساد لسـتة من المبـتـدئات فى الرهبنة مـن الهنديات اللائى يتـمـتـعن بالحـيـوية

والشباب، وهن يرتدين الملابس الخشنة التى يبدو وميضها، كأنها فسفورية، تحت ضوء القمر المتقطع. ودونما جلبة، قمن بتغطية إيريندیرا بقماش سميك وأخذنها دون إيقاظها وكأنها سمكة كبيرة الحجم وضعيفة تم اصطيادها فى شبكة فضية.

لم يكن هناك مخرج أمام الجدة لتنقذ حفيدتها من وصاية المبشرين. وعندما أعيتها الحيل، سواء المباشرة منها أو الملتوية، لجأت للسلطات المدنية التى يرأسها أحد العسكريين، فوجدته فى فناء منزله والجزء العلوى من جسده عريان، ويصوب ببندقية من بنادق الحرب صوب سحابة سوداء تعبر الشمس المشتعلة. كان يحاول فتح ثقب فى السحابة حتى تفرغ ما فيها من مياه لكن طلقاته ذهبت أدراج الرياح ومع ذلك كان يصمت بين الحين والآخر للاستماع إلى الجدة.

- أنا غير قادر على فعل شىء - شرح لها عندما انتهى من الاستماع إليها - فهؤلاء الآباء من حقهم طبقًا للاتفاق الموقع أن يأخذوا الفتاة حتى تبلغ سن الرشد. أو حتى تتزوج.

- لماذا إذن تشغل سيادتك وظيفة العمدة؟ سألت الجدة.

- حتى أجعل المطر يسقط - قال العمدة.

وبعد أن رأى أن السحابة قد ابتعدت عن مرماه قطع مهامه الرسمية وأبدى كل اهتمامه بالجدة..

- إن ما تحتاجينه يا سيدتى هو إنسان له وزن كبير يستطيع الدفاع عنك - قال لها - أنت فى حاجة لأحد يضمنك فى حسن السير والسلوك من خلال مستند كتابى. ألا تعرفين السناتور أونيسيمو سانشيث؟

كانت الجدة تجلس تحت أشعة الشمس الحمراء الحارقة على كرسى صغير على عجزها الضخم فأجابت قائلة:

- إننى امرأة مسكينة فى هذه الصحراء الشاسعة.

تأملها العمدة بعينه اليمنى وقد أغمضها قليلاً بسبب الحر وكانت نظرة متعاطفة.

- إذن لا تضيعى الوقت يا سيدتى - قال لها - لقد ذهبت مع الريح.

لم يذهب الريح بها بالطبع. فقد أقامت الخيمة أمام دير التبشير وجلست تفكر كأنها محارب وحيد يقوم بحصار مدينة محصنة. أما المصور الجوال الذى يعرفها جيداً فقد حزم الماكينة على دراجته واستعد للذهاب عندما رآها وهى تحت الشمس وعيناها مثبتتان على الدير.

- لنر من سيصاب بالإجهاد أولا - قالت الجدة - هل أنا أم هم.

- إنهم هناك منذ ثلاثمائة عام ولا زالوا يتحملون - قال المصور - أما أنا فذاهب.

فى هذه اللحظة رأت الجدة الدراجة محملة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حيث تأخذنى الرياح - قال المصور ثم مضى - الدنيا واسعة.

تنهدت الجدة.

- ليس بنفس الشكل الذى تتصور أيها التعس.

لكنها لم تحرك رأسها رغم الغيظ حتى لا يبتعد ناظرها عن الدير - وظلت على هذا الحال طوال أيام كثيرة كان الحر فيها شديداً. وطوال ليالى كثيرة تضرب الرياح فى أرجائها. وطوال أوقات التأمل لم يخرج أحد من الدير. قام الهنود ببناء عشة من السعف إلى جوار الخيمة وعلقوا فيها حاجياتهم، لكن الجدة كانت تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل يغالبها النعاس وهى جالسة على العرش وتلوك الحبوب، التى أخرجتها من كيسها، بإصرار ثور يرقد ويجتر طعامه.

وذات ليلة، مرت بالقرب منها مجموعة من الشاحنات المغطاة؛ كانت تسير ببطء، وكانت الأضواء الوحيدة المشتعلة هى

كشافات ملونة تجعل من الإضـاءة كأنها ألوان طيف. عرفت الجدة نوعيـة السيارات عـلى الفور فهى مماثلة لشـاحنات الأماديسـيين. تأخرت آخر سيارة فى هذا الرتل ثم توقفت ونزل منها رجل ليقوم بإصلاح شىء مـا فى صندوق السيارة. كان يبـدو أنه صورة طبق الأصل من الأماديسيين إذ كان يلبس قبعة ملتوية أطرافها وحذاء ذا رقبة طويلة وحـزامين من الخراطيش متعاقـدين على منطقة الصدر وبندقيـة من بنادق الجيش بالإضـافة إلى مسـدسين. ولما كـان قد غلبتها قناعة لا تقاوم نادت الجدة على الرجل.

- ألا تعرف من أنا؟ سألته

وجـه إليهـا الرجل ضوء البطاريـة التى يحملهـا بشكل لا رحمـة فيه وتأمـل للحظة الوجه الذى أصابه الإعـياء من السـهاد والعينين المتعبتين والشعر الذابل لامرأة كان يمكن أن تكون أجمل امرأة فى الدنيا رغم تقـدم عمرها. وعندما تفحصهـا جيداً ليكون على يقين من أنه لم يرها قط قبل ذلك أطفأ البطارية.

- الشىء الوحيد الذى أعرفه ومـتأكد منه - قال - هو أنك لست عذراء دى لوس ريميديوس.

- على العكس تمامـاً - قالت الجدة بصـوت فيـه عذوبة - إننى السيدة.

وضع الرجل يده على المسدس بحركة غريزية.

- أى سيدة !

- زوجة أماديس الكبير.

- إذن لست من هذا العالم - قال بتوتر - ما الذى تريدين؟

- أن تساعدونى فى إنقاذ حفيدتى، حفيدة أماديس الكبير، ابنة ابننا أماديس فهى أسيرة فى هذا الدير.

غالب الرجل خوفه.

- لقد أخطأت العنوان - قال - إذا مـا تصورت أننا قادرون على التـدخل فى الأمـور الدينيـة، فلست أنت يا سـيـدتى التى تقولين هذا، ولست تعـرفين الأماديسيـين وليست لديك أى فكرة عن ماهية التهريب.

نامت الجدة فى ذلك الفـجر وقتًا أقل من الليالـى السابقة، وقد قضت الليل وهى تلـوك الحبوب وقد لفت نفسـها ببطانية من الصـوف، وتولى وقت السحـر إضعـاف ذاكرتهـا وأخذ الهـذيان المكبوت يصـارع من أجل الخروج إلى النور رغم أنهـا يقظة وكان عليها أن تضغط على قلبهـا بيديها حتى لا تطاردها ذكريات منزل يطل على البـحر تملؤه الزهـور من مخـتلف الألوان حيث كـانت تعـيش سـعيـدة وظلت على هـذا الحال حـتى دق جـرس الدير وأضيئت الأنوار الأولى فى الـنوافذ وملأت الصحراء رائحـة الخبز الطازج. وعندئذ تركت نفسها نهبًا للإرهاق وقد خدعها الأمل فى

أن إيريندرا قد نهضت من نومها وتحاول أن تجد الوسيلة للهروب.

أما إيريندرا فلم تضيع ليلة واحدة إلا ونامت وذلك منذ أن حملوها إلى داخل الدير. فقاموا بقص شعرها باستخدام مقص تقليم النباتات وتركوا رأسها كأنها فرشاه وجعلوها تلبس القفطان الخشن الذى عادة ما ترتديه المبتدئات فى الرهبنة وسلموها دلواً من الجص للماء وكذا مقشة لتقوم بتنظيف درجات السلم كلما مر عليه أحد. هو عمل لا يتحمله إلا البغال ذلك أن صعود السلم ونزوله كان مستمراً إذ تواصل صعود المبشرين والمبتدئات اللائى تقمن بأعمال الحمالين. لكن إيريندرا شعرت بذلك وكأنها تقضى يوم الأحد فى كل يوم. أى تخلد بعد العملية المهلكة إلى السرير. كما أنها لم تكن الوحيدة التى تصاب بالإرهاق من كثرة العمل عند حلول الليل ذلك أن الدير لم يكن مسخراً لمحاربة الشيطان بل لمحاربة الصحراء.

كانت إيريندرا ترى المبتدئات الهنديات وهن يحكمن سيطرتهن على الأبقار لحلبها فى الزرائب، وكن يقضين أياماً كاملة وهن يتقافزن فوق صناديق خشبية من أجل تصفية الجبن. وكن يساعدن الماعز فى لحظات المخاض الصعبة. لقد رأتهن وهن يتصببن عرقاً، كأنهن عمال شحن وتفريغ، وهن يخرجن المياه من البئر ويقمن برى حديقة ترتعد من الخوف قامت بفلاحتها مبتدئات

أخريات استخدمن فى ذلك الفأس البقول فى قلب الصحراء. لقد رأت الجحيم الدنيوى فى أفران الخبز وحجرات الكى. شهدت أيضًا إحدى الراهبات وهى تقوم بمطاردة خنزير فى الفناء ورأتها وهى تتزحلق ممسكة بالخنزير من أذنيه وتسقط به فى منطقة موحلة فتهب لنجدتها اثنتان من المبتدئات وهن يرتدين مرايل من الجلد ويسيطرن على الخنزير، وقامت إحداهن بذبحه مستخدمة سكين جزارة وتلطخت ثلاثتهن بالطين والدم. رأت فى أحد الأروقة الجانبية للمستشفى بعض الراهبات المصابات بمرض السل وهن يرتدين قمصان الموتى الذين ينتظرون قضاء الله، وهن يقمن بتطريز ملاءات الأسرة وجالسات فى الشرفات بينما يقوم رجال الإرسالية بالتبشير فى الصحراء.

كانت إيريندىرا تعيش مع نفسها وهى تكتشف أنماطًا جديدة للجمال والفظاعة لم تتصورها أبدًا فى هذا العالم الضيق للسرير. لكن لم تستطع أى واحدة من المبتدئات سواء الخشنات الطبع منهن أو العنيدات أن تجعلها تنطق بكلمة منذ أن حملوها إلى الدير. وذات صباح وعندما كانت تقوم بوضع الماء فى الجردل سمعت صوت آلة موسيقية وترية بدت وكأنها نور ساطع وسط ضوء الصحراء. لقد استأثرت المعجزة بلبها وجعلتها تطل على صالون ضخم وخال، ليس على حوائط شىء له نوافذ ضخمة، كانت أنوار شهر يونيو تدخل منها بقوة وتظل واقفة هناك. ورأت فى

وسط الصالون راهبة عظيمة الجمال لم ترها قبل ذلك، وهى تعزف مقطوعة موسيقية دينية على آله Claviembaloوهى طراز قديم من البيانو. استمعت إيرينديرا للموسيقى دون أن تطرف لها عين وروحها فى حالة تسامى حتى رن الجرس لتناول الطعام. وبعد الغذاء، وبينما تقوم بتلميع السلم باستخدام الفرشة المصنوعة من الحلفاء، انتظرت حتى تصعد جميع المبتدئات وتنزل بعد ذلك. وبقيت وحيدة لم يسمعها أحد، وعندئذ تكلمت لأول مرة منذ أن دخلت الدير. وقلت:

- أنا سعيدة.

فقدت الجدة آمالها فى أن تحاول إيريندير الهرب والذهاب معها، ورغم ذلك ظلت تعيش حالة الحصار الحديدى دون أن تتخذ أى قرار، وظلت هكذا حتى يوم الأحد الذى يوافق عيد العنصرة. وخلال هذه الفترة من العام كان المبشرون يقومون بتمشيط الصحراء للبحث عن العشيقات الحبليات من أجل تزويجهن. كانوا يذهبون حتى العزب المجهولة البعيدة وهم يركبون شاحنة متهالكة ويرافقهم أربعة من الجنود جيدى التسلح وجوال به بعض الحاجيات الضئيلة القيمة. وأصعب شىء فى عملية الاصطياد هذه يتمثل فى إقناع النساء اللاتى يحاولن الهروب من الكرم الإلهى بحجة قوية تقول بأن الرجال يشعرون بأنهم أصحاب حق فى أمرهم الزوجات الشرعيات بالقيام بأعمال

أكثر غلظة وقسوة من أن تطلب من العشيقات، وفى الوقت نفسه ينامون ملء جفونهم على الأسرة المعلقة. كان الأمر يقتضى اللجوء إلى وسائل خداعية وذلك بتذويب دواء إرادة الله فى شراب من نفس المعين الذى يستخدمنه حتى لا يشعرن بوطأتها. وكان الأمر ينتهى بهن، بما فى ذلك أكثرهن مقاومة، بالاقتناع وقبول أقراط من النحاس. أما فى حالة الرجال فكان تصرفهم عكسيًا إذ عندما تقبل النساء يقوم الرهبان بإخراجهم بالقوة من على الأسرة المعلقة ويذهبوا بهم مقيدين إلى أماكن الشحن والتفريغ لتزويجهم بالقوة.

وطوال عدة أيام كانت الجدة ترى الشاحنة الصغيرة وهى تدخل الدير محملة بالنساء الهنديات الجبليات لكن لم تجد الفرصة السانحة، لكن هذه الفرصة كانت سانحة يوم الأحد (يوم العنصرة) وذلك عندما سمعت الصواريخ النارية وقرع الأجراس وشاهدت أعداداً من جمهور البؤساء الفرحين تدخل للمشاركة فى الحفلة، ورأت نساء حبليات وهن يضعن على رؤوسهن الطرحة وتاج الزفاف ويتأبطن أذرع أزواج الصدفة حتى تكتسب العلاقة صبغة شرعية فى هذا الزفاف الجماعى.

كان آخر واحد فى هذا الطابور شاب برئ القلب ذو شعر هندى وقد قصه على هيئة ثمرة الـ **Totuma** ويرتدى لباسًا من الأسمال ويحمل فى يده شمعة طويلة عليها شريط من الحرير. نادته الجدة.

- قل يا بنى، أود أن تقول لى شيئًا - سألته بصوف ناعم - ماذا أنت فاعل فى هذا الهرج والمرج.

كان الفتى يشعر بالخوف وهو يحمل الشمعة، ولما كانت أسنانه قوية كأنها أسنان الحمار، كان يجد صعوبة فى إغلاق فمه.

- الأمر هو أن الآباء سيقومون بعمل التناول الأول لى - قال.

- كم دفعوا لك؟

- خمسة بيزو.

أخرجت الجدة من كيس نقودها حزمة من الأوراق المالية نظر إليها الفتى وقد شعر بالدهشة.

- سوف أعطيك عشرين بيزو - قالت الجدة - لكن ذلك ليس من أجل التناول الأول بل حتى تتزوج.

- وممن أتزوج؟

- من حفيدتى.

بهذه الطريقة تزوجت إيريندىرا فى فناء الدير وهى ترتدى قفطان السجينات وتضع على رأسها طرحة أهدينها إليها المبتدءات، ودون أن تعرف ما هو اسم الزوج الذى اشترته لها الجدة، تحملت بأمل غير واثق عملية الركوع على الأرض المليئة

بالحصى الكريهة التى تشبه رائحة جلد ذكر الماعز المنبعثة عن المائتى عروس الحبليات. وتحمـلت طول رسالة القديس بابلو التى ألقيت باللغة اللاتينية فى هذا القيظ المحرق وذلك لأن المبشرين لم يجدوا لديهم الأسبـاب لمعارضة مـصيدة الزواج غـير المتوقـعة، إلا أنهم وعدوها بآخر محاولة للإبقـاء عليها فى الدير، ومع كل هذا فعند نهاية حـفل عقـد القران، وفى حـضور كل من الممثـل الرسولى والعمدة الـعسكرى الذى كان يطلق النيران على السـحب ووجود الزوج الذى هلّ حديثًا، وجدتها اللامبالية وجدت إيريnديرا نفسها تحت السحر الذى سـيطر عليها منذ مولدها. وعنـدما سئلت عن رغبتها الحرة والحقيقية والنهائية لم تتردد لحظة واحدة.

- أريد الذهاب من هنا - قـالت، وأوضحت مـشيـرة إلى الزوج - لكنى لن أذهب معه، بل أنا ذاهبة مع جدتى.

قضى علـيس الأمسيـة بالكامل محـاولاً سرقة برتـقالة من مزرعة والده الذى لم تفـارقه عيناه وهما يقومان بتـقليم الأشجار المريضة، أما أمه فكانت تحرسه وهى فى المنزل. وفى النهاية تخلى عن عـزمه، فى هذا اليـوم على الأقل، وأصـبح عكر المزاج وهو يساعد والده حتى انتهيا من تقليم باقى أشجار البرتقال.

كانت المزرعة الفخمة سـاكنة وبعيدة عن الأعين، أما المنزل الخشبى ذو السقف المصنوع من ألواح الصـفيح، فقد كانت توضع على نوافذه شباك نحاسية وله شرفـة ضخمة أقيمت على دعامات

ووضعت فيـها نباتات برية ذات زهور نفاذة الرائـحة. كانت والدة عليس فى الشرفـة مستلقـية على كرسى هزاز وقـد وضعت على صدغيها بعض الأوراق المدخنة لمقاومة الصداع. أما نظراتها الثاقبة التى يتميـز بها الهنود الأُصلاء فكانت تتابع الابن وحركـاته كأنها حـزمة ضـوء غيـر مرئى حـتى فى الأمـاكن المنزوية من حديقـة البرتقال. جمالها أخاذ، وهى أصغر سنًا بكثير من الزوج. ترتدى القميص القبلى كمـا كانت على علم ودراية بالأسرار القديمة لبنى جلدتها.

عندما عاد عليس إلى المنزل وهو يحـمل عدة التقليم طلبت منه والدته أن يأتى لها بالدواء الـذى يجب أن تتناوله فى الرابعة، والموجـود على منضـدة صغـيـرة قريبـة. وبمجـرد أن لمس الدواء والكوب تبدل لونهـما. وبعد ذلك لمس على سـبيل اللعب، إناءً من الزجاج كـان موضوعًا على المنضـدة مع أكواب أخرى فتـغير اللون إلى اللون الأزرق.

كانت أمه تراقبه وهى تتنـاول جرعة الدواء، وعندما تأكدت أن ما تراه ليس سحر عين أو هذيان سألته بلغتها المحلية:

- منذ متى يحدث لك هذا؟

- منذ أن عدنا من الصحراء - قال عليس متحدثاً بلغة الأم - وهذا يحدث لى مع كل ما هو زجاجى.

وحتى يبـرهن على ذلك أخذ يلمس الأكواب الواحـد بعد الآخر، فأخذ كل كوب لوناً مختلفاً.

- هذه الأمور تحـدث فقط من جـراء الحب - قالت الأم - من هى؟

لم يرد عليس، أمـا والده الذى لم يكن يعـرف هذه اللغـة المحلية فكان يمر فى الشرفة وهو يحمل فرعًا به ثمار البرتقال.

- عم تتحدثان؟ - سأل عليسًا بالهولندية.

- مجرد كلام - أجاب عليس.

لم تكن والدة عليس تعرف الهولندية. وعندما دلف زوجها إلى الداخل سألت ابنها باللغة المحلية.

- ماذا قال لك؟

-فقال : لا شىء ذو قيمة.

اختـفى والده داخل المنزل ثم عاد ليراه وهو فى مكتـبه من خلال إحدى النوافذ، انـتظرت الأم حتى تكون بمفردها مع عليس وعندئذ أصرت.

- قل لى من هى؟

- لا يوجد أحد - قال عليس.

أجاب بلا اهتمام ذلك أنه كان يراقب تحركات والده داخل المكتب فرآه يضع البرتقال فوق الخزنة وذلك حتى يقوم بحل الشفرة، وفى الوقت الذى أخذ يراقب فيه والده كانت أمه تراقبه هو.

- منذ زمن طويل وأنت لا تأكل الخبز - لاحظت الأم.

- لا أرغب.

سرعان ما اعتلت وجه الأم حيوية غريبة "هذا كذب - قالت - الموضوع هو أنك تعانى من الحب ومن هم على الجانب الآخر لا يستطيعون تناول الخبز" وتحول صوتها مثل عيناها من ملامح التضرع إلى نغمة التهديد.

- الأجدر بك أن تقول لى من هى - قالت - أو أن أقوم بإعطائك حماماً بالقوة لتطهيرك.

قام الهولندى بفتح الخزانة ووضع البرتقالات فى الداخل ثم عاد لإغلاق الباب المصفح. ابتعد عليس فى هذه اللحظة عن النافذة وقام بالرد على والدته بنغمة غير صبورة.

- لقد قلت لك أن لا أحد هناك - قال - وإذا لم تصدقينى فاسألى والدى.

ظهر الهولندى على باب المكتب وهو يقوم بإشعال الغليون كما كان يحمل الإنجيل الذى تفسخت جلدته تحت إبطه. فسألته المرأة بالأسبانية:

- على من تعرفتم فى الصحراء؟

- لا أحد - أجاب الزوج وهو ذاهل بعض الشىء - وإذا لم تصدقينى فاسألى عليسًا.

جلس آخر المشى وهو يدخن غليونه حتى نفذ ما به من تبغ؛ وبعد ذلك فتح الإنجيل كيفما اتفق وأخذ يقرأ فقرات من مواضع مختلفة على مدار ساعتين، كان يقرأ بالهولندية وبصوت مسموع.

كان عليس - حتى منتصف الليل - لا زال يفكر بتركيز لدرجة أنه لم يستطع النوم، أخذ يتقلب فى سريره المعلق لمدة ساعة محاولاً السيطرة على آلام الذكريات التى أعطته فى النهاية حافز اتخاذ القرار. وعندئذ نهض وارتدى البنطلون الجينز وقميص "كاروهات" اسكتلندى والحذاء المخصص لركوب الخيل، ثم قفز من النافذة وهرب من البيت وقد أخذ معه سيارة النقل الصغيرة المحملة بالعصافير. وعندما مر بحديقة البرتقال قطف البرتقالات الثلاثة الناضجة التى لم يستطع سرقتها فى المساء.

وظل يسير فى الصحراء باقى الليل، وعند شروق الشمس أخذ يسأل فى القرى والعزب عن الاتجاه الذى سلكته إيريينديرا، لكن لا أحد يشفى غليله، وأخيرًا قالوا له إنها تسير خلف فريق الحملة الانتخابية للسناتور أونيسيمو سانشيث وأنها يمكن أن تكون

فى هذه المرحلة فى قشتالة الجديدة، إلا أنه لم يجدها هناك بل كانت فى القرية التالية. لكن إيريndيرا لم تكن مع فريق الحملة ذلك أن الجدة استطاعت أن تجعل السناتور يشهد لها بحسن السير والسلوك من خلال ورقة كتبها بخط يده واستطاعت بهذه الورقة أن تفتح مغاليق الأبواب الموصدة أمامها فى الصحراء. وفى اليوم الثالث التقى برجل البريد الوطنى فساعده على معرفة العنوان الذى يبحث عنه.

-إنهما متجهتان نحو البحر - قال له - وأسرع فى سيرك ذلك أن القحبة العجوز تريد العبور إلى جزيرة "أروبا".

وجد عليس فى الاتجاه الذى سلكه بعد نصف يوم من السفر الخيمة الكبيرة التى قامت الجدة بشرائها من سيرك كان فى طريقه للتفكك. المصور الجوال عاد ليرافقها، وهو هذه المرة على قناعة بأن الدنيا ليست واسعة كما كان يتصور، وعدته مهيأة للعمل بالقرب من الخيمة، كما كانت هناك مجموعة من الموسيقيين من عازفى الآلات النحاسية تخلب لب زبائن إيرينديرا بفالس مهيب.

أخذ عليس دوره للدخول، وأول شىء لفت انتباهه كان النظافة والنظام داخل الخيمة. سرير الجدة قد أصبح على سابق عهده من الفخامة، ووضع تمثال الملاك فى مكانه المناسب بجوار

الصندوق الجنائزى للأماديسيين، كما كان هناك (بانيو) معدنى يقوم على أرجل بهيئة أرجل الأسد. أما إيريديرا فهى مستلقية على سريرها الجديد ذى الظلة، عريانة وهادئة وتشع منها ملامح الطفولة وهى تحت حزمات الضوء النافذة إليها عبر الخيمة. تنام وعيناها مفتوحتان، توقف عليس إلى جوارها وهو يحمل البرتقالات فى يده ولاحظ أنها كانت تنظر نحوه دون أن تراه، وعندئذ مرر يده أمام عينيها ونادى عليها باسم ابتكره ليفكر فيها :

- يا أَرِيدِنيرى.

استيقظت إيريديرا، شعرت أنها عريانة أمام عليس، صاحت صيحة مكتومة وغطت نفسها بالملاءة حتى رأسها.

- لا تنظر إلىّ - قالت - أنا غير مهندمة.

- إنك بلون البرتقال - قال عليس، وقام بوضع الفاكهة على مستوى عينيها لتقوم هى بالمقارنة - انظرى.

كشفت إيريديرا عينيها وتأكدت أن البرتقالات لها نفس لونها.

- الآن لا أريدك أن تبقى - قالت.

- إننى دخلت إلى هنا لأريك هذا - قال عليس - تصورى.

قام بتقشير برتقالة طازجة بأظافره وقسمها بكلتا يديه وبين لإيريندير عما بداخل البرتقالة: ففى داخل البرتقالة كانت هناك ماسة حرة.

- هذه هى البرتقالات التى نأخذها إلى الحدود - قال.

- لكنها برتقالات حية - قالت باستغراب.

- بالطبع - ابتسم عليس - يقوم والدى بزراعتها.

لم تصدق إيريندير ذلك فكشفت عن وجهها وأخذت الماسة بأصابعها وأخذت تتأملها وهى مندهشة. قال عليس:

- بثلاثة من هذه يمكن أن نطوف حول العالم.

أعادت إليه إيريندير الماسة وهى تشعر بقليل من الحماس، أصر عليس.

- أضف إلى ذلك عندى سيارة نقل صغيرة - قال - ثم ... انظرى!

أخرج من تحت القميص مسدساً قديمًا.

- لا يمكن لى أن أغادر المكان قبل عشر سنوات - قالت إيريندير.

- سوف تذهبين - قال عليس - هذه الليلة سوف أنتظرك فى الخارج وعليك انتهاز الفرصة عندما ينام سبع البحر الأبيض،

وسوف تكون كلمة السر هى تقليد صوت البومة. قام بتقليد صوت البومة، ولأول مرة تضحك عينا إيريندير‌ا.

- إنها جدتى.

- البومة؟

- سبع البحر.

ضحكا.. لهذا اللَّبْس لكن إيريندير‌ا استأنفت الحوار.

- لا أحد يستطيع أن يذهب إلى أى مكان دون إذن من جدته.

- لا يجب أن يقال لها شىء.

- هى ستعرف على أى الأحوال - قالت إيريندير‌ا : إنها تحلم بما يحدث.

- عندما تبدأ تحلم بأنك سوف تذهبين، فإننا سنكون على الجانب الآخر من الحدود، وسوف نعبرها مثل المهربين. قال عليس.

أمسك بالمسدس كأنه بطل سينمائى وقلد صوت الطلقات ليقنع إيريندير‌ا بإقدامه. لم تقل نعم أو لا لكن عينيها تنهدتا وودعت عليس بقبلة، كان عليس قد عاش الانفعال، ثم قال مغمغمًا.

- غدًا سوف نرى السفن وهى تمر.

وبعد السابعة بقليل من تلك الليلة كانت إيريندىرا تقوم بتمشيط الجدة عندما عادت رياح تعاستها لتهب من جديد. وفى حماية الخيمة، هناك الهنود الحمالون وكذا مدير الفرقة الموسيقية فى انتظار قبض الأجر، انتهت الجدة من عد النقود فى صندوق قريب منها، وبعد أن اطلعت على دفتر الحسابات قامت بدفع الأجر لكبير مجموعة الهنود.

- ها هو مبلغ عشرون بيزو قيمة عمل الأسبوع يخصم منها ثمانية مقابل الأكل وثلاثة مقابل الشرب، ويخصم منها نصف بيزو لحساب القمصان الجديدة والباقى هو ثمانية بيزو ونصف، قم بعد المبلغ جيداً.

قام كبير الهنود بعد المبلغ وذهبوا جميعًا وهم يؤدون تحية الاحترام.

- شكراً يا بيضاء.

أما التالى فكان مدير الموسيقيين، عادت الجدة لتطلع على دفتر الحسابات وتوجهت إلى المصور الذى كان يحاول لصق الكم القماش الأسود للكاميرا مستخدمًا بعض الصمغ الهندى.

- علام اتفقنا؟ قالت له - هل ستدفع ربع مستحقات الموسيقيين أم لا؟

لم يرفع الموسيقى رأسه ليجيب على سؤالها.

- الموسيقى لا تظهر فى الصور.

لكنها تجعل الناس فى حالة نفسية جيدة للتصوير - قالت الجدة.

- على العكس من ذلك - قال المصور - إنها تذكرهم بالموتى، وبعد ذلك يظهرون فى الصورة وعيونهم مغمضة.

تدخل مدير الفرقة الموسيقية.

- الموسيقى لا تجعل العيون مغمضة - قال - بل إنها فلاشات التصوير ليلاً.

- إنها الموسيقى - أصر المصور.

أنهت الجدة الجدال "لا تكن بخيلاً" - قالت للمصور - تأمل جيداً فى الوضع الممتاز الذى عليه السناتور أونيسمو سانشيث وهذا بفضل مجموعة الموسيقيين المرافقين له. وبعد ذلك قالت بلهجة حادة:

- عليك أن تدفع الجزء الذى يخصك أو أن تذهب بعيداً عنا، وليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة الضعيفة كل النفقات.

- إننى أسير نحو مصيرى بمفردى - قال المصور - فأنا لست إلا فناناً.

هزت الجدة كتفيها وانشغلت مع الموسيقى وسلمته حزمة أوراق مالية طبقًا للرقم المدون فى الدفتر.

- الحساب هو مائتان وأربعة وخمسون ورقة، قالت له - فئة كل واحدة خمسون سنتًا، وأضف إلى ذلك اثنين وثلاثين عن أيام الآحاد وأيام الأعياد بمعدل ستين سنتًا كل واحدة يكون الإجمالى مائة وستة وخمسون بيزو وعشرون سنتاً.

لم يأخذ الموسيقى المبلغ.

- المبلغ المطلوب هو مائة واثنتان وثمانون بيزو وأربعون سنتًا - قال - ذلك أن الفالس أغلى.

- ولماذا؟

- ذلك أنه أكثر حزنًا - قال الموسيقى.

- إذن فعليك أن تعزف لنا هذا الأسبوع مقطوعتين مرحتين مقابل كل فالس أدين لك به. ونسوى الحساب بهذا الشكل.

لم يفهم الموسيقى منطق الجدة لكنه قبل بالحساب هكذا وهو يقوم بفك رزمة الأوراق المالية. وفى هذه اللحظة كانت الرياح العاتية على وشك أن تخلع الخيمة، وبعد أن سكنت سمع فى الخارج الصوت الحزين للبوم.

لم تدر إيرينديرا ماذا تفعل حتى تخفى توترها. قامت بإغلاق صندوق النقود ووضعته تحت السرير، لكن الجدة أدركت

ما بها من خوف من خلال يدها وهى تسلمها المفتاح - لا تخافى - قــالت لها - هــذه الطيور عــادة مــا تكون موجــودة فى ليــالى الزوابع، ومع ذلك لم تبد منهــا بادرة اقتناع وخاصــة عندما رأت المصور وهو يحمل الكاميرا على كتفه ويغادر المكان.

- ابق حتى الصباح إذا ما أردت - قالت له - فالموت طليق السراح فى هذه الليلة.

سمع المصور صوت البومة، لكنه لم يغير من نيته.

- ابق يا بنى - أصرت الجدة - ولو كان هذا بفضل معزتك عندى.

- لكن لن أدفع للموسيقى شيئًا - قال المصور.

- ما عدا هذا - قالت الجدة - إلا هذا.

- أترين؟ - قال المصور - إنك لا تحبين أحداً.

- إذن ابتعد - قالت - يا من ولدت يوم نحس!

كانت تشعر أنها مســتغلة، ولهذا ظلت تصب عليه اللعنات فى الوقت الذى تســاعــدها فــيــه إيريندира على النوم " ابن الأم الملعونة، ما الذى يعرفـه ابن الساقطة هذا عن قلوب الآخرين" لم تهتم إيريندира وذلك لأن صــوت البومة كان ينادى عليــها بإصرار فى اللحظات التى تسكن فــيها الرياح. كــانت تشعــر بالرهبة من

جـراء الحيـرة. الجدة دخـلت السرير سـيـراً على نفس الخطوات المعهودة في المنزل الكبير القـديم. وفى الوقت الذى كانت الحفيدة تقوم فيه بالتهوية عليـها تجاوزت الجدة حالة الحنق والغيظ وعادت تسترد تنفسها الطبيعى.

- عليك بالاستـيقاظ مبكراً - قالت - وذلك حـتى تقومى بغلى مياه الحمام الخاص بى وبه الأعشاب قبل أن يأتى الناس.

- حاضر يا جدتى.

- وفى الوقت الباقى أمامك عليـك بغسل الملابس الداخلية المتسخة الخاصة بالهنود وبذلك نخصم المزيد من حسابهم للأسبوع القادم.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريند يرا.

- ونامى ببطء حتى لا تتـعبى فغداً الخـميس هو أطول يوم فى الأسبوع.

- حاضر يا جدتى.

- وعليك أن تضعى الطعام للنعامة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيريند يرا.

تركت المروحة عند رأس السرير وقامت بإشعال شمعتين من الشموع أمام الصندوق الذى به رفـات الموتى، ولما كانت الجدة قد نامت فقد أصدرت لها هذا الأمر متأخرة.

- لا تنسى إشعال شموع الأماديسيين.

- حاضر يا جدتى.

كانت إيرينديرا تعرف أنها لن تستيقظ، ذلك أنها بدأت تهذى. سمعت عواء الرياح حول الخيمة، لكنها لم تعرف هذه المرة أيضًا زوبعة تعاستها. أخذت تحملق فى الظلام حتى أخذ صوت البومة يتردد من جديد، وأخيراً تغلب حبها للحرية على الأسر السحرى لجدتها.

لم تكد تسير خمس خطوات خارج الخيمة حتى وجدت المصور الذى يحزم حاجياته على الشبكة الخلفية للدراجة. كانت ابتسامته الماكرة مثاراً لتهدئتها.

- أنا لا أعرف شيئًا - قال المصور - وأنا لم أر شيئاً ولن أدفع للموسيقيين شيئاً.

ودعها ودعا لها بالبركة بإيماءة معروفة، اتجهت إيرينديرا جريًا نحو الصحراء وقد حزمت أمرها بشكل نهائى. واختفت فى ظلمة الرياح متجهة صوب صوت البومة.

فى هذه المرة لجأت الجدة إلى السلطة المدنية على الفور. وعندئذ قفز قائد الحامية المحلية من على سريره المعلق، فى السادسة صباحًا عندما أظهرت له رسالة التوصية التى وقعها السناتور. كان والد عليس ينتظر على الباب.

- كيف تريدين منى قراءتهـا، اللعنة - صاح القائد - إننى لا أعرف القراءة.

- إنها رسالة توصية من السناتور أونيسمو سانشيث - قالت الجدة.

قام القـائد بسحب بندقـية مـعلقة بالقرب من الـسرير ولم يوجه المزيد مـن الأسئلة، وأخذ يصـيح موجهًـا أوامره لأتبـاعه، وبعد خمس دقائـق كان الجميع على متن شاحنة حربيـة صغيرة، أخذت تنهب الأرض متوجهة إلى الحدود، وكانت الرياح تهب فى الاتجـاه المعـاكس، الأمـر الذى أدى إلى إزالة أى آثار للهـاربين. القـائد يجلس فى المقـعد الأمـامى إلى جوار الســائق وخلفـهمـا الهولندى ومعه الجدة. وفى كل مقعد من مقاعد العربة هناك أحد الجنود المسلحين.

أوقفوا قافلة الشاحنات المغطاة بالقماش العازل، بالقرب من القرية عندئذ قـام عدد من الرجال الذين يسافـرون مختبـئين تحت الأغطية بتصـويب مدافعهم الرشاشة وبنادق القـتال على الشاحنة العسكرية، سأل القائد سائق الشاحنة الأولى عن المكان الذى وجد فيه شاحنة زراعية صغيرة محملة بالعصافير.

استأنف القائد سيره قبل الإجابة.

- لسنا جواسيس على أحد - قال باستياء - إننا مهربون.

رأى القـائد المدافع والدخـان يخرج من فـوهاتهـا وهى تمر بالقرب من أمام عينيه فرفع ذراعيه وابتسم.

- عليكم أن تسـتحـوا بعض الشيء - صـاح فيـهم - ولا تسيروا هكذا فى وضح النهار.

كانت الشاحنة الأخيرة تحمل لافتة علقت على الجزء الخلفى تقول : "أفكر فيك يا إيريNديرا" . الرياح تزداد قوتها كلما تقدموا نحو الشمال، وأخـذت حرارة الشمس ترتفع ووصل الأمر إلى أن أصـبح من العسـير التنفس بـسبب الحـر والتراب داخل الشـاحنة المغلقة.

كـانت الجدة هى أول من لمح المصـور: كان يغـالب الرياح فهو يأخذ الاتجاه الذى هم فيـه، ولم يكن معه أى وسيلة للحماية إلا منديلاً ربطه على رأسه.

- ها هو هناك - أشارت إليـه - إنه متواطئ معـهما، هذا الذى ولد يوم شؤم.

أمر القائد واحداً من أتباعه بأن يتولى أمر المصور.

- أمسك به وانتظر فى هذا المكان - قال - سوف نعود.

قفـز الجندى من مكانه ونادى على المصور مرتين ليـتوقف. لم يسـمعـه المصور نظراً لأن الـرياح كانت تهب فى اتجـاه عكس

الصوت، وعندما مرت به الشاحنة لوحت له الجدة بإشارة فيها ألغاز، إلا أنه فسرها على أنها تحية، فابتسم ولوح لها بيده مودعاً، لم يسمع الطلقة، طار فى الهواء وسقط ميتاً على الدراجة وقد تهشم رأسه برصاصة بندقية لم يعرف من أين أتت.

قبل منتصف النهار، بدأوا يلاحظون وجود الريش الذى يطير فى الهواء، كان ريش عصافير جديدة، تعرف عليها الهولندى لأنه يخص عصافيره التى نتفت الرياح ريشها، فقام السائق بتصحيح المسار وداس على بدال البنزين بقوة ليزيد من سرعة السيارة، وقبل أن تنقضى نصف الساعة لمحوا الشاحنة الصغيرة فى الأفق.

ولما رأى عليس ظهور السيارة العسكرية فى مرآة الشاحنة بذل جهده لزيادة فارق المسافة، لكن الموتور كان قد وصل إلى أقصى طاقته. كانا قد رحلا دون نوم وقد استسلما للإرهاق والعطش. كانت إيرينديرا تنام على كتف عليس، فاستيقظت مذعورة. إذ رأت السيارة العسكرية التى أصبحت قام قوسين منهما، وبعزيمة بريئة أخذت المسدس من الشنطة الأمامية فى الكابينة.

– لن يفيد شيئًا – قال عليس – إذ كان يخص فرانسيس دراك.

قامت بالدق عليه عدة مرات ثم ألقت به من النافذة. تقدمت الدورية العسكرية الشاحنة الصغيرة المتهالكة والمحملة بالعصافير التى تنتف الرياح ريشها، ثم قامت الشاحنة العسكرية بالدوران قليلاً لتغلق الطريق أمام الشاحنة الصغيرة.

* * *

تعرفتُ عليها فى هذه الفترة التى كانت تعتبر من أزهى عصورهما رغم أنه لم يكن من المستحب التعرض تفصيليًا لحياتهما إلا بعد ذلك بأعوام طويلة. كان هذا عندما غنى رفائيل إسكالونا أغنية تعرض فيها للنتيجة الرهيبة للدراما، وبدا لى أن من المناسب سرد ذلك. لقد كنت أبيع الموسوعات وكتب الطب فى محافظة "ديو أتشا"، كما أن البارو ثيبيدو ساموديو هو الآخر يطوف بتلك النواحى لبيع ماكينات الجيلاتى المصنوع من البيرة، فأخذنى معه فى الشاحنة التى يقودها وطفت معه بقرى الصحراء، وكان هدفه أن يحدثنى عن شىء ما. وتحدثنا كثيراً عن أمور لا قيمة لها وتناولنا الكثير من البيرة دون أن نعرف المكان والزمان الذى نعبر فيه الصحراء ونصل إلى الحدود، ها هى خيمة الحب المتجولة هناك وقد علقت عليها لافتات تقول: "إيرينديراهى الأفضل" كان الطابور الطويل والمتعرج والذى يضم رجالاً من مختلف السلالات والطبقات يبدو كأنه حية مكونة من فقرات إنسانية، نائمة فى المناطق الخلوية والميادين وبين المحلات المتراصة والأسواق التى

يملؤها ضجيج البشر ثم تخرج من شوارع تلك المدينة الوعرة المليئة بالمهربين الذين حطوا فيها بصفة مؤقتة. كان كل شارع كأنه مكان مفتوح للمغامرة، وكان كل منزل بمثابة (كانتين)، وكل باب ملجأ للمتهربين من التجنيد. كانت أصوات المقطوعات الموسيقية غير المفهومة والنداءات بصوت مرتفع كلها تشكل ضجيجًا مزعجًا وسط الحر المهلك.

بين هذا الجمع مِمّن لا وطن لهم، وهؤلاء الذين يطلبون الرزق أيًا كان مصدره كان "بلاكمان" الطيب، يتكئ على منضدة وهو يطلب حية حقيقية ليجرب على نفسه الترياق الذى اخترعه. كانت هناك المرأة التى تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت والديها، وكانت تقبض من كل من يريد لمسها خمسين سنتًا حتى يتأكدوا أن ليس هناك خدعة. وترد على الأسئلة التى توجه إليها حول سبب شقائها. كان من بين الجمهور أيضًا أحد مبعوثى الحياة الخالدة، وكان يعلن قرب مجىء الوطواط النجمى الطيار وبما ينفثه من كبريت سوف يؤثر على نظام الطبيعة وسوف يجعل أسرار البحار تطفو على السطح.

كان المكان الوحيد الذى يتميز بالهدوء هو حى التسامح الذى يأتى إليه بقايا ضجيج المدينة، هناك نساء قد أتين من مختلف الجهات يتثاءبن وهن جالسات فى صالونات الرقص المهجورة. كن قد نمن القيلولة وهن جالسات دون أن يوقظهن أحد

ليمارس الحب معهن، وظللن ينتظرن الخفاش النجمى تحت المراوح ذات الأجنحة والمعلقة فى السماء المنبسطة. نهضت واحدة منهن فجأة وتوجهت إلى إحدى الطرقات الممتلئة بزهور البنفسج التى تطل على الشارع. كان الراغبون فى لقاء إيريندىرا يمرون هناك.

– لنر – صاحت فيهم – ما هو الذى عند تلك وليس عندنا نحن؟

– إنها رسالة توصية من السناتور – صاح أحدهم.

خرجت نساء أخريات إلى الطرقة وقد شد انتباههن الصياح والضحكات.

– منذ أيام الطفولة وهذا الطابور لا زال هناك – قالت إحداهن – تصورى أن يقوم كل واحد منهم بدفع خمسين بيزو.

– فقالت التى خرجت أولاً مقررة :

– بالنسبة لى سوف أذهب لأرى ما الذى عليه ابنة السبعة أشهر هذه.

– وأنا أيضًا – قالت أخرى – وهذا أفضل من البقاء هنا وتسخين مكان الجلوس مجانًا.

انضم إليهن نساء أخريات وهن فى طريق الذهاب وعندما وصلن إلى خيمة إيريندىرا كن قد كوّنَ فرقة مليئة بالجلبة ودخلن

عليها دون إذن. وأفزعن بضرباتهن الرجل الذى وجدنه وهو يقوم بالتمتع بأفضل شيء يمكن أن يجلبه له المال الذى دفعه، وأمسكن بسرير إيرينديرا وخرجن به كأنه محفة إلى الشارع.

- إن هذا عدوان - كانت الجدة تصيح - أيتها القافلة غير الأمينة يا لكن من هجامات.

ثم توجهت إلى الرجال الذبين كانوا فى الطابور - وأنتم أيها الذكور، أين هى رجولتكم التى سمحت بهذا العدوان على مخلوقة ضعيفة - إنكم مخنثون.

ظلت تصيح بأقصى ما يصل إليه صوتها وتقوم بتوجيه ضربات بهراوتها لهؤلاء الذين هم بالقرب منها، لكن غضبها تاه وسط صيحات الجمهور واستهزائه.

لم تستطع إيريندير الفرار من هذه المهزلة والسخرية ذلك أن جدتها كانت تربطها بسلسلة كلب فى أحد أجناب السرير منذ محاولة الفرار. لكن لم يمسسها أحد. لقد طافوا بها وهى على سريرها المغطى بالناموسية فى الشوارع المزدحمة وكأنهم يطوفون رمزيًا بالتائبة المقيدة بالسلاسل ثم يضعونها فى النهاية فى غرفة للحريق وسط الميدان الكبير. كانت إيريندير منكفئة على نفسها وتغطى وجهها لكن دون أن تبكى، وهكذا ظلت تحت وطأة حرارة الشمس وهى تعض - خجلاً وغيظًا- سلسلة الكلب التى

تمثل مصيرها المؤلم حتى جاء أحد الناس وترفق بها ووضع قميصًا عليها.

كانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيتهما فيها، لكنى عرفت بعد ذلك أنها بقيت فى هذه المدينة المطلة على الحدود تحت حماية السلطات المحلية حتى أنفقت الجدة كل ما لديها من أموال وعندئذ تركتا الصحراء واتجهتا صوب البحر. كان من النادر أن يرى وفرة هائلة من ممالك الفقراء. كان الأمر عبارة عن طابور طويل من العربات التى تجرها الثيران حيث وضع فوقها نسخ مقلدة وغير جيدة من الأشياء التى لم تنج من الكارثة التى حلت بالمنزل الكبير. ولم يقتصر الأمر على التماثيل النصفية الإمبراطورية والساعات الغربية بل أيضًا كان هناك بيانو، وكذلك ماكينة ذات مقبض ومعها اسطوانات الزمن الذى مضى. تولت قافلة من الهنود عملية الحمل كما تولت فرقة موسيقية الإعلان عن وصولها المظفر إلى القرى.

كانت الجدة تسافر وهى موضوعة على محفة مزينة بزهور ورقية وهى تقوم بمضغ الحبوب التى تستخرجها من كيسها وتحميها من الشمس مظلة كنسية. كان حجمها الضخم قد زاد وذلك لأنها كانت تضع تحت البلوزة صديرى من قماش قلوع المراكب تحفظ فيه سبائك الذهب كأنها طلقات مرصوصة فى حزام لحمل الذخيرة. كانت إيريندرا إلى جوارها ترتدى لباسًا زاهى الألوان

ومعلقة حولها شرائط الزينة، لكن لا زالت سلسلة الكلب مربوطة في خلخال رجلها.

- ليس من حقك الشكوى - قالت لهـا الجدة عند الخروج من المدينة الحدودية - فعندك ثياب كأنك الملكة وسرير فاخر وفرقة موسيقية خاصة وأربعة عشر هنديًا فى خدمتك، ألا يبدو لك هذا رائعًا؟

- بلى يا جدتى.

- وفى اليوم الذى أقضى نحبى فيه - واصلت الجدة - فلن تكونى تحت رحمة الرجال فـسوف يكون لك مسكنك الخاص فى مدينة هامة، سوف تكونى حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة وغير متوقعة للمستقبل، إلا أنها لم تعد تتـحدث عن الدين القـديم الذى تتعـقد تفـاصيله وتـزداد قيـمة أقسـاطه، كما تـعرضت التجـارة لبعض العـثرات، ومع ذلك لم تتنهد إيريـنديرا بشكل يعكس ما تفكر فـيه. لقد أذعنت صـاغرة لعذاب السـرير وسط الملاحات ووسط سـبات القـرى المطلة على البـحيرات وعلـى السرير النقـال المصنوع من القمـاش فى مناجم التلك، بينما تقوم الجدة بتعداد ملامح رؤيتهـا المستقبلية كأنها تقرأ الطالع من خلال أوراق الكوتشينة. وذات مـساء، بعد الخروج من شعب ضيق، تنسما رياحًا تحمل أكاليل الغار القديمة وسمعا جلبة

تشبه الحوار الذى يدور فى جامايكا وشـعرتا بشغف بالحياة وبعقدة فى القلب. ها هما قد وصلتا إلى البحر.

- ها هو أمامك - قالت الجدة وهى تتنفس الضوء الشفاف للكاريبى بعد أن قضينا نصف الحياة فى المنفى - ألا يطيب لك؟

- بلى يا جدتى.

قاموا بنصب الخيمة، قـضت الجدة ليلتها وهى تتحدث دون أن تحلم وأحيانًا تخلط ذكرياتهـا بشفافية رؤيتها المسـتقبلية ونامت على غير العادة ثم استيـقظت وقد هدأت بصور البحر، ومع ذلك فعندما كانت إيريندىرا تقوم بمساعدتها فى حـمامها عادت لتتحدث عن تصوراتها للمستقبل، وكـان حديثًا شغوفًا لدرجة أنه بدا وكأنه هذيان السهاد والأرق.

- ستكونين مالكة عظيمة الشأن - قالت لها- وسيدة عريقة النسب، ويحـرمك من تحـمينهن، وسـوف تحظين بتـقدير وكـرم الكبار فى السلطة - وسـوف يقوم قباطنة السـفن بإرسال "كروت بوستال" لك من كل موانئ العالم.

لم تكن إيريندىرا تسـمعـهـا، كانت الميـاه الدافئـة والمعطرة بالأعشاب تنساب فى البانيو عـبر قناة تتغذى من الخارج، وكانت إيريندىرا تأخذ المياه بكوب من ثمرة التوتوم دون أن تتنفس وتصب الماء على الجدة بيد وتقوم بتصبيبنها باليد الأخرى.

- وسوف تطوف سمعة منزلك بكل مكان ابتداء من الكاريبى حتى ممالك هولندا - كانت تقول الجدة - وسوف يكون أكثر أهمية من منزل الرئاسة ذلك أنه فى هذا البيت سوف تتم مناقشة الشئون الحكومية وسوف يتم تحديد مصير الأمة.

وفجأة انقطعت المياه الآتية من الخارج فخرجت إيريندیرا من الخيمة لتستطلع الأمر، فوجدت أن الهندى المكلف بصب المياه فى المزراب كان يقوم بتقطيع الأخشاب فى المطبخ.

- لقد انتهت المياه، ويجب تبريد المزيد منها.

توجهت إيريندیرا إلى الفرن حيث كانت هناك حلة أخرى كبيرة الحجم وبها الأوراق المعطرة بعد غليها، فغطت يديها بخرقة من القماش وتأكدت من إمكانية رفع الحلة دون مساعدة الهندى.

- اذهب أنت - قالت له - سوف أقوم أنا بصب الماء.

انتظرت حتى خرج الهندى من المطبخ وعندئذ دفعت الحلة وهى تغلى من على النار وكلفها ذلك الكثير من الجهد حتى وصلت إلى المكان الذى تصب فيه المياه، وعندما تهيأت لصب المياه المغلية فى المجرى المؤدى إلى البانيو صاحت جدتها من داخل الخيمة.

- يا إيريندیرا

صاحت وكأنها تراها، فزعت الحفيدة من الصيحة وندمت على فعلتها فى الحال.

- أنا قادمة يا جدتى - قالت - إننى أقوم بتبديد المزيد من المياه.

فى هذه الليلة ظلت تفكر حتى ساعة متأخرة من الليل، بينما تغنى الجدة وهى نائمة مرتدية الصديرى المحشو بالذهب، تأملتها إيرينديرا وهى فى سريرها بعينين نفاذتين كأنهما عينا قط فى الظلام، ثم قامت كأنها غريق بوضع يدها على صدرها وعيناها مفتوحتين ثم نادت بأعلى صوت.

- يا عليس.

استيقظ عليس فجأة وهو فى المنزل المحيطة به حديقة البرتقال. كان قد سمع صوت إيرينديرا بوضوح شديد لدرجة أنه بحث عنها فى ظلمة الحجرة. وبعد هنيهة من التأمل قام بلف ملابسه وأخذ حذائه ثم غادر غرفة النوم، كان قد عبر الشرفة عندما فاجأه صوت والده.

- إلى أين أنت ذاهب؟

رآه عليس وكأنه معرض لضوء أزرق تحت ضوء القمر.

- إلى هذه الدنيا - أجاب.

- أنا لن أمنعك هذه المرة - قال الهـولندى - لكنى أحذرك من شىء: سوف تحل عليك لعنتى فى أى مكان تذهب إليه. فقال عليس:

- ليكن هذا.

شعـر الأب بمفاجأة فى رد ابنه، وشـعر بشىء من الفـخار لعزيمته وتصميمه فتابعه وهو يسير فى حديقة البرتقال التى يغمرها ضوء القمر بنظرة أخذت تنفرج أساريرها شيئًا فشيئًا. كانت امرأته خلفه جمـيلة كعادة بنات جلدتهـا من الهنديات، تكلم الهولندى عندما أغلق عليس الباب الكبير.

- سوف يعود - قـال - وقد علمته الحـياة، وسوف تكون عودته أسرع مما تتصورين.

- إنك شديد الفظاظة - تنهدت - لن يعود أبدًا.

لـم يسـأل عليس هذه المرة عن الوجـهة التـى ذهبت إليهـا إيريندبرا فعـبر الصحـراء وهو يختـبئ فى شاحنات مرت عـرضًا وأخذ يسرق ليأكـل وينام، وكثيرًا ما سرق لمتعـة المخاطرة - حتى وجد الخـيمة فى قـرية أخرى من القرى المطلة على البـحر، ومن هناك كانت ترى المبـانى الزجاجيـة الفخمـة لمدينة تملؤها الأضواء حيث تسمع أصوات التحية الليلية التى تصدرها السفن المبحرة إلى جـزيرة "أروبا". كـانت إيريـنديرا تنام وهى مـربوطة بالـسلسلة

وتأخذ فى رقدتهـا وضع الغريق الذى يطفو على السطح تتـقاذفه الأمواج، وهو نفس الـوضع الذى كانت عليه عنـدما نادته. ظل عليس يتأملهـا لمدة طويلة دون إيقاظهـا لكنه تأملها بتمـعن شديد حتى استيقظت. وعندئذ تـبادلا القبلات فى الظلام وأخذ يداعب أحدهمـا الآخر دون عجلة من الأمر. وأخـذا يخلعان ملابسهـما رويدًا رويدًا ويعيشان الحنان الصامت والسـعادة البريئة لدرجة كانا معها يشبهان الحب نفسه أكثر من أى وقت مضى.

فى الطرف الآخـر من الخـيمـة تقلبت الجـدة وهى نائمـة وأخذت تهذى.

- كان ذلك فى الأيام التى وصلت فـيه السفينة اليـونانية - قال - كان طاقمًـا مجنونًا يجعل النساء سعـيدات، ومقابل الحب هو قطع الإسفنج وليس المال. كـانت قطعا إسفنجية حـية أخذت تسير بعد ذلك وحدها فى أرجاء المنازل وهى تئن مثل المرضى فى المستشفيات وتدفع الأطفال للبكاء حتى تشرب دموعهم.

بعد ذلـك تحركت كأن هـناك دافع داخلى ثم جلست على السرير.

- كان ذلـك عندما وصل هو - يا إلهى - صـاحت - إنه أكثر قوة وضخامة وأكثر رجولة من أماديس.

أما عليس الذى لم يبد اهتمامًـا بهذيانها حتى تلك اللحظة فقد حاول الاخـتباء عندما رأى الجدة جالسـة فى السرير. فهدأت إيريندرا من روعه.

- اهدأ - قـالت له- إنها عنـدما تصل إلى هذا الجـزء من الحلم تجلس فى السرير لكنها لا تستيقظ.

نام عليس على جانبه.

- أنا كنت أغنى فى تلك الليلة مع البحارة وفكرت أن ذلك ربما كان هزة أرضية.

- استـمرت الجـدة - وظن كل الناس هذا الأمر ذلك أنـهم فروا وهم يصيحون، وقد ملكت الضحكات لُبهم. لكن لم يبق إلا هو تحت سقف. إننى أتذكره كأنه بالأمس وكنت أنا أغنى الأغنية التى كان جميع الناس يرددونها فى ذلـك الزمان بما فى ذلك الببغاوات فى أفنية المنازل.

ولما كـان من الممكن الغناء فقط فى الأحـلام، فإنهـا غنت سطور مرارتها:

سيدى، سيدى، أعد إلىّ براءتى القديمة

حتى أتمتع بحبك مرة أخرى من البداية

فى هذه اللـحظة أخـذ عليـس يصـغى لذكـريات الجـدة وحنينها.

- ها هو هناك - كانت تقول - وهو يحمل ببغاءً على كتفه وبندقية من الطراز القديم لقتل آكلى لحوم البـشر، كان مجيئه مثل

مـجيئ "غـواترال" إلى "لاس غواياناس" أمـا أنا فقـد شعـرت برائحة المـوت فيه عندمـا وقف أمامى ورأيت كل النـساء من كل الأمم، وبذلك لا يمكن أن أقول لـك من واقع خبرتى أنك أكـثر النساء رفعة وودًا وجمالاً على هذه الأرض.

ثم عـادت لترقـد من جديد وبدأ يصـدر عنها صـوت بكاء ورأسـها على المخـدة - ظل عليس وإيرينديرا فـترة طويلة وهمـا صامـتان غارقـان فى الظلمة بسبب التنـفس غير المنتظم للعـجوز النائمـة. وفجـأة سألت إيريندير بصـوت واضح ونبـرة لا خوف فيها.

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذته المفاجأة، فلم يعرف بماذا يجيب.

- من يدرى - قال - هل تجرؤين أنت؟

- أنا لا أستطيع - قالت إيريندير - ذلك لأنها جدتى.

وعندئذ لاحظ عليس مرة أخرى الجسم الضخم النائم وكأنه يقوم بقياس حجم الحياه فيه ثم قال مقرراً.

- من أجلك يمكننى أن أفعل أى شىء.

* * *

اشترى عليس رطلاً من مبيد لـقتل الفئران وأذابه فى كريمة ومربى الفراولة ثم أفرغ هذه الكريمة القاتلة فى قالب للحلوى كان

قد أخرج منه حشوته الأصلية، وبعد ذلك وضع فوق القالب طبقة سميكة من الكريمة وأخذ يسويها بالمعلقة حتى أضاع كل الآثار المتعلقة بالعملية. وأكمل الخدعة باثنين وسبعين شمعة وردية اللون.

اعتدلت الجدة على العرش وأخذت تلوى الهراوة عندما رأته يدخل الخيمة وهو يحمل قالب الحلوى الخاص بالحفلة.

- أيها الوقح - صاحت - كيف تجرؤ أن تضع قدمك فى هذا المنزل اختبأ عليس خلف وجهه الملائكى.

- أنا هنا من أجل طلب الصفح - قال - يوم عيد ميلادك.

خارت قوى الجدة أمام كذبته الحقيقية فأمرت بإعداد المائدة وكأن الأمر هو عشاء حفلة عرس. وأجلست عليس على اليمين بينما إيريNديرا تقوم بخدمتهما. وبعد إطفاء الشموع بنفخة واحدة قوية قطعت قالب الشيكولاتة إلى قطع متماثلة وقدمت قطعة منها لعليس.

- إن الرجل الذى يستطيع أن يجعل الآخرين يسامحوه له نصف الجنة - قالت - أقدم لك أول قطعة فهى للسعادة.

- أنا لا أحب الحلويات - قال - بالهناء والشفاء لك.

قدمت الجدة قطعة أخرى لإيريNديرا فأخذتها إلى المطبخ وقذفت بها فى صندوق الزبالة.

أكلت الجدة باقى قالب الحلوى وحدها، فكانت تضع القطع بكاملها فى فمها وتبلعها بدون مضغ وهى تتلذذ بالطعام وتنظر إلى عليس من علوية المتعة، وعندما لم يتبق شىء فى الطبق الخاص بها أخذت القطعة التى رفض عليس تناولها. وبينما تقوم بمضغ آخر قطعة كانت تأخذ البقايا والفتافيت بأصابعها وتضعها فى فمها.

كانت قد أكلت زرنيخًا يكفى لإبادة جيل كامل من الفئران، ومع ذلك بدأت تعزف على البيانو وأخذت تغنى حتى منتصف الليل ثم نامت سعيدة وعاشت الحلم المعتاد. أما الشىء الجديد فقد كان بعض الحشرجة فى التنفس.

كانت إيريندرا وعليس يراقبانها وهما فى السرير الآخر وكانا ينتظران آخر أنفاسها، لكن الصوت ظل حيًا كعادته عندما بدأت تهذى.

- لقد أطار صوابى، يا إلهى لقد أطار صوابى - صاحت - كنت أضع نبوتين غليظين خلف باب غرفة النوم حتى لا يستطيع الدخول، كما وضعت التسريحة والمنضدة أيضًا خلف الباب وفوقها الكراسى، لكن ضربة واحدة بخاتمه كانت كافية للإطاحة بكل هذا، فقد نزلت الكراسى وحدها من فوق المنضدة، أما المنضدة والتسريحة فقد ابتعدتا، وكذلك خرج النبوتان من بين الفتحات.

كـانت إيريندي‍را وعليس يتـأملانهـا وقد أخـذت علامـات الاستـغراب تزداد رويدًا رويدًا توافقاً مـع عمق الهذيان ودراميـته وتحول إيقاع الصوت إلى إيقاع حميم.

- كنت أشـعر أننى سـأموت وأنا غـارقة فى عـرق الخوف وأتضرع وأنا فى الـداخل أن يفتح الباب دون فـتح وأن يدخل هو دون دخول وألا يذهب أبدًا لـكن ألا يعود مطلقًا حـتى لا أضطر لقتله.

ظلت تجسـد الدراما الخـاصة بهـا لعدة سـاعات، وصلت خلالها إلى سـرد أدق التفاصيل كأنها عـادت لتعيش نفس الموقف فى الحلم، لكنهـا قبل شـروق الشمس تقلبت فى الـسرير لتـأخذ وضعـًا مريحًا فكانت حركـتها كأنهـا هزة أرضية وتهدج صـوتها إيذانًا بوشوك بكائها.

- لقد حـذرته، وضحك منـى - كانت تصـيح - وعدت للتحذيـر وعاد للضحك حتى فـتح عينيه المفزوعـتين وقال: آه يا ملكة آه يا ملكة، لكن الصـوت لم يكن يخرج من فـمه، بل كان يخرج من ضربة السكين التى فى حنجرته.

شعـر عليس بالرعب لهـذا الاستـدعاء الرهيب للذكـريات الذى تقوم به الجدة فأمسك بيد إيريندي‍را.

- أيها العجوز القاتلة صاح متعجبًا.

لم تولى إيرينديرا أى اهتمام ذلك أنه فى هذه اللحظة أخذت خيوط الفجر تظهر ودقت الساعة الخامسة فى مختلف الساعات.

- اذهب قالت إيريندير - سوف تستيقظ.

- إنها حية ومليئة بالحياة كالفيل - تعجب عليس - هذا مستحيل

حدجته إيريندير بنظرة قاتلة

- الموضوع - قالت - هو أنك لا تجدى فى محاولة قتل أى إنسان.

تأثر عليس كثيراً بقسوة التأنيب وخرج هارباً من الخيمة، استمرت إيريندير فى مراقبتها للجدة النائمة وهى تكن لها الكراهية الخفية وتشعر بالغيظ من الإحباط كلما زادت خيوط نور الصباح وازدادت شقشقة العصافير ثم رمقتها بابتسامة راضية.

- حفظك الله يا ابنتى.

والتغيير الوحيد الذى لوحظ هو عدم الانتظام فى الخطوات اليومية المعتادة. كان يوم أربعاء إلا أن الجدة أرادت أن ترتدى لباس الأحد وقررت ألا تستقبل إيريندير أى زبائن قبل الحادية عشرة وطلبت منها أن تطلى لها أظافرها بلون أحمر قانى وأن تقوم بتصفيف شعرها على طريقة الأحبار والأساقفة.

- لم أعش قبل ذلك مثل هذه الرغبة فى التقاط صورة لى - قالت متعجبة.

بدأت إيريnديرا فى تصفيف شعر الجدة لكنها عندما وضعت على رأسها المشط ذا الأسنان الواسعة وجدت بينها خصلة من الشعر، وقامت مفزوعة بإظهارها للجدة التى قامت بفحصها وحاولت أن تنتزع خصلة أخرى بأصابعها، وبقيت خصلة طويلة من الشعر فى يدها فألقت بها على الأرض، ثم عادت لتجرب مرة أخرى منتزعة خصلة أكبر بكلتا يديها وهى تكاد تموت ضحكًا وتقوم بإلقاء الشعر فى الهواء بفرحة وسعادة غير مفهومة حتى أصبحت رأسها كأنها ثمرة جوز مقشرة.

لم تعرف إيريnديرا أى شىء عن عليس إلا بعد أسبوعين عندما سمعت صوت البوم خارج الخيمة، كانت الجدة قد بدأت تعزف على البيانو وكانت مستغرقة فى ذكرياتها لدرجة أنها لم تكن تعى ماحولها حولها. وتضع على رأسها باروكة من الريش ذى الألوان الزاهية.

لبّت إيريnديرا النداء، وعندئذ لاحظت الفتيل الذى يخرج من صندوق البيانو ويمتد عبر الأعشاب والحشائش ويتوه فى الظلام، جرت إلى حيث عليس واختبأت إلى جواره بين الشجيرات ورأى كلاهما وهما، يضغطان على القلب، ذلك

اللهب الأزرق الذى ذهب عبر الفتيل ماراً بالمنطقة المظلمة ودخل إلى الخيمة. ثم قال عليس :

- ضعى يديك على أذنيك.

فعل كلاهما ذلك ولكن دون حاجة، فلم يقع أى انفجار، أضيئت الخيمة من الداخل من جراء اشتعال سريع انفجر صامتًا ثم اختفى فى شكل عمود دخان لبارود مبلل. وعندما جرؤت إيريNديرا على الدخول معتقدة أن الجدة قد ماتت وجدتها وقد تفسخت باروكتها وأصبحت البلوزة مهلهلة لكنها أكثر حيوية من أى وقت مضى إذ كانت تعمل على إخماد النيران باستخدام بطانية.

هرب عليس مستغلاً صيحات الهنود الذين أصابتهم الحيرة، ولا يدرون ماذا يفعلون، وذلك من جراء الأوامر المتناقضة التى كانت تصدرها الجدة. وعندما استطاعوا السيطرة على اللهب وتهوية الخيمة من الدخان كان الوضع يشبه عملية غرق سفينة.

- يبدو أنها من فعل ذلك الملعون - قالت الجدة - فالبيانو لا ينفجر بمحض الصدفة.

حاولت طرح كل الاحتمالات التى أدت إلى هذه الكارثة الجديدة' لكن تهرّب إيريNديرا وموقفها غير الواضح جعل الأمور غير جلية فى نظر الجدة، لم تجد أى مسلك مريب فى تصرفات

الحفيـدة ولـم تتذكر وجود عليس. وظلت مـستيقظة حـتى الفجر وهى تطرح الافتراضات وتقوم بحساب الخسارة - نامت سويعات بشكل متقطع - وفى صباح اليوم التالى قامت إيريندىرا بمساعدتها فى خلع الصديرى الذى بـه أسياخ الذهب. وجـدت بقابيق على كتفيـها من جراء الحريق، كما وجدت صـدرها وقد احترق الجلد وظهـر اللحم "هذا هو السـبب الذى جعلـنى لا أنام مرتاحـة - قالت هذه العبارة فى الوقت الذى تقـوم فيه إيريندىرا بوضع بياض البيض على الحـروق - كما أننى حلمت حلمًا غـريبًا". حاولت التركيز لاسـترجاع الحلم واستطاعت استحضار ذلك فى مـخيلتها مثلما تفعل أثناء أحلامها. قالت:

- الحلم هو وجود طاووس على سرير أبيض.

شـعرت إيريندىرا بالمـفاجـأة، لكنهـا استـعادت فى الحـال التعبيرات المعتادة على وجهها.

- إنها بشرى طيبـة - كذبت - الطواويس فى الأحلام هى حيوانات تعبر عن طول العمر.

- ليسمع الله منه - قالت الجدة - لأننا عدنا من جديد من نقطة الصفر. عليك البدء من جديد.

لم يبدُ على إيريندىرا أى تـأثر، فخرجت من الخيـمة وهى تحمل الـضمادات فى طبـق كبيـر وتركت الجدة وصـدرها ملطخ

ببياض البيض، أما رأسها فكانت مغطاة بالخردل، كانت تضع المزيد من بياض البيض فى الطبق، تحت الظلة المصنوعة من سعف النخيل والتى كان الفراغ الذى تحتها يستخدم كمطبخ. وفى هذه اللحظة ظهرت عيون عليس خلف الستائر وهى تنظر إليها مثل أول مرة من خلف سريرها. لم تفاجأ بل قالت له بصوت متعب.

- الشىء الوحيد الذى فعلته هو أنك أسهمت فى زيادة ما علىّ من ديون.

ظهرت اللهفة والشغف فى عيون عليس وظل جامداً بلا حراك ينظر فى صمت لإيريnديرا ويراها وهى تقوم بتكسير البيض بإيقاع يشير إلى الاحتقار الكامل وكأنه غير موجود. بعد هنيهة تحركت العيون وأخذت تطوف فى أرجاء المطبخ من الحلل والمطبقيات الخشبية والأطباق وسكين لتقطيع الذبائح. نهض عليس دون أن ينطق بشىء كما هى عادته ودخل تحت الظلة وأخذ السكين.

لم تنظر إليه إيريnديرا لكنها قالت له بصوت خفيض وهو يخرج من تحت الظلة:

- خذ حذرك فقد جاء لها نذير الموت، إذ حلمت بطاووس يقف على سرير أبيض.

رأت الجدة عليس يدخل ومعه السكين، فبذلت كل جهدها لتنهض دون الاعتماد على العصا ورفعت ذراعيها، وصاحت:

- هل جننت أيها الفتى؟

قفز عليس فـوقها وطعنها طعنة قـوية فى صدرها العريان، فصدر عن الجدة أنين وألقت بنفسها فوقه وحاولت خنقه بذراعيها الغليظتين اللذين تشبهان قوائم الدب.

- يا ابن الساقطة - أخذت تصيح - لقـد تأخرت كثيراً فى اكتشاف أن لك وجه ملاك خائن.

لم تستطع الجدة أن تنطق بـأكثـر من هذا، ذلك أن عليس استطاع أن يحرر يده التى تحمل السكين وعاجلها بطعنة أخرى فى الضلوع، فصدر عـنها أنين أشد فظاعة، وأمسكت بـالمعتدى بمزيد من القوة، فـعاجلها عليس بضربة لا رحـمة فيهـا فكان أن خرج الدم منها باندفاع شديد تطايرت بقع منه على وجهه: كان دمًا كأنه الزيت لامعاً وأخضر اللون وكأنه عسل النعناع.

ظهـرت إيرينديرا فى المدخل وهـى تحمل الـطبق فى يدها، ولاحظت صراعاً تخيم عـليه جرأة إجرامية. كانت الجـدة ضخمة تئن من الألم والغـيظ، فأحكمت يدها على جـسم عليس. غطى الدم الأخضر ذراعيها وأوراكها ورأسها الحليق. كانت تتنفس فتبدو كأنها الكبر، وبين كل نفس وآخـر تظهر أول بوادر الحشرجة، كل ذلك كان يخـيم على الجو. استطاع عليس أن يفك قـيد يده التى تمسك بالسكين مـرة أخرى وقام بشـق بطنها فكان أن تفـجر الدم

وغطاه باللون الأخـضر حتى أخـمص قدميـه، بينما الجـدة تحاول استنشـاق الهواء الذى كانت فى حاجـة إليه لتواصل الحيـاة لكنها سقطت على بطنها. خلّص عليس نفسه من اليدين المترهلتين ولم يدخر وقتًا فقام بطعن الجسد الضخم الطعنة الأخيرة.

عندئذ وضـعت إيريندیرا الطبق على منـضدة ومـالت على الجدة وأخذت تتـفحصها جـيدًا دون أن تلمسهـا. وعندما تأكدت أنها ماتت اكـتسى وجهها بملامح إنســان ناضج كأنه لم تمض عليه عشرون سنة من الحظ التعس. وبحركات سريعة ومحدودة أخذت الصديرى الذهبى وخرجت من الخيمة.

ظل عليس جـالسًا إلى جوار الجـثة وقـد أجهـده الصراع، وكلما أخذ ينظف وجهه من هذه المادة الخـضراء الحية كانت تزداد لدرجة بدا أنهـا تفور من أصابعـه. ولم يع جيـدًا لما هو عليه إلا عندمـا رأى إيريندیرا وهـى تخرج مـن الخيـمـة حـاملة مـعـهـا الصديرى.

ناداها صـائحًا لكنه لم يتلق أى إجـابة، أخذ يزحف حـتى مدخل الخيـمة ورأى كيف أن إيريندیرا أخذت تجـرى نحو شاطئ البحر فى اتجـاه معاكس لاتجاه المدينة. وعندئذ بـذل آخر ما عنده من جهد ليلحق بهـا وأخذ ينادى عليها بصيحات تعـبر عن فقدان الأمل، فلم تعـد صـيحـات العـاشق بل صيـحـات الابن. لكن

الإرهاق الرهيب الناجم عن قيامه بقتل امرأة دون مساعدة أحد قد تغلب عليه. فأدركه الهنود الذين كانوا يعملون لحساب الجدة فوجدوه ملقى على الشاطئ ووجهه إلى الأرض وهو يبكى من الخوف والوحدة.

لم تسمعه إيريndيرا، كانت تسابق الريح لدرجة أنها تسبق الأيائل، ولم يكن هناك أى صوت فى العالم قادر على إيقافها، مرت وهى تجرى دون أن تلتفت بالبخار الناجم عن الملاحات ومناجم التلك وبالمساكن القائمة وسط البحيرات حتى انتهى كل ما يتعلق بالبحر، وظلت كذا حتى وصلت إلى الصحراء. لكنها واصلت جريها وهى تحمل الصديرى الذهبى إلى ما وراء الريح الساخنة وأوقات الشفق التى تطول وتطول، ولم يعد أحد يدرى عنها شيئاً، كما لم يعثر على أى أثر، ولو ضئيل لتعاستها.

الصيف السعيد للسيدة / فوريس

(١٩٧٦)

عندما عدنا إلى المنزل فى المساء وجدنا ثعبانًا بحريًا ضخمًا معلقًا من رقبته فى إطار الباب. كان أسود اللون فسفوريًا، بدا لنا أنه تعويذة سحرية للغجر. كانت عيناه مفتوحتين وبهما حياة، أما أسنانه فبدت كأنها منشار صغير على فكين أصابهما الإعياء. كان عمرى آنذاك تسعة أعوام؛ شعرت بخوف شديد أمام هذا الشكل الذى يثير الهذيان لدرجة ذهب معها صوتى. لكن أخى الذى يصغرنى بعامين انتزع أنابيب الأوكسجين والقناع وزعانف العوم وخرج مذعوراً وهو يصيح صيحة فزع. سمعته السيدة/ فُوريس وهى على السلم الحجرى المتعرج الذى يمتد على طول الأرصفة ابتداء من المرسى وحتى المنزل. فأدركتنا وجاءت وهى تلهث وقد علت الزرقة وجهها. وبمجرد أن رأت الثعبان مدقوقًا على الباب، عرفت سبب الرعب الذى نحن فيه. عادة ما كانت تقول بأنه إذا ما كان هناك طفلان مجتمعين فكلاهما مذنبان بما قد يفعله كل واحد منهما على حدة. وعلى ذلك نهرت كلينا بسبب صيحات الفزع التى صدرت عن أخى وظلت تؤنبنا على عدم قدرتنا على السيطرة على أنفسنا. تحدثت إلينا بالألمانية وليس بالإنجليزية، كما كان ينص العقد الذى وقع معها لتعمل كمربية. وربما كان ذلك

لأنها كانت مذعورة هى الأخرى لكنها تقاوم الاعتراف بمشاعرها، لكنها عادت لتتحدث بإنجليزية غير مستقيمة وعادت إلى هوسها التربوى بمجرد أن استعادت شجاعتها.

- إنها سمكة "أبو مرينا" الهيلينية - قالت - هكذا يسمونها فقد كان قدماء الإغريق يقدسونها.

وفجأة ظهر "أوريستى" ذلك الفتى من أبناء المنطقة الذى يعلمنا السباحة فى المياه العميقة.

ظهر بين الشجيرات الخاصة بنبات الكبار. يضع قناع الغوص على جبهته ويرتدى بنطلون مسباحة قصير وحزامًا من الجلد وقد علق به ست نصال مختلفة الأشكال والأحجام ذلك أنه لا توجد لديه طريقة أخرى للصيد تحت الماء إلا الصراع جسدًا لجسد مع الحيوانات البحرية. يبلغ العشرين من العمر، وكان يقضى أغلب وقته تحت الماء لدرجة بدا لنا معها أنه حيوان بحرى ذلك أن جسده كان ملطخًا بالبقع الناجمة عن شحم الموتور. وعندما رأته السيدة/ فُوربِس لأول مرة قالت لوالدى إنه من المستحيل أن يتصور المرء إنسانًا أجمل منه، ومع ذلك لم يشفع له جماله ووسامته من تعرضه للعقاب: فقد كان عليه أن يتعرض لتأنيب وجه إليه باللغة الإيطالية لفعلته بتعليق "أبومرينا" على الباب وليس لديه أى مبرر اللهم إلا إدخال الرعب على الأطفال.

وبعد ذلك أمرت السيدة فوريس أن يرفع الثـعبان البحرى بحرص واحترام، فهو حـيوان أسطورى، ثـم طلبت منا أن نرتدى ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ما أمـرتنا به فى الحال، وحاولنا ألا نرتكب أية أخطاء ذلك أنه بعد أسبـوعين من العيش فى ظل نظام السـيدة/ فُورِيس كنا قد تعلمنا أن أصعب شىء هو أن يحيا المرء. وبينما نأخذ دَشًا فى الحـمـام غـيـر المضـاء لاحظت أن أخى لا زال يـفكر فى "أبومرينا". قال لى: "كانت عيناه تشبه أعين البشر"، كنت على اتفاق مـعه فيمـا يقول لكننى جعلتـه يظن عكس ذلك واستطعت تغيير الموضوع حتى انتـهيت من حمامى. لكن عندما خرجت من تحت الدش طلب منى أن أبقى لأرافقه. فقلت له:

- لم تغرب الشمس بعد.

قمت بفتح الستارة، كـان الوقت خلال شهر أغسطس يرى عبـر النافذة السهل الحـار المقوس فى الجانب الآخـر من الجزيرة، الشمس متوقفة فى السماء.

- ليس لهذا السبب - قال أخى - إننى خائف من الخوف.

ومع ذلك فـعندما جلسنا إلى مـائدة الطعام بدا هادئًـا وقام بفعل كـل شىء بدقة استـحق عليهـا تهنئة خـاصة من السـيدة/ فوريس بالإضافة إلى درجتين أخريين لصالحه خلال هذا الأسبوع.

أما بالنسبة لى فقد خصمت منى درجتين من الدرجات الخمس التى كانت من نصيبى ذلك أننى سارعت فى خطاى فسُمع وقع قدماى، ووصلت إلى المائدة وأنا غير منتظم الأنفاس. وإذا ما حصلنا على خمسين درجة يكون من حقنا قطعتا حلوى لكن كلانا لم يتجاوز الخمس عشرة نقطة. كان الأمر مؤلمًا حقًا ذلك أننا لم نتذوق حلو "البودين" فى مكان آخر أشهى من الذى كانت تعده السيدة/ فوربس.

كان العشاء يبدأ بأن نقف أمام الأطباق الخالية من الطعام لنتلو الصلوات والأدعية. لم تكن السيدة/ فوربس كاثوليكية. لكن العقد المبرم معها كان يفرض عليها أن تجعلنا نصلى ست مرات فى اليوم. كما تعلمت صلواتنا للوفاء بذلك. ثم نجلس ثلاثتنا ونحن نكتم أنفاسنا، بينما تقوم هى يفحص دقيق وشامل لكل تصرفاتنا. وعندما تتأكد من أن كل شىء على ما يرام وبالشكل المطلوب تقرع الجرس الصغير، وعندئذ تدخل "فوليبا فلامينيا" الطباخة وهى تحمل شوربة الشعرية التى عهدناها منذ زمن طويل خلال هذا الصيف الممل.

عندما كنا مع والدينا بمفردنا، كان الطعام مهرجانًا. فكانت فوليبا فلامينيا تقوم بتقديم الأطعمة وهى تُقاقى مثل الدجاج وتقدم الطعام بغير نظام ثابت مما يثير البهجة. ثم تجلس بعد ذلك على المائدة وينتهى بها الأمر أن تأخذ شيئًا من أطباقنا جميعًا. لكن منذ

أن تولت السيدة/ فوربس أمرنا، تقوم فولبيا بتقديم الطعام فى صمت مهيب لدرجة أننا كنا نسمع صوت الشوربة وهى تغلى فى شكل فقاعات داخل السلطانية. كنا نتناول طعام العشاء وظهورنا مستقيمة مستندة على مسندة الكراسى، ونقوم بالمضغ عشر مرات على أحد الأشداق أخرى مثلها على الشدق الآخر دون أن تفارق عيوننا هذه السيدة الصارمة والنحيفة والتى وصلت إلى خريف العمر، إذ كانت تتحدث من خلال ذاكرتها عن دروس المدنية، كانت دروسًا تشبه قداس الأحد لكن ليس بها أى عزاء مثل غناء الناس فى القداس.

فى اليوم الذى وجدنا فيه الثعبان البحرى معلقًا فى الباب تحدثت إلينا السيدة/ فوربس عن الواجبات المقدسة نحو الوطن، بينما فولبيا فلامينيا تكاد تطير وتطفو فى الهواء الذى يملأ الصوت جنباته، وتقوم بتقديم قطعة فيليه - بعد تناول الشوربة - وقد تم شواؤها على الفحم، كانت قطعة لحم بيضاء لها رائحة رائعة. وبالنسبة لى فمنذ تلك اللحظة كنت أفضل السمك على أى طعام آخر من الطيور أو الحيوانات، وكانت هذه الذكرى الخاصة التى أحملها فى منزلنا فى "غواكامايال" بمثابة شىء يثلج صدرى. لكن أخى رفض الطبق دون أن يتذوقه.

- لا أحبه - قال.

قطعت السيدة/ فوربس درسها

- لا يمكن لك أن تعرف ذلك - قالت له - فلم تتذوقه بعد.

وجهت إلى الطباخة نظرة تحذير لكن بعد فوات الأوان.

- إن "أبو مرينا" هو أفضل سمك فى الدنيا يا بنى - قالت له فولبيا فلامينيا - جربه وسترى صدق ما أقول.

لم يطرأ أى تغيير على السيدة/ فوربس. أخذت تقص علينا - بمنهجيتها غير الرحيمة - أن "أبو مرينا" هو طعام الملوك فى العصور القديمة وأن المحاربين كانوا يتصارعون من أجل الحصول على مرارة هذه السمكة ذلك أنها تنفث فيهم شجاعة تفوق الخيال. وبعد ذلك أخذت تكرر علينا كعادتها فى هذه الفترة القصيرة معنا أن المذاق الطيب ليس صفة لازمة، كما أنها لا يتم تعلمها فى أى مرحلة من مراحل العمر، بل يجب فرضها منذ الطفولة. وبالتالى ليس هناك أى مبرر لعدم الإقبال على تناول الطبق. أما أنا الذى كنت قد جربت "أبومرينا" دون أن أعرف ما هو، أصبحت أعيش حالة النقاش: فمن جانب أراه جميل الطعم رغم أنه حزين بعض الشيء لكن صورة الثعبان وهو معلق على طوق الباب كانت أكبر من شهيتى المفتوحة. بذل أخى أقصى جهد له مع أول لقمة من الطبق لكنه لم يستطع تحمله: تقيأ.

- اذهب إلى الحمام - قالت له السيدة/ فوربس حراك - ونظف نفسك جيداً ثم عد لتناول الطعام.

شعـرت بكرب شديد من أجله ذلك أننى كـنت أعرف كم كان يتكلف من الجـهد وهو يعبر وسط أرجـاء المنزل وقد أوشكت الشـمس على المغيب، ثم يبـقى وحيـدًا فى الحمـام طوال الوقت الضرورى لتنظـيف نفسه. لكنه عـاد سريعًا وهـو يرتدى قميـصًا نظيفًـا، كان منتـفخ الوجه ولم تكد رعـشة الخوف قـد زالت عنه بعد، وقاوم الامتحان الخاص بمسألة النظافة جيدًا، وحينئذ أخذت السيـدة/ فوربس قطعة من "أبومـرينا" وأمرت بمواصلة العـشاء. أخذت أنا قطعة ثانية ووضعـتها فى فمى رغم أنفى. أما أخى فلم يمد يده على أى شىء حتى على طاقم الشوك والملاعق.

- لن آكل هذا الطبق - قال.

كان واضحًا فى حزمه، لدرجـة أن السيدة/ فوربس تفادت ذلك.

- حسن - قالت - لكن لن تتناول الحلو.

أدت الراحة التى شـعر بها أخى إلى تشـجيعى، فـوضعت الشوكـة والسكين متعامـدتين فوق الطبق علامة على الانتـهاء من الطعام كما علمتنا السيدة/ فوربس، ثم قلت:

- وأنا أيضًا لن أتناول الحلو.

- ولن تشاهدا التليفزيون - أجابت هى.

- ولن نشاهد التليفزيون - قلت أنا.

وضعت السيدة/ فـوريس الفوطة على المائدة ونهض ثلاثتنا للصــلاة. وبعــد ذلك طلبت منا الذهاب إلى حــجـرة نومنا وهى تحـذرنا أننا يجب أن نخلد للنوم فـى الفتـرة التى تحـتـاجهـا هى للانتــهاء من تناول طعــامها. هكـذا تم محو كل الدرجـات التى حصلنا عليــها. ولن نستطيع التلذذ بتناول حلو الكريمــة أو قالب الفانيليا أو بسكويت البرقوق اللذيذ إلا بعــد حصولنا على عشرين درجة. وهذا الصنف الأخـير من الحلويات لم نعثر على مـثيل له طوال حياتنا.

الوصول إلى هذه القطعية كان مـؤكدًا، لكنها مسألة وقت، فلمدة عام كـامل كنا ننتظر بفارغ الصبر هذا الصــيف الحار الطليق فى جزيـرة "بانتيـلاريا" الواقعة فـى أقصى الجبـهة الجنوبـية من صقلية. وكان صـيفًا طليقًا خلال الشــهر الأول حيث كان والدينا معنا. إننى لازلت أتذكـر، حتى اليوم، فـيما يشـبه الحلم، ذلك السهل المشمس من الصخور البـركانية وذلك البحر الخالد، وذلك المنزل المدهون بالجـير القــوى الألوان حـتى غطى طبقـة الطوب، والذى كنا نرى من نوافـذه أثناء الليل الـساكن الومـيض المتـلألئ للفنارات المطـلة على سـواحل أفـريقـيـا. كنت أقـوم مع والدى بالغوص فى الأعماق الموجودة حول الجزيرة، واكتشفنا سلسلة من الطوربيدات الصفراء التى سقـطت فى العمق منذ الحرب الأخيرة. كنا قد انتشلنا جرة إغـريقية يبلغ طولها متراً تقريبــاً وعليها أكاليل

تقادمت وأصابهـا العطب. كان بداخلها بقايا نبيـذ لا يعرف أحد إلى أى زمن يعود. كان نـبيذًا مُسمـمًا. ثم قمنا بالاستـحمام فى منطقة هادئة تنبـعث منها الأبخرة. كـانت مياههـا ثقيلة يكاد المرء يسير فـوقها. لكن الاكتشـاف الأغرب بالنسبة لنا تمثل فى فـولبيا فلامينيا. كانت تبـدو كأنها أسقف معبد، تسير وحولهـا مجموعة من القطط تضـيق عليها الطـريق الذى تسير فـيه، وتقـول إنها لا تأوى هذه القطط حبـاً منها للحيوانات، لكن حـتى تحول دون أن تأكلهـا الفئـران. وفى المساء عندمـا كان والدينا يشـاهدان برامج تليفزيونية للكبار تأخذنا فولبيا فلامينيا معها إلى المنزل الواقع على بعد أقل من مائة مـتر من منزلنا وتقوم بتعليـمنا كيفيـة تمييز أنواع الأصوات التى تسـمع من بعيـد والأغانى وصوت الريـاح المتقطع القادم من تونس. كان زوجها رجلاً أكثـر شبابًا منها بكثير، وكان يعـمل طوال الصيف فى الفنادق الـسيـاحيـة الكائنة على الطرف الآخر من الجزيرة، يعود إلى المنزل للنوم فقط. أما الفتى أورستى فيعيش مع والده فى مكان أبعد قليلاً، وكان يظهر دائمًا أثناء الليل وهو يحمل حبل سمك وشبكة بهـا الجمبرى الذى انتهى للتو من صيده ثم يعلق كل ذلك فى المطبخ حتى يقوم زوج فـولبيا فلامينيا ببيعه للفنادق فى اليوم التالى. بعد ذلك يضع بطارية الغوص على جبـهته ويأخذنا لنـصطاد الفئران الجبليـة الكبيرة كـأنها الأرانب، كانت تعـيش على فضـلات المطابخ، وأحيانًا كنـا نعود إلى المنزل

بعد أن يكون والدانا قد خلدا للنوم. ولم يكن النوم يداعب جفوننا بسبب الأصوات الناجمة عن معارك تدور بين الفئران فى الأفنية من أجل الفوز بالبقايا. ورغم هذا فقد كان أحد المكونات الغامضة الجميلة فى صيفنا السعيد.

أما قرار التعاقد مع مربية ألمانية فلم يدر إلا بخلد والدى أحد كتاب منطقة الكاريبى، كثير الخيلاء قليل الألمعية. كان رماد المفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله وكان ميالاً للتنكر لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية وفرض على نفسه وهمًا هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه. أما أمى فقد ظلت دائمًا المرأة المتواضعة مثلما كان عليه حالها وهى تمارس وظيفة المعلمة فى أقاصى "غواطيرا" ولم يخطر ببالها أن تطوف بخلد زوجها فكرة إلا وكانت من وحى الإلهام. وبهذا لم يسأل كل منهما نفسه ويحكم قلبه حول نمط المعيشة التى سنعيشها مع "مساعدة عسكرية" من دورموند، تبذل ما فى وسعها لتعلمنا بالقوة العادات المهجورة عن المجتمع الأوروبى بينما يقوم والدينا مع أربعين مؤلفًا من مؤلفى العصر بالتنزه على ظهر عبارة ثقافية لمدة خمسة أسابيع بين جزر بحر إيجه.

وصلت السيدة/ فوربس فى السبت الأيخر من شهر يوليو على متن مركب صغير وعادى قادمة من باليرمو، ومنذ أن رأيناها لأول مرة شعرنا بأن البهجة قد ولت عنا. جاءت وهى تلبس

حذاء برقبة يشبه أحذية الميليشيات وترتدى فستانًا ياقته كبيرة ومتعانقة وسط هذا الحر. أما شعرها فقد كان قصيراً كأنه شعر رجل يضع قبعة من اللباد. كانت رائحتها تشبه رائحة بول الرجال " كل الأوروبيين رائحتهم هكذا وخاصة فى الصيف" قال لنا والدى. "إنها رائحة الحضارة". لكن خلافًا لمظهرها العسكرى فالسيدة فوربس كانت مخلوقًا نحيف الجسد ربما كان يثير شفقتنا إذا ما كنا كباراً فى السن أو كان عندها بقايا حنان. أصبحت الدنيا غير الدنيا. فالساعات الست التى كنا نقضيها فى البحر والتى كانت منذ بداية الصيف ممارسة دائمة للخيال أصبحت ساعة واحدة لا تبديل فيها كأنها الرتابة نفسها. عندما كنا برفقة والدينا نتمتع بكل ما نريد من وقت لنسبح مع أورستى وقد شعرنا بالدهشة أمام الفن والجرأة التى يواجه بها الأخطبوط البحرى وهو فى مكمنه وقد اعتلته الأحبار والدم وليس فى يده إلا سكاكين المصارعة التى يحملها. وبعد ذلك ظل يأتى فى الحادية عشرة وهو على متن اللنش الصغير، كما كان يفعل دائمًا. لكن السيدة/ فوربس لم تكن تسمح له أن يمكث معنا، أكثر من الوقت المحدد لحصة الغوص ولو لدقيقة واحدة. منعتنا من الذهاب ليلاً إلى منزل فولبيا فلامينيا ذ لك أنها تعتبر ذلك وداً زائداً عن الحد مع العامة. واضطررنا أن نخصص الوقت المتبقى من صيد الفئران فى قراءة تحليلية لأعمال شكسبير. ولما كنا قد تعودنا سرقة ثمار المانجو

ومطاردة الكلاب حتى قتلها بالحجارة فى الشوارع الحارة لغواكامايال كان من المستحيل علينا تصور شىء أكثر فظاعة من حياة الأمراء هذه.

لكن سرعان ما أدركنا أن السيدة/ فوربس لم تكن صارمة مع نفسها مثلها هو الحال معنا. وذلك أول شرخ فى سلطاتها. كانت - فى البداية - تظل على الشاطئ تحت الشمسية الملونة وهى ترتدى ملابس البحر وتقرأ قصائد لشيلر بينما يقوم أورستى بتعليمنا الغوص، وبعد ذلك تقوم بإعطائنا دروسًا نظرية حول السلوك الاجتماعى ويمتد الدرس ساعات وساعات حتى يحين وقت الغذاء.

طلبت ذات يوم من أوريستى أن يحملها فى اللنش إلى المحلات السياحية التابعة للفنادق ثم عادت وقد اشترت لباس بحر من قطعة واحدة لونه أسود متموج كأنه جلد سبع البحر، لكنها لم تنزل البحر أبدًا، إذ كانت تأخذ حمامات شمسية على الشاطئ بينما نقوم نحن بالعوم. ثم تقوم بتجفيف عرقها بالفوطة دون أن تصب الماء على نفسها من الإناء الذى تحمله. وبعد ثلاثة أيام كانت تبدو وكأنها جمبرى إحمّر لحمه من الحر وتحمل رائحة حضارتها لدرجة لا يمكن التنفس معها.

كانت تقضى الليل فى استرخاء، فمنذ أن بدأ حكمها كنا نشعر بخطوات تدور فى المنزل المظلم وتتحسس طريقها وسط الظلام وقد أصاب ذلك أخى بالقلق. وفكر أن تكون هذه هى

خطوات الغرقى تطوف بالمنازل وهى حكايات طالما قصتها علينا فوليبيا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أنها السيدة/ فوربس إذ كانت تقضى الليل تمارس الحياة العادية لامرأة تعيش بمفردها. هى نمطية الحياة التى تؤنب نفسها عليها أثناء النهار. وفى فجر أحد الأيام فاجأناها وهى فى المطبخ ترتدى قميص النوم الذى يشبه قميص الطالبات. تقوم بإعداد الحلوى اللذيذة وكان كل جسدها قد تلطخ بالدقيق حتى وجهها، تتناول كأسًا من النبيذ البرتقالى ويعتريها نوع من عدم الدقة والتردد كان السبب فيه الاشمئزاز الذى عليه السيدة/ فوربس الأخرى. ومنذ هذه اللحظة عرفنا أنه بعد أن نذهب إلى حجرة نومنا لم تكن تخلد هى للنوم، بل كانت تنزل للسباحة خلسة، أو أن تظل فى الصالة حتى ساعات متأخرة من الليل تشاهد الأفلام الممنوعة على الصغار فى التليفزيون بينما تتناول قوالب كاملة من الحلوى وتشرب زجاجة كاملة من نبيذ خاص احتفظ به والدى للمناسبات الخاصة. كانت تناقض كل ما تتحدث به عن التقشف والاتزان فى السلوك بأن كانت تلتهم القطع التهامًا وبشغف لا حدود له. ثم كنا نسمعها بعد ذلك تتحدث وحدها وهى فى حجرتها، إذ كانت تقوم بقراءة متأنية بالألمانية لفقرات كاملة.

كنا نسمعها وهى تغنى وتنتحب فى سريرها حتى الصباح. ثم تظهر بعد ذلك على مائدة الإفطار وقد تضخمت عيناها من

كثرة البكاء وتزداد حزنًا وتشددًا. فـارقتنا السعادة والمرح أنا وأخى لكننى كنت على استـعداد لتحملها حتـى النهاية ذلك أننى أعرف أن حجتها هى التى ستتغلب على حججنا. أما أخى فقد دخل فى مواجهة معها بكل حدة طابعة وتحول الصيف السعيد إلى جحيم. وكانت واقعة "أبو مرينا" هى النقطة التى طفح معها الكيل، ففى تلك الليلة، وعندما نحن فى سريرنا نسمع الحـركة الدائبة للسيدة فـوربس، فى هذا المنزل النائم. قـال أخى بكل ما فـيه من عـزم النقـمة:

- سوف أقتلها.

كانت مفـاجأة لى، ليس للقرار فقط، بل للتـوافق العجيب ذلك أننى كنت أفكر فى هذا الأمر منذ العشاء. ومع ذلك حاولت كبح جماحه. فقلت:

- سوف يقطعون رقبتك.

- لا توجد مقـصلة فى صقلية - قال - كـما أنه لن يعرف أحد من القاتل.

كان يفكر فى الجـرة التى انتشلت من الماء والتى لا زال فى قاعها بـقايا النبيذ السام. كان والدى يحـتفظ بها وذلك لأنه يريد تحليله لمعرفـة طبيعة ذلك الـسم الذى لا يمكن أن يكون قد تكون بمرور الزمن. واستـخدام هذا السم لقتل السيـدة/ فوربس هو أمر

غاية فى السهولة ولن يفكر أحد فى الأمر إلا على أنه حادثة أو انتحار. والخلاصة أنه عند الفجر وعندما تسقط فريسة السهاد نقوم بأخذ السم الذى فى الجرة ونخلطه بزجاجة النبيذ الجيد الخاص بوالدى، وطبقاً لما سمعنا فإن هذه الجرعة تكفى للقضاء على حصان.

كنا نتناول الإفطار فى المطبخ فى تمام التاسعة، وكانت السيدة/ فوربس هى التى تقوم بنفسها بإعداده لنا، نتناول فيه الخبز المسكر الذى تأتى به فولبيا فلامينيا مبكراً وتضعه فوق الفرن. وبعد ذلك بيومين أى بعد أن وضعنا السم فى الزجاجة، وبينما نتناول طعام الإفطار ألمح لى أخى بعينه لندرك ونحن غير سعيدين أن الزجاجة المسممة ظلت كما هى لم تُمس. كان ذلك يوم الجمعة وظلت الزجاجة طوال نهاية الأسبوع دون أن يقنص منها شىء، لكن السيدة/ فوربس شربت ليلة الثلاثة نصف الزجاجة وهى تشاهد الأفلام الفاضحة فى التليفزيون.

ومع كل هذا حضرت كعادتها اليومية طعام الإفطار صباح الأربعاء. كان وجهها مثل العادة وجه امرأة قضت ليلة تعسة. أما العينان فقد كان يطوف بهما شغف واضح أخذ يزداد عندما وجدت فى سلة الخبز المسكر رسالة تحمل طوابع ألمانية. قرأت الرسالة وهى تتناول القهوة رغم أنها كررت علينا كثيراً أنه لا يجب فعل ذلك. وأثناء القراءة كانت تكسو وجهها انفراجة مؤقتة

تنقلهـا لهـا الكلمات المكـتوبة. وبعـد ذلك انتـزعت الطوابع من الظرف ووضعتها فى السلة مع الخبز المتبقى وذلك لتكون جزءاً من مجـموعـة الطوابع الخاصة بزوج فـولبيـا فلامينيـا. ورغم الفكرة السيئة التى أخذناها عنها منذ البداية رافقتنا فى رحلة الغوص ذلك اليوم وظللنا نسبح فى بحـر خفيف المياه حتى انتهـى الأوكسجين فى الأنابيب، وعدنا إلى المنزل دون درس السلوكيات الاجتماعية. كانت السـيدة/ فوربس مـعتدلة المزاج ذلـك اليوم أضف إلى هذا أنها بدت أثناء العشـاء وهى أكثر حيوية عن ذى قـبل. لم يتحمل أخى حـالة فقـدان الأمل. فعندمـا تلقـينا الأمر بالبـدء فى تناول العشاء بطبق شوربة الشعرية أزاح الطبق بطريقة استفزازية. وقال:

- لقد سئمت هذه المياه المخلوطة بالديدان.

كان الأمر بمثابة إلقاء قنبلة على المائدة - انتفخ وجه السيدة/ فوربس وتوترت شفـتاها وانطبقت فوق بعضـها إلى أن زال دخان الانفجـار وكست الدموع زجـاج نظارتها. ثم رفعـتها عن عـينها وجففتها بالفوطة ثم وضعتها على المائدة قبل أن تنهض وهى تشعر باستسلام لا فخار فيه.

- افعلا ما شئتما - قالت - فأنا غير موجودة.

دخلت إلى غرفـتها منذ السابعـة. لكنها خرجت منهـا قبل منتصف الليل وقد ظنت أننا خلدنا إلى النوم فرأيناها وهى ترتدى

قميص نوم الطالبات تتجه إلى المطبخ ثم تعود إلى غرفة نومها وقد حملت معها نصف قالب من الشيكولاتة والزجاجة التى تبقى بها ما يزيد قليلاً عن أربعة قراريط من النبيذ المسموم. شعرت لحظتها برعشة الأسى.

- مسكينة يا سيدة / فوربس - قلت.

لم يكن أخى يتنفس بشكل هادئ. قال:

- المساكين هم نحن إذا لم تمت هذه الليلة.

عادت تتحدث وحيدة فى تلك الليلة وظلت هكذا لفترة غير قصيرة وأنشدت لشيلر بصوت عال وكأنها أصيبت بجنون مفاجئ وأنهت إنشادها بصيحة دوت فى أرجاء المنزل، ثم تنهدت كثيراً بعد ذلك حتى وصلت التنهدات إلى أعماق روحها وأخذت تصدر صفيراً حزينًا ومستمراً كأنها قارب تتقاذفه الأمواج. وعندما استيقظنا كنا نشعر بالإرهاق بسبب التوتر والسهاد، كانت الشمس تدخل عبر النافذة فى شكل حزمة ضوء، إلا أن البيت بدا وكأنه غارق فى صمته. عندئذ أدركنا أن الساعة قد اقتربت من العاشرة ولم يوقظنا أحد بناء على عادة السيدة/ فوربس. فلم نسمع صوت المياه وهى تنساب بقوة من "السيفون" إلى المرحاض فى الثامنة صباحًا، ولم نسمع صوت حنفية حوض الغسيل أو صوت "شيش" النوافذ وهو يرفع ولم نسمع وقع حديد حذائها أو

الضربات الثلاث القاتلة على الباب بكف يدها. وضع أخى أذنه على الحائط وكتم أنفاسه حتى يتمكن من سماع أى مؤشر للحياة فى الحجرة المجاورة، وفى النهاية صدرت عنه تنهيدة الشعور بالحرية.

- انتهى الأمر ! - قال- الشيء الوحيد الذى يسمع هو صوت البحر.

أعددنا إفطارنا قبل الحادية عشر بقليل، ثم نزلنا بعد ذلك الشاطئ ونحن نحمل اثنتين من الأنابيب لكل واحد منا بالإضافة إلى اثنتين آخريين كاحتياطى، وذلك قبل مجيئ فولبيا فلامينيا بمرافقيها من القطط، لتقوم بتنظيف المنزل. كان أوريستى فى الميناء يقوم بتنظيف سمكة وزنها ستة أرطال اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة/ فوربس حتى الحادية عشرة، ولما ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر، وقصصنا عليه، بالإضافة إلى ذلك، أنها كانت تبكى فى الليلة السابقة وهى جالسة على مائدة العشاء، وربما نامت نومًا غير طبيعى، وفضلت البقاء فى السرير. لم يهتم أوريستى كثيراً بالشرح وذلك ما كنا نتوقعه وذهب بنا لنغوص فى أعماق البحر لما يزيد عن الساعة بقليل. وبعد ذلك طلب منا أن نذهب لتناول الغذاء، ثم ذهب فى اللنش ليبيع السمكة لأحد الفنادق السياحية. ودعناه ونحن على السلم الحجرى وجعلناه يظن أننا متوجهين إلى المنزل حتى اختفى عن ناظرينا، وبعد ذلك

وضعنا أنابيب الأوكسجين وعدنا نسبح دون إذن من أحد.

كان الجو غائمًا، وكانت تشم رائحة الرعد القاتم فى الأفق، لكن البحر كان ساكنًا وشفافًا، وكان مكتفيًا بضوئه هو. قمنا بالسباحة على السطح حتى خط الفنار المسمى "بانتيلاريا" ثم انحرفنا بعد ذلك وسرنا مائة متر على اليمين ثم قمنا بالغوص فى المكان الذى اعتقدنا أننا رأينا فيه صف الطوربيدات الحربية فى بداية الصيف.

كانت هناك ستة طوربيدات مدهونة باللون الأصفر وعليها أرقاماً مسلسلة وملقاة فى الأعماق البركانية فى نظام لا يمكن أن يكون بمحض الصدفة. وبعد ذلك واصلنا الطواف حول الفنار بحثًا عن المدينة الغارقة التى حدثتنا عنها فولبيا فلامينيا كثيراً، لكن لم نعثر لها على أثر. وبعد ساعتين صعدنا إلى سطح المياه بعد أن اقتنعنا أن ليس هناك المزيد من الأسرار، ولم يتبق معنا إلا القليل من الأوكسجين.

كانت قد بدأت عاصفة من عواصف الصيف ونحن نسبح، البحر هائج وهناك أسراب من الطيور الآكلة للحوم، تحوم وهى تصيح صياحًا حادًا مقتتلة حول بقايا الأسماك الملقاة على الشاطئ، لكن ضوء المساء لم يكن قد بدأ بعد، كما أن الحياة جميلة بدون السيدة/ فوربس. ومع ذلك عندما انتهينا من صعود

السلم الحجرى رأينا المنزل وأمـامه جمع غفيـر، وسيارتى بوليس، عندئذ أدركنا جيداً حـقيقة ما فعلناه. ارتعـد أخى وحاول الرجوع عن دخول المنزل.

- أنا لن أدخل المنزل - قال.

أما أنا فقد كنت أخـمن تخميناً غامضاً يقـول بأنه لو شهدنا الجثة مجرد مشاهدة فسوف ننجو من أى شبهة.

- كن هادئًا - قلت له - عليك أن تتنفس بعـمق وفكر فى شىء واحد : نحن لا نعرف شيئًا.

لم يهـتم بنا أحـد، تركنا أنابيـب الأوكسـجين والأقنعـة والزعانف على الـباب الرئيسى ودخلنا الردهة الخـلفية حـيث كان هناك رجلان يدخنان وهما جـالسان على الأرض إلى جوار سرير نقـال. عندئذ أدركنا أن هناك عـربة إسعـاف على البـاب الخلفى وبعض العـسكريين المسلحين بـالبنادق. أما الصـالة فكانت هناك نسـاء الجوار وهن يصليـن بلغتـهن المحليـة، كن جالسـات على الكراسى التى رصها إلى جوار الحائط، بينما الأزواج قد وقفوا فى الفناء وهم يتحدثون عن أشياء لا علاقة لها بالموت. ضغطت بقوة على يد أخى التى كانت جامدة وسرت فيها رعشة برودة، ودخلنا المنزل عبر البـاب الخلفى. كانت حجرة نومنا مفـتوحة وهى على نفس الحالة التى تركناها عليها. أما حجرة السيدة/ فوربس فكانت

هى الحجرة التالية وكان بها أحد الرجال المسلحين يراقب المدخل، لكن الباب كـان مفتوحـاً. تطلعنا إلى الداخل ونحن نمسك قلوبنا بأيدينا ولم نكد نفعل ذلك حتى خرجت فوليبا فلامينيا من المطبخ كأنها السهم وأغلقت الباب وهى تصيح صيحة مفزعة.

- بحق الله يا أبنائى لا تنظروا إليها!

كانت صيحتها متأخرة، فلن ننسى طوال حياتنا ما رأيناه فى تلك اللحظة الخـاطفة، كان هناك رجـلان يرتديان ملابس مـدنية ويقومان بقياس المسافة بين السـرير والحائط بينما يقوم آخر بالتقاط الصـور بكامـيـرا لها كم أسـود مـثل المصـورين الذين يطوفـون بالحـدائق. لم تكن السـيدة/ فـوريس على السـرير غـير مـرتب الفراش، كانت ملقاة على جانبها بعض الشىء على الأرض وهى عريانة وغارقـة فى بركة دماء جافة كانت قـد غطت أرض الحجرة بالكامل، كما كـان جسمها تغطيـه طعنات مختلفة، كانت سـبعة وعشرين طعنة قاتلة، وانطلاقًا مـن كثرة الطعنات وحدتها يلاحظ أنها عـوملت بقسوة بسـبب حب لا يعرف الكلل، وأن السـيدة/ فوريس قـد تلقت هذه الطعنات بنفس الشـغف دون أن تصيح بل كانت تبكى وهى تنشـد لشيلر بصوتها العذب الذى يشـبه صوت الجندى وعلى وعى كـامل بأن ذلك هو الثـمن الحتـمى لصيـفهـا السعيد.

جئت لأتصل بالتليفون فقط

(١٩٧٨)

ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع وعندما كانت ماريا لوث ثربانتس تسافر وحدها تعرضت السيارة التى استأجرتها لعطل فى صحراء "مونيغروس". كانت مكسيكية، تبلغ من العمر سبعًا وعشرين عامًا، جميلة وجادة، وقد حازت قبل سنوات نصيبًا من الشهرة كممثلة لأدوار مختلفة. متزوجة بواحد ممن يؤدون الألعاب السحرية فى الصالونات، وفى ذلك اليوم كانت عائدة إليه بعد زيارة قامت لبعض أقربائها فى سرقسطة، وبعد ساعة من النداءات غير المجدية على السيارات المارة والشاحنات التى تمر مندفعة وسط عاصفة المطر أشفق عليها سائق أتوبيس متهالك. وحذرها إلى أنه لن يذهب بعيداً.

- لا يهم - قالت ماريا - إن ما أريده فقط هو الاتصال بالتليفون.

كان ما تقول صحيحًا، إذ هى فى حاجة إلى التليفون لتبلغ زوجها أنها لن تصل قبل السابعة مساءً، تبدو كأنها طائر مبلل وهى ترتدى معطفًا من المعاطف الطلابية وتلبس حذاء مخصصًا للشاطئ خلال شهر أبريل، كما كانت خائفة لأنها لم تأخذ حذرها وتحمل معها مفاتيح السيارة. كانت هناك امرأة تسافر إلى

جوار سـائق ذى هيئة عـسكرية لكنه حسن التصـرفات إذ أعطاها فوطة وبطانية وبحث لها عن مكان بجانبه، وبعد أن جففت نفسها بعض الشيء جلست والتحـفت البطانية وحاولت إشعال سـيجارة من السجائر القليلة التى نجت من مياه المطر. وبينما تدخنان فتحت ماريا باب الحـوار لتفـرج عن نفسـها بالكلام. صوتهـا أعلى من صوت المطر وإيقـاع صوت الأتوبيس. قـاطعتهـا المرأة وهى تضع سبابتها على شفتيها. وهمست لها.

- إنهن نائمات.

نظرت ماريا من أعلى كـتفها ورأت أن الأتوبيس كـان مليئًا بنساء ذوات أعمار متقدمة وأوضاع اجتماعية مختلفة. كُن نائمات وهن يلتحفن بطانيات مماثلة لتلك التى معها. أصابت ماريا عدوى راحتهن فتمكنت من مقعدها وتركت نفسها لصوت المطر. وعندما استيقظت كان الظلام مـخيمًا وتحولت زذاذات المطر إلى نتف ثلج تهـبط بهـدوء. لم تدر كم من الوقت نـامت أو فى أى مكان من العالم هى موجودة. كانت جارتها فى المقـعد تتخذ موقفًا حذراً. سألت ماريا :

- أين نحن.

- وصلنا - أجابت المرأة.

دخل الأتوبيس الفناء المبلط بالحجارة، وهو فناء مبنى ضخم ومظلم بدا على شكل دير أقـيم وسط غابة من الأشجار العـالية،

أما المسافرات فقد كانت تسقط عليهن أشعة ضوء لمبة واحدة فى الفناء، وظللن ساكنات حتى جاءت المرأة ذات الشكل العسكرى وأشارت إليهن بالنزول فى نظام وكأنهن فى حضانة للأطفال. كن كبيرات فى السن وكن يتحركن فى ظلمة الفناء ببطء لدرجة بدين معها صوراً من صور الأحلام. كانت ماريا آخر من تركت الأتوبيس وفكرت أنهن راهبات. لكنها أخذت تستبعد هذا الظن عندما رأت بعض النساء وهن يرتدين الزى ويستقبلن المسافرات على باب الأتوبيس ويقمن بتغطية رؤوسهن بالبطانيات حتى لا تبتل، ثم يقمن بصفهن صفًا واحداً على طريقة الهنود ويربتن عليهن دون التوجه بالحديث إليهن. وبعد أن ودعت ماريا جارتها فى المقعد أرادت أن ترد لها البطانية، لكن الأخرى قالت لها بأن تغطى بها رأسها حتى تتمكن من عبور الفناء ثم تسلمها فى البوابة.

- هل سيكون هناك تليفون؟ سألتها ماريا.

- بالطبع - قالت المرأة - سيرشدنك عن مكانه.

طلبت من ماريا سيجارة أخرى فأعطتها باقى العلبة بالسجائر المبتلة. "سوف تجف فى الطريق" قالت لها. لوحت المرأة بيدها مودعة وهى على سلم الأتوبيس وقالت لها بصوت مرتفع "حظًا طيبًا" أخذ الأتوبيس طريق الخروج دون أن تتمكن من أكثر من هذا.

بدأت ماريا تجرى صوب مدخل المبنى، فحاولت إحدى الحارسات إيقافها بتربيتة صارمة، ورغم ذلك لجأت إلى صيحة مكتومة : "قلت توقفى!" نظرت ماريا من تحت البطانية فرأت عينين جامدتين وسبابة صارمة تشير إليها أن تلتزم الطابور، فأطاعت، وعندما دخلت دهليز المبنى انفصلت عن الباقيات وتوجهت للبواب لتسأل عن تليفون، فجعلتها إحدى الحارسات تعود مرة أخرى إلى الطابور وهى تربت على كتفها كما تقول لها بتلطف شديد.

- من هنا يا جميلة، التليفون من هنا.

واصلت ماريا مثل باقى النساء سيراً عبر ممر مظلم وفى النهاية دخلت عرفة نوم جماعية حيث قامت الحارسات باسترجاع البطانيات وبدأن فى توزيع الأسرة. كانت هناك امرأة، بدت فى عين ماريا مختلفة وأكثر إنسانية ومختلفة عن الباقيات، هذه المرأة تقوم بمراجعة الطابور على أساس قائمة من الأسماء تحملها وتضاهيها بالأسماء المكتوبة على قطعة كرتونية مثبتة بواسطة خيط على ملابسهن. وعندما وصلت إلى ماريا فوجئت بأنها لا تحمل إثبات شخصيتها.

- الأمر هو أننى جئت لأتصل بالتليفون - قالت ماريا.

وقامت بسرعة شديدة لإيضاح بأن سيارتها تعطلت فى الطريق، وأن زوجها الذى يقوم بألعاب السحر فى الحفلات

ينتظرها فى برشلونة وذلك حتى يفى بثلاثة من التزاماته تمتد حتى منتصف الليل، وأنها لذلك تريـد إبلاغه بأنها لن تصل فى الوقت المناسب لمرافقـته. كانت الـساعة قـد اقتربت من السـابعة، ومن المفترض أن يغادر المنزل فى غضون عشر دقائق. وكانت تخشى أن يقوم هو بإلغاء كل ارتباطاته بسبب تأخيرها. بدا أن الحارسة تصغى إليها باهتمام.

- ما هو اسمك؟ سألتها.

ذكرت لها ماريا اسمهـا بالكامل وهى تصدر تنهيدة ارتياح، لكن المرأة لم تعثـر على الاسم بعد مراجـعة القائمة عـدة مرات. فسألت مستـفسرة من إحدى الحارسات، لكنها هزت كـتفيها دون أن تنطق بشىء.

- إننى جئت إلى هنا لأتصل بالتليفون فقط - قالت ماريا.

- وهو كذلك يا حلوة - قـالت لها الرئيسة، وأخـذتها إلى سريرها بعـذوبة شديدة تفقـدها مصداقيـتها وواقـعيتهـا - إذا ما تصرفت جيداً ستتـمكنين من الاتصال بالتليفون بمن تريدين، لكن ليس الآن - غداً.

طرأ خاطر فى عقل ماريا فى هذه اللـحظة جعلها تفهم لماذا كانت النساء فـى الأتوبيس تتحركن وكأنهن فى قـاع جدول. لقد تم إعطاؤهن المنومات، أما هذا القصر المظلم ذو الأسوار السميكة

المبنية من الحجارة والسلالم المتجمدة فلم يكن فى الحقيقة إلا مصحة للأمراض العقلية. فشعرت بالفزع وفرت هاربة من حجرة النوم، لكنها قبل أن تصل إلى الباب قابلتها حارسة ضخمة الجثة وعاجلتها بضربة قوية كلها غلظة فطرحتها أرضًا وأفقدتها القدرة على الحركة بليّ ذراعيها.

نظرت إليها ماريا وقد أعجزها الرعب.

- بحق الله - قالت - أقسم لك بأمى الميتة أننى جئت لأتصل بالتليفون.

كان كافيًا أن ترى وجهها لتعرف أن لا ملاذ أمام هذه الجثة الضخمة الغبية التى كن يطلقن عليها "هُريقلة" نظرًا لقوتها غير العادية. كانت توكل إليها المهام الصعبة لدرجة أن اثنتين من السجينات لقيتا حتفهن خنقًا بذراع الدب القطبى هذا، والمدرب على فن القتل سهوًا. وتم حل القضية الأولى على أنه حادث، أما الحالة الثانية فكانت غير واضحة، وتم توجيه اللوم والتحذير لهريقلية، وأنه فى المرة القادمة سوف تتعرض للمساءلة الدقيقة. والصورة الشائعة عنها هو أنها تلك النعجة الضالة التى تنسب إلى عائلة ذات ألقاب كثيرة، تاريخها ملىء بالحوادث المشبوهة التى وقعت فى أكثر من مصحة عقلية فى أسبانيا.

وحتى تنام ماريا أول ليلة حقنوها بمنوم. وقبل شروق الشمس أيقظتها الرغبة فى التدخين فوجدت نفسها مربوطة من

يديها ورجليها فى السرير. لم يلب أحد صيحاتها. وفى الصباح وبينما لم يجد الزوج أى أثر لها فى برشلونة، أخذوها إلى العيادة ذلك أنهم وجدوها وهى غارقة فى بحر من البول والبراز.

لم تدر كم من الوقت استغرقته عندما تنبهت من سباتها. لكن الدنيا كانت فى هذه اللحظة ينبوع حب، فقد كان على رأس سريرها رجل عجوز أثرى يسير على أطراف قدميه وله ابتسامة ناعمة، ومن خلال لمستين حانيتين أعاد إليها فرحة الحياة، كان مدير المصحة.

وقبل أن يقول لها شيئاً أو حتى يحييها طلبت منه ماريا سيجارة فأعطاها واحدة مشتعلة وأهداها باقى العلبة. فأجهشت ماريا بالبكاء.

- انتهزى الفرصة الآن لتبكى كما تشائين - قال لها الطبيب بصوت يبعث على النوم - فالدموع هى أفضل علاج.

بكت ماريا تفضفض عن نفسها دون حرج، ولم تكن قد فعلت ذلك أبداً وهى مع عشاق الصدفة الذين صادفوها، وخاصة فى فترة الاسترخاء التالية لممارسة الحب. وبينما كان الطبيب يستمع إليها كان يقوم بتمشيط شعرها بأصابعه ويقوم بإزاحة المخدة عن أنفها حتى تتنفس بشكل أفضل، وأخذ يساعدها وهى غارقة فى حيرتها، ويتمتع فى ذلك بحكمة وعذوبة لم تحلم بهما أبداً.

ولأول مرة فى حـياتهـا تشعر أن هناك من يفـهمـها، وأن الرجل الذى ينصت إليـهـا يـفعـل ذلك من أعـمـاق روحـه دون انتظار للمقابل، وهو ممارسـة الحب معها. وبعد سـاعة طويلة من البكاء بحرارة طلبت منه الموافقة على أن تتصل بزوجها تليفونيًا.

اعـتدل الـطبيب فى مـهـابة تليق بمنصـبـه. "ليس الآن يا مليكتى، قال لها ذلك وقد ربت على خـدها برقة لم تشعر بمثلها من قبل" سـيتم كل شىء فى وقتـه، كما باركهـا كأنه رجل دين وهو على الباب واختفى للأبد.

- ثقى فى - قال لها.

تم تسجـيلها مساء ذلك اليـوم فى المصحة، وأخذت رقـمًا مسلسلاً وأضيف إلى جـوار اسمها تعليقًا سطحيًـا يتعلق بغموض المكان الذى جـاءت منه والشكوك حول حـقيـقتـها. وفى نهـاية التعليق هناك عبارة كتبها المدير بخط يده " حالة هياج".

وكما توقعت ماريا كان زوجها قد خرج من شقته المتواضعة الكائنة فى حى "أورتا" نصف سـاعة مـتأخرًا عن الوقـت المتفق عليه ليفى بالارتبـاطات الثلاثة. هذه هى المرة الأولى التى لا تأتى فى موعدها طوال ما يقـرب من عامين من بداية الزواج الحر الذى تم الاتفاق عليـه جيدًا. وفهم هو أن الـتأخير بسـبب غزارة المطر الذى نزل على المنطقة فى نهاية ذلك الأسـبوع، لكنه قبل أن ينزل ترك رسالة علقها فى الباب يوضح فيها مساره فى تلك الليلة.

وفى الحفلة الأولى كان الأطفال جميعهم قد ارتدوا قناع الكنغر وبذلك تخلى عن اللعبة المعتادة وهى لعبة الأسماك غير المرئية، فلم يتمكن من القيام بها دون مساعدتها. أما الحفلة الثانية فكانت فى منزل سيدة عجوز تبلغ الثالثة والتسعين من العمر جالسة على كرسى متحرك. كانت هذه العجوز تفخر بأنها احتفلت كل عام بعيد ميلادها خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وفى كل مرة تتعاقد مع ساحر مختلف. كان يشعر بالقلق بسبب تأخير ماريا ولم يستطع التركيز فى الألعاب التى تتسم بالبساطة. أما الحفلة الثالثة فكانت هى التى اعتاد المشاركة فيها كل ليلة والمكان هو عبارة عن مقهى تعزف فيه الفرق الموسيقية فى شارع/ لاس رامبلاس. وقد أدى النِّمر المعتادة دون أى إلهام، أمام مجموعة من السياح الفرنسيين الذين لم يصدقوا ما يرونه ذلك أنهم كانوا يقاومون الاعتقاد فى السحر. وكان يقوم بالاتصال بمنزله بين كل لعبة وأخرى، وانتظر بلا أمل، أن تجيب على اتصالاته. وفى آخر مرة لم يستطع كبح جماح قلقه فى أن شيئًا سيئًا قد حدث لها.

عندما عاد إلى المنزل وهو يقود الشاحنة الصغيرة التى قام بإعدادها لتتناسب مع العروض فى الأماكن العامة شهد جمال الربيع متمثلاً فى النخيل المصطف فى طريق/ جراثليا. وسيطرت عليه فكرة أخذت تلح عليه وهى كيف يمكن أن تكون المدينة بدون ماريا. ضاعت آخر آماله عندما وجد الورقة التى تركها على

الباب كما هى. كان القلق قد استبد به لدرجة أنه نسى إعداد وجبة الطعام للقط.

عندما أقوم الآن بكتابة الاسم أدرك أننى لا أعرف ما اسمه فى الحقيقة. ذلك أننا فى برشلونة كنا نعرفه باسمه المهنى/ ساتورنو الساحر. كان رجلاً ذو طبيعة غريبة، ولم يكن به أى ذكاء اجتماعى إلا أن الظرف والحساسية فى التصرفات اللتان تنقصه توجدان بشكل زائد فى ماريا. كانت هى التى تأخذ بيده فى هذا المجتمع الملىء بالكثير من الأسرار والذى لم يخطر ببال أحد منه أن يتصل تليفونيًا بآخر بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته. لكن ساتورنو فعلها وقد وصل للتو للمنزل، ولم يكن يريد أن يتذكر ذلك الموقف. وعلى هذا اكتفى بالاتصال بسرقسطة حيث ردت عليه إحدى الجدات وهى شبه نائمة ودون أن تشعر بأى خوف، وقالت له بأن ماريا رحلت بعد تناول الغداء. ولم ينم أكثر من ساعة حتى الفجر، ورأى أثناء النوم حلمًا طينيًا - شهد فيه ماريا وهى ترتدى فستان زفاف مكون من القصاصات ومخضب بالدماء. واستيقظ وهو على يقين بأنها عادت وتركته، وهو الآن يعيش وحده فى هذا العالم الواسع بدونها.

كانت قد فعلت تلك الفعلة قبل ذلك ثلاث مرات مع ثلاثة من الرجال وكان هو واحد من هؤلاء الثلاثة خلال الخمسة أعوام الأخيرة، قد تركته فى مدينة "المكسيك" بعد مضى ستة أشهر

على تعارفـهما عندمـا كانا فى قمـة السعادة وهما يـعيشان حـباً مجنوناً فى حـجرة حمـام فى مستعـمرة أنثوريس. وذات صـباح كانت ماريا قد غادرت المنزل قبل الشروق وتركت كل متعلقاتها بما فى ذلك خاتم زيجتهـا السابقة وكذا رسالة تقول فيـها بأنها، بعد ليلة من الممارسات الزائدة عن الحد والتى لا يمكن الإفصاح بها، غير قـادرة على تحمل تبعـات ذلك الحب الذى لا يقف عند حد. وفكر ساتورنو أنهـا ربما عادت إلى زوجها الأول الذى كـان أحد تلاميذها فى المدرسة الثانوية، وتزوجت به خفية لأنه لم يبلغ سن الرشد ثم تركـته من أجل آخرين بعد عـامين من اللا حب. لكن ليس هذا هو مـا حـدث، لقـد عـادت إلى منزل والديهـا وذهب ساتورنو إلى هناك ليبحث عنهـا بكل السبل. أخذ يرجوها، دون أن يضع أية شـروط، ووعدها بأكثـر مما هو قادر على الـوفاء به، لكنه لم يـجـد إلا الصـد الذى لا يلين: "هـناك أنواع من الحب قصيـرة العمر وأنواع أخرى طويلـة العمر". قالت له واختـتمت حديثـها بلا رحمة "كـان ذلك الحب من النوع القصير العـمر". استسلم أمـام قوة إرادتها، ومع ذلك فذات صبـاح وهو بالتحديد يوم القديسـين، وعندما كان عائداً إلـى حجرته وهو يشعـر باليتم بعد عام من النسيان، وجـدها نائمة على الكنبة الكائنة فى الصالة وهى تحمل باقة الورد وذيل فـستان الزفاف يمتد كـأنها عروس لم تدخل الدنيا بعد.

قصت عليه ماريا الحقيقة، وهى أن خطيبها الجديد رجل أرمل ليس عنده أولاد يعيش حياة سهلة ومستعد للزواج عن طريق الكنيسة الكاثوليكية، هذا الرجل تركها وهى ترتدى فستان الزفاف وتنتظره فى مذبح الكنيسة. وقرر والدها إتمام الحفل. فواصلت هى معهما اللعبة، فرقصت وغنت وشربت حتى سكرت وهاجمها إحساس رهيب بتأنيب الضمير، ذهبت فى منتصف الليل لتبحث عن ساتورنو.

لم يكن فى المنزل، لكنه وضع المفاتيح فى إحدى إصص الزهور الكائنة فى الممشى حيث كانا يضعانها دومًا. كانت هى هذه المرة التى استسلمت له بلا قيد أو شرط "والآن إلى متى؟" سألها. فأجابت عليه ببيت من الشعر لفينثيوس دى موراليس :

" الحب خالد ما دام مستمراً" وبعد ذلك بعامين كان الحب لا يزال خالداً.

بدا أن ماريا نضجت! إذ تخلت عن أحلامها بأن تكون ممثلة وكرست نفسها له سواء فى ممارسته لمهنته أم فى السرير. وفى نهاية العام الماضى كانا قد حضرا مؤتمراً للسحرة فى بربيجان، وعندما عادا تجولا فى برشلونة فأعجبتهما المدنية لدرجة أنهما اشتريا شقة فى حى قطلانى محض هو حى "أورتا" إنه حى كثير الضوضاء، كان المنزل الذى هما فيه بلا بواب، إلا أن به مساحة

تكفى لخمسة أبناء، كانت تلك هى السعادة الممكنة حتى قامت هى فى نهاية الأسبوع واستأجرت سيارة وذهبت لزيارة أقربائها فى سرقسطة على وعد بأن تعود فى السابعة من مساء الاثنين، لكن لم يظهر لها أى أثر حتى فجر الخميس.

وفى يوم الاثنين من الأسبوع التالى اتصلت شركة التأمين على السيارة المؤجرة تليفونيًا بالمنزل لتسأل عن ماريا "لا أعرف شيئًا" قال ساتورنو "ابحثوا عنها فى سرقسطة" ثم وضع السماعة، وبعد ذلك بأسبوع ذهب أحد رجال البوليس وكان يرتدى زيًا مدنيًا إلى منزله ليبلغه بأنهم وجدوا السيارة، وقد جردت من كل شىء، فى طريق فرعى بالقرب من قادش، أى على بعد تسعين كيلوا مترًا من المكان الذى تركتها فيه ماريا. وكان رجل البوليس يريد أن يعرف المزيد من التفاصيل عن عملية السرقة هذه. كان ساتورنو يقوم بتقديم الطعام للقط، ولم يكد ينظر إليه وهو يقول لرجل البوليس بألا يضيعوا الوقت ذلك أن امرأته قد هربت من المنزل وهو لا يعرف مع من هربت أو إلى أين ذهبت. كان على هذه القناعة لدرجة أن رجل البوليس شعر بالحرج واعتذر له عن كثرة أسئلته. وأعلن حفظ القضية.

داهمت ساتورنو الغيرة من أن تقوم ماريا بالهرب من المنزل فى عيد القيامة فى "كاداكيس" حيث كانت روسا ريجاس قد دعتها لممارسة رياضة الإبحار بالمراكب الشراعية. كنا فى

"مـاريتيم" البـار الشعـبى الشهـيـر الملىء بالضوضـاء الكائن فى "لاجوش دبين" وذلك فى فترة مـغيب شمس الحكم الفرنكوى. وكنا نجلس على مائدة مـصنوعة من الحديد، وكـذلك كراسى من نفس المادة، كان المكان يستوعبنا نحن الستة بالكاد، لدرجة أننا كنا نشعر بـأننا محشورون كأننـا عشرون فرداً. وبعد أن انتـهت علبة السـجائر الثـانيـة خلال ذلك اليـوم وجدت مـاريا نفـسهـا بدون كبريت. وفـجأة امتدت ذراع نحيـفة مليئة بالشـعر القوى، وفى المعصم سوار من البـرونز الرومانى، وفتحت لنفـسها مكانًا وسط الجمـوع الجالسة حـول المنضدة وأعطتهـا الكبريت. أما هى فـقد شكرته دون أن تنظر إليه لكن ساتورنو الساحر رآه، كان شابًا يافعًا نحيـفًا وأمرداً شاحب اللـون شحوب الموت، وكان شـعره طويلاً يمتد فى حزمة سوداء حتى خصره. أما زجاج البار فلا يكاد يقاوم غطرسة الربيع إلا أن الفتى كان يرتدى نوعًا من البيجامات الشعبية المصنوعة من القطن الخام وحذاءًا مثل أحذية العمال.

لم يرياه بعد ذلك اليوم إلا فـى نهاية الخريف، وذلك فندق صـغيـر تبـاع فـيه القـشـريات والرخويـات البحـرية فى منطقـة "بارثيلونيتا" وهو يرتدى نفس الطقم الواسع الانتشار، كذلك كان شعره فى الضفـيرة الطويلة بدلاً من الحزمة. حياهمـا وكأنه يحيى أصدقاء قـدامى، وبناء على شكل تقبيله لماريا ومبـادلتها له زادت شكوك ساتورنو فى أنهما كانا يتواعدان سراً. وبعد ذلك بعدة أيام

وجد بمحض الصدفة اسمًا جديدًا ورقم تليفون جديد وقد دونتهما ماريا فى النوتة المنزلية. وأسهمت الغيرة غير الرحيمة فى تخمينه لمن يكون الاسم والرقم. وأدى العثور على المفكرة الشخصية للدخيل إلى التأكد من كل شىء : العمر اثنين وعشرين عامًا، هو ابن وحيد لأسرة غنية يتمثل عمله فى إعداد ديكورات فترينات العرض، ويشتهر بأنه شاذ جنسيًا وأنه ذا سمعة معترف بها فى قدرته على تسلية السيدات المتزوجات مقابل أجر مادى، ومع ذلك استطاع ساتورنو أن يتحمل هذه الغيرة حتى الليلة التى لم تعد فيها ماريا إلى المنزل. وعندئذ أخذ يتصل به تليفونيًا كل يوم، وكان يتصل، فى البداية، بمعدل كل ساعتين أو ثلاث ساعات ابتداء من السادسة صباحًا وحتى فجر اليوم التالى. ثم أخذ يتصل به كلما وجد أمامه الفرصة مهيأة لاستخدام التليفون. ولما لم تكن هناك إجابة زادت تعاسته وعظم شقاؤه.

وفى اليوم الرابع رد عليه صوت أندلسية كانت تقوم بأعمال النظافة "لقد خرج الأستاذ" قالت له هذه العبارة بكثير من الغموض لتزيد من جنونه. فلم يستطع ساتورنو مقاومة فضوله بسؤالها عما إذا كانت قد رأت الآنسة ماريا هناك على سبيل الصدفة.

- لا تعيش هنا أى امرأة اسمها ماريا - قالت له المرأة - تعرف أن الأستاذ أعزب.

- أنا أعرف - قال لها - إنها لا تعيش هناك ولكن أحيانًا تذهب إلى المكان، أليس كذلك؟

اغتاظت المرأة

- من الذى يتحدث؟

وضع ساتورنو السماعة، وبدا نفى المرأة كأنه المزيد من التأكيد على أن ما يتصوره ليس مجرد شكوك، بل حقيقة لا مراء فيها. ففقد سيطرته على نفسه، وأخذ خلال الأيام التالية يجرى اتصالات بكل من يعرفهم فى برشلونة واستعمل فى ذلك نظام الترتيب الأبجدى. لم يقده أحد لشىء، لكن كل مكالمة كانت تزيد من تعاسته، ذلك أن هوس الغيرة عنده كان معروفًا لدى السهارى الدءوبين فى "لاجوش دبين" وكانوا يرددون عليه ببعض العبارات الساخرة التى كانت تزيد من عذابه. وفى هذه الآونة أدرك أنه إلى أى مدى يعيش وحيدًا فى هذه المدينة الجميلة المجنونة والصعبة المنال والتى لن يكون سعيدًا فيها أبدًا، وفى الفجر، وبعد أن وضع الطعام للقط أمسك بقلبه حتى لا يموت واتخذ قرارًا بنسيان ماريا.

لم تكن ماريا قد تعودت بعد على الحياة فى المصحة بعد مرور شهرين، كانت تعيش على القليل من جراية السجن وهى تستخدم طقم الطعام المربوط إلى المنضدة المصنوعة من ألواح

الخشب غير الناعمة وعيناها ثابتتان على صورة الجنرال فرانكو التى كانت تسيطر على حجرة طعام، من العصور الوسطى، تتسم بالكآبة. كانت فى البداية تقاوم ساعات الوعظ الدينى بروتينيتها الغبية من صلوات الفجر والظهر والمساء، وكذلك بعض التراتيل الكنسية الأخرى التى تغطى معظم الوقت. وكانت ترفض اللعب بالكرة فى الفناء أو العمل فى ورشة الزهور الصناعية التى تقوم على رعايتها مجموعة من السجينات باهتمام بالغ. وفى الأسبوع الثالث أخذت ماريا تنضم رويداً رويداً للحياة فى الدير، وعلى حد قول الأطباء فإن البداية عندهن واحدة، وبعد ذلك ينخرطن فى صفوف المجتمع المحيط بهن.

كانت تجد حلاً لمشكلة السجائر خلال الأيام الأولى بواسطة إحدى الحارسات التى تبيعها بسعر مرتفع، وأدت حاجتها للسجائر إلى إقلاقها عندما انتهى ما معها من النقود القليلة. وكان عزاؤها بعد ذلك تدخين السجائر المصنوعة من ورق الصحف التى تقوم بصناعتها بعض السجينات باستخدام "السبارس" التى تجمعها من القمامة. وقد وصلت رغبتها الشديدة فى التدخين إلى نفس درجة رغبتها فى الاتصال بالتليفون، وكانت البيزيتات القليلة التى جنتها من المشاركة فى إعداد الزهور تشكل نوعاً من المسكنات قصيرة المفعول.

إن أقصى شىء هو العزلة أثناء الليل. فكانت الكثيرات من السجينات تمكثن يقظات فى الظلام مثلها لكن دون أن تجرؤ واحدة

منهن على شيء، فها هى هناك الحارسة الليلية التى تراجع البوابة الموصدة بواسطة سلسلة وقفل. ومع ذلك، اشتد بها الضيق ذات يوم فسألت بصوت واضح حتى تسمعها جارتها فى السرير.

- أين نحن؟

أجابها الصوت الحاد والواضح للجارة.

- فى أعماق الجحيم.

- يقولون إن هذه هى أرض عربية - قال صوت آخر بعيد رن فى فراغ حجرة النوم - ولابد أن يكون هذا الكلام سليماً، ففى الصيف وعندما يطلع القمر تسمع الكلاب وهى تنبح على البحر.

سمع صوت السلسلة وهى تدور فى الحلقة وكأنها خطاف لأحد المراكب التى تستعد للرسو أو الإبحار، ثم فتح الباب، كانت الحارسة الشديدة هى الكائن الوحيد الذى يبدو حيًا فى هذا الصمت المفاجئ. أخذت تروح وتغدو من طرف لآخر فى حجرة النوم. أصاب الخوف ماريا وكانت هى الوحيدة التى تعرف السبب.

منذ الأسبوع الأول لها فى المصحة عرضت عليها الحارسة الليلية بوضوح ودون لف أو دوران أن تنام معها فى حجرة الحراسة. وقد بدأت عرضها بإيقاع يشير إلى مصلحة محددة:

مبادلة الحب بالسجائر والشيكولاتة أو أى شيء آخر. "سيكون لك كل شئ". كانت تقول لها وهى خائفة "وستكونين المليكة المسيطرة". وأمام رفض ماريا تغيرت الطريقة عند الحارسة. فقد كانت تترك لها عبارات مكتوبة تعبر لها عن حبها، تحت المخدة، أو فى جيوب البيجامة أو فى الأماكن الأخرى التى قد لا تخطر على البال. كانت رسائل استعجال وفيها وله يمكن أن يلين له الحجر. منذ ما يقرب من شهر وهى تبدو أنها استسلمت للهزيمة وهى تلك الليلة التى دبرت فيها الواقعة التى جرت فى حجرة النوم. وعندما تأكدت أن كافة السجينات نائمات اقتربت الحارسة من سرير ماريا وهمست فى أذنها بكل العبارات الرقيقة وهى تقبل وجهها ورقبتها التى توترت من الرعب وتجمدت أطرافها. ولما تصورت الحارسة أن حالة الجمود التى عليها ماريا لا ترجع للخوف بل لأنها تشعر بالمتعة جرؤت على الذهاب إلى أبعد من هذا، وعندئذ سددت لها ماريا ضربة بظهر يدها جعلتها تطير إلى السرير المجاور، نهضت الحارسة مغتاظة وسط الضجيج الذى أحدثته السجينات.

- يا ابنة الساقطة - صاحت - سوف نهلك هنا جميعًا فى حظيرة الخنازير هذه حتى تصابين بالجنون من حبك لى.

هل الصيف، دون أن يعلن عن نفسه، يوم الأحد الأول من شهر يونيو، وكان من الضرورى اتخاذ إجراءات عاجلة ذلك أن

السجينات كن يشعرن بالحر ويخلعن المعاطف الصوفية أثناء القداس. كانت ماريا تتسلى بمشاهدة المريضات وهن عاريات وتقوم السجينات بسوقهن كأنهن دجاج أعمى. ووسط هذا الهرج والمرج حاولت أن تحمى نفسها من الضربات الطائشة، ودون أن تدرى وجدت نفسها بمفردها فى مكتب خال وجهاز تليفون يدق دون توقف وبه زر الطلب. أخذت ماريا السماعة دون تفكير وسمعت صوتًا بعيدًا وضاحكاً يتسلى وهو يقلد خدمة الساعة التليفونية:

- أنها الساعة الخامسة والأربعون واثنتان وتسعون دقيقة - ومائة وسبعة من الثوانى.

- أيها الشاذ جنسيًا - قالت ماريا.

وضعت السماعة وهى تشعر بروح الدعابة. كانت على وشك الانصراف عندما أدركت أنها أمام فرصة ذهبية لا تتكرر. وعندئذ ضربت أرقامًا ستة، بسرعة وتوتر، ولم تكن متأكدة أن الرقم الذى طلبته هو رقم المنزل. انتظرت وقلبها يدق بعنف، سمعت الجرس المعتاد بصوته الحزين، يدق مرة ثم اثنتين ثم ثلاثة وسمعت بعد ذلك صوت الرجل شريك حياتها وهو فى المنزل بدونها.

- حسن؟

كان عليها الانتظار حـتى تنقضى خنقة الدموع التى تكونت فى حنجرتها.

- أيها الأرنب - يا حياتى - تنهدت.

هزمتـها الدموع، وعلى الطرف الآخـر من الخط كان هناك صمت وجيز يتسم بالفزع والصوت الذى أصابته الغيرة بالتوتر.

- أيتها القحبة !

ووضع السماعة بعنف.

فى هذه الليلة - خـلال نوبة حـادة - قـامت مـاريا بإنزال صورة جنرال الجنـرالات وألقت بها بكل ما أوتيـت من قوة على أرض الحديقـة ووقعت غارقـة فى دمائها. كـان لا زال بها بعض الغيظ لتواجه الحارسات اللاتى حـاولن السيطرة عليها دون جدوى بأن وجهت لهن بعض اللكمات حـتى رأت "هُريقلية" واقفة على الباب وهى معـقودة الذراعين تنظر إليها، عـندئذ استسلمت،ومع ذلك جررنها حتى عنبر المجنونات الخطرات وضربنها بخرطوم مياه قوى وقمن بحقنها فى فخـذها بمادة "التربنتين". وقد أدى الحقن إلى تورم حـال دون قـدرتهـا على المشى وأدركت مـاريا أن ليس هناك شيء فى هـذه الدنيـا يحـول دون العـمل عـلى الفـرار من الجـحيم. وفى الأسـبـوع التـالى وعند العودة إلـى حجـرة النوم الجماعـية نهضت على أطراف قدمـيها وضربت على مـكان إقامة الحارسة الليلية.

كان السعر الذى تطلبه مـاريا هو الدفع مقدمًا وهى أن تقوم بتوصيل رسالة إلى زوجها فوافقت الحارسة طالما أن الاتفاق بينهما يظل فى طى الكتمان، وحـذرتها بسبابتهـا التى تصلبت من شدة التأكيد.

- إذا ما عُرف عن الأمر شىء فسوف تموتين.

وهكذا ذهب ساتورنو الـساحر إلى المصـحة العقليـة للنساء يوم السـبت التالى وهو يركب شـاحنته الصـغيـرة المهيـأة لألعاب السحر وسط الجماهير وذلك ليحتـفل بعودة ماريا. فاستقبله مدير المصحـة بنفسه فى مكتـبه النظيف والمرتب وكـأنه مركب هارب. وأبلغه برقة عن حالة زوجته. فلا أحد كان يعرف من أين أتت أو كيف أو متى ذلك. إن أول البيانات الخاصـة بتسجيلها فى الدفاتر الرسميـة قام هو بنفسه بتـدوينها عندما التقى بـها، وبعد ذلك تم إجـراء تحـرٍ فى نفس اليـوم لم يسـفـر عن أى شىء. وعلى أى الأحوال فإن كل مـا كان يهم المدير هو معرفة الكيفـية التى عرف من خلالها ساتورنو المكان الذى فيه زوجته. فما كان من ساتورنو إلا حماية الحارسة.

- لقد أبلغتنى شركة التأمين على السيارة بذلك - قال.

فما كـان من المدير إلا القبول راضيًـا بالإجابة "لست أدرى كيف يقومون بالتأمـينات حتى يعرفوا كل شئ" قال ثم ألقى نظرة على ملفها الموجود على منضدة مكتبه واختتم حديثه قائلاً:

- الشيء الوحيد المحقق هو خطورة حالتها.

كان مستعداً للموافقة على زيارته لها مع الأخذ فى الاعتبار المحاذير اللازمة إذا ما وافق ساتورنو الساحر على الالتزام بما يملى عليه وذلك حرصًا على مصلحة زوجته وخاصة فيما يتعلق بمعاملتها للحيلولة دون إثارة هيجانها الذى أصبح يتكرر بكثرة وخطورة فى الفترة الأخيرة.

- إنه لأمر غريب - قال ساتورنو - كانت دائمًا حادة المزاج، لكنها كانت تسيطر على نفسها.

أومأ الطبيب إيماءة العارف بكل شىء "هناك سلوكيات تظل ساكنة لسنوات طويلة ثم تنفجر بعد ذلك ذات يوم". قال " وعلى أى الأحوال فإن حظها الطيب جعلها تأتى إلى هنا ذلك أننا متخصصون فى حالات تتطلب العزيمة الصلبة" وفى النهاية حذره من الهوس الذى تبديه ماريا بالتليفون.

- عليك مسايرتها - قال.

- اطمئن يا دكتور - قال ساتورنو وهو يبدى مرحه - إن ذلك هو تخصصى.

كانت صالة الزيارات خليطًا من السجن وكرسى الاعتراف، وكانت هى غرفة الدردشة القديمة فى الدير، لم يكن دخول ساتورنو هو تفجر الفرحة التى كان كلاهما فى انتظارها. كانت

ماريا واقفة فى وسط الصالون إلى جوار منضدة صغيرة وإلى جوارها مقعدين واثنين من الأصص دون ورود. كان من البديهى أنها كانت جاهزة لترحل عن المكان وهى ترتدى معطفها المحزن بلون الفراولة وتلبس حذائها العجيب الذى أعطى لها على سبيل الشفقة. كانت هيريقلية تقف ولا تكاد تلمح فى أحد الأركان وهى معقودة الذراعين، لم تتحرك ماريا عندما رأت زوجها وهو يدخل، لم يبد أى انفعال على وجهها الذى لا زالت به آثار الكدمات، تبادلا القبلة الروتينية.

- كيف حالك - سألها.

- سعيدة بأنك جئت فى النهاية أيها الأرنب - قالت - كان ذلك هو الموت.

لم يسعفهما الوقت للجلوس فقد غرقا فى الدموع وقصت عليه ماريا مآسى الدير ووحشية الحارسات والطعام الذى لا تقبله الكلاب والليالى الطويلة التى تنقضى دون أن تغمض لها عين بسبب الرعب.

- أنا لا أعرف كم يومًا قضيتها هنا، أم هل كانت شهوراً أم أعوامًا، لكننى أعرف جيدًا أن كل يوم هو أسوأ من الآخر - قالت ذلك وتنهدت من أعماقها- أعتقد أننى لن أعود كما كنت سابقًا.

- ها قـد انتهى كل شئ - قـال العبـارة وهو يداعب ببنان أصابعه البـثور والندب التى فى وجهها - سـوف أظل أحضر كل سبت وأكثر من ذلك إذا ما سمح لى المدير بهذا، وسوف ترين أن كل شيء سوف يكون على ما يرام.

حدجـته بنظـرة من عينيـها الفـزعتيـن، فحاول سـاتورنو استخدام فنونه الـسحرية، فأخذ يقص عليها فـى أسلوب صبيانى الأكاذيب الكبرى ورواية مـخففة عن تشخـيص الطبيب "وإيجازاً للقول" اختتم "لا زالت أمامك بعض الأيام حتى تستردى عافيتك تماماً" عندئذ فهمت ماريا الحقيقة.

- بحق الله يا أرنبى ! قالتها بمرارة - لا تقل لى أنك أيضاً تظن أننى مجنونة!

- كيف يخطر لك هذا على البـال ! قال ذلك وهو يحاول الابتسـام - الأمر هو أنه من المناسب للجمـيع أن تظلى هنا بعض الوقت، وهذا يعنى أنك فى ظل ظروف أحسن بالطبع.

- لكنى أقول لك أننى جئت إلى هنا للاتصـال بالتليفون - قالت ماريا.

لم يعـرف كيف يكون رد فـعله إزاء هذا الهوس المخـيف، فنظر إلى هيريقلية، فانتهزت هى هذه النظرة لتشير إليه بساعتها أن زمن الزيارة قد انـتهى. أدركت ماريا الإشـارة فنظرت إلى الخلف

ورأت هيريقلية فى حالة استعداد لهجوم وشيك، وعندئذ أمسكت بكل قوة برقبة الزوج وأخذت تصيح وكأنها مجنونة حقيقية، فأبعدها عنه بكل حب قدر الإمكان وتركها تحت رحمة هيريقيلية التى هاجمتها من الخلف ولم تدع لها فرصة، كرد فعل، حتى لوت ذراعها بيدها اليسرى وطوقت بيدها الحديدية الأخرى رقبتها وصاحت فى ساتورنو الساحر.

- اذهب من هنا !

هرب ساتورنو الساحر فزعًا.

كان قد استرد أنفاسه من الرعب الذى عاشه فى الزيارة السابقة، فعاد يوم السبت التالى إلى المصحة وهو يحمل القط، وقد ألبسه ثوباً مماثلاً لما يلبسه هو: زرد مكون من اللونين الأحمر والأصفر مثل الساحر الكبير ليوناردو والقبعة الطويلة كأنها الكأس وجاكتة عريضة الياقات فى الصدر وكأنها من أجل الطيران. دخل وهو يقود شاحنته الصغيرة حتى داخل الفناء، وهناك قام بأداء الألعاب السحرية الطريفة واستمر فيها لمدة ثلاث ساعات وقد سعدت السجينات وهن فى الشرفات وأعربن عن سعادتهن بصيحات متنوعة وهتافات غير مناسبة - شهدن جميعهن العرض ما عدا ماريا " فلم ترفض فقط استقبال الزوج، بل رفضت أن تراه من الشرفة، شعر ساتورنو بأنه أصيب بطعنة قاتلة.

- إنه رد فعل تقليدى - قال المدير معزياً - وسوف يذهب عنها.

لكن رد الفعل لم يتغير أبداً، فبعد الكثير من المحاولات لرؤية ماريا وعمل المستحيل حتى تستقبل رسالة منه ذهبت جهوده سدى، فقد عادت إليه الرسائل أربع مرات وهى مغلقة ودون أى تعليق. تخلى ساتورنو عنه زياراته لكنه ظل يترك على بوابة المستشفى كمية من السجائر دون أن يعرف فيما إذا كانت تصل إلى ماريا أم لا، حتى هزمه الواقع.

لم يعرف عنه بعد ذلك أى شىء - باستثناء أنه تزوج بأخرى وعاد لبلده. وقبل أن يترك برشلونة ترك القط وهو شبه ميت من الجوع إلى خطيبة صدفة، وقد وعدت هذه الخطيبة بأن تظل على إرسال السجائر إلى ماريا، لكنها اختفت هى أيضًا. وتتذكر "روسا ريجاس" أنها رأت فى محلات "الكورت إنجليز" هذه الخطيبة منذ حوالى اثنتى عشر عامًا وكان رأسها حليقًا، وترتدى معطفاً برتقالى اللون ينتمى إلى إحدى الطوائف الشرقية. وكانت حاملاً فى شهرها الأخير. وقد قصت عليها بأنها ظلت ترسل بالسجائر إلى ماريا طالما سمحت لها الظروف. وكانت تتدخل فى حل بعض المسائل العاجلة المتعلقة بها حتى وجدت المستشفى وقد تحول إلى أنقاض. وكأنه ذكرى سيئة لتلك الأيام الكئيبة. بدت ماريا فى نظرها وقد اكتست بالحيوية فى آخر مرة

رأتها وقد زاد وزنها بعض الشيء وسعيدة بالسلام الذى يخيم على الدير. ذهبت إليها فى ذلك اليوم وهى تحمل القط وذلك لأن المال الذى تركه لها ساتورنو من أجل إطعامه قد نفذ.

رحلة طيبة يا سيدى الرئيس

(١٩٧٩)

كـان جالسًـا على المقعـد الخشـبى تحت الأوراق الصفـراء للحديقة الخالية، يتأمل البجع الذى تعلوه طبقة من التراب، يضع كلتا يديه على قـمة العصا ذات المقـبض المستدير والمكسو بالـفضة وهو يفكر فى الموت. فـعندمـا جاء إلى جـنيف لأول مرة كـانت البحيرة هادئة ورقراقة، كما كـانت طيور النورس المستأنسة تقترب لتنقـر طعامـهـا من الأكفّ. ونساء للإيجـار كـأنهن أشبـاح فى السادسة مساء وهن يرتدين فساتين بها كرانيش مصنوعة من قماش من القطن الأبيض الشـفاف ويضـعن على رؤوسهـن قبعـات من الحرير. أمـا الآن فالمرأة الوحيدة التـى يمكن أن يراها على مرمى البصـر هى بائعة الزهور فى الميناء الصغـير الخالى من البـشر. لا يكاد يصدق ما أحدثه الزمن من خراب ودمار ليس فقط فى حياته بل فى الدنيا كلها.

كان مجرد فرد آخر من أفـراد المدينة من هؤلاء المشاهير غير المعروفين يرتدى حلة لونها كحـلى بخطوط بيضاء، أما الصديرى فكان من الديبـاج، كما كـان يضع قبعـة سميكة مـثل تلك التى يضعهـا القضاة المحالون للتـقاعد، شاربه قوى وكث، أمـا شعره فيـميل إلى الزرقة وبه تموجات رومـانسية ويداه كيـدى عازف آله

وترية، وفى بنصر الْيد اليسرى، يضع خـاتم الترمل وعيناه تلمعان بالسعادة، أما الشيء الوحيد الذى لا يدل على حالته الصحية فهو ترهل الجلد، لكن رغم بلوغه الثـالثة والسبعين من العـمر كان لا يزال يتمتع بشياكة واضحة. ومع هذا ففى ذلك الصباح كان يشعر بتباعده عن كل ما يتفاخـر به المرء. فها هى أعوام المجد والجاه قد ولت ولا مناص من ذلك ولم يتبق إلا أيام انتظار الموت.

عاد إلى جنيف بعد حـربين عالميتين وذلك بحـثًا عن علاج ناجح لألم لم يستطع الأطباء فى "مارتينيكا" تحـديد ماهيته. كان من المقرر أن يمكث خمـسة عشر يومًا كـحد أقصى، لكن ها هو يقضى سبعـة أسابيع فى إجراء فحوصات مـضنية تؤدى إلى نتائج غيـر مؤكدة، ولـم تبد حـتى الآن بارقة أمل فى إنهائهـا. الأطباء يتحدثون عن موطن الألم فى كل مكان، فى الكبد، وفى الكلية، وفى البنكرياس، والبـروستاتا ولم يعثـر على أثر، وظل على هذا الحال حتى ذلك الخميس الملعون حيث ضرب له واحد من الأطباء الذين يجرون له الفحـوصات- وكان أقلهم شهرة - مـوعدًا ليأتى فى التاسعة صباحًا إلى قسم الأعصاب.

المكتب يبدو كـأنه مكان لتهجـد الرهبان، والطبيب صغـير الحجم ومتجهمًا ويده اليمنى فى الجبس لكسر فى إبهامه. وعندما أطفأ النور ظهرت صورة الأشعة الخـاصة بالعمود الفقرى لكنه لم يتعرف عليـه ويدرك أن صورة الأشعة تخصه حـتى أشار الطبيب بعصا يحدد بها التحام فقرتين فى المنطقة التى توجد تحت الوسط.

- مصدر ألمك ها هنا - قال له.

لم يكن الأمر سهلاً عليه، فقد كان الألم يتنقل من مكان إلى أخر، وأحيانًا ما يبدو أن مصدره هو الأضلاع اليمنى، وأحيانًا ينظر أسفل البطن، لكنه كثيراً ما يفاجئه بوخذة فى الحوض. سمعه الطبيب وهو صامت، لكن العصا موضوعة على الشاشة بلا حراك "ولهذا فقد بحثنا عنه فى كل مكان طوال فترة من الزمن" قال "لكننا الآن نعرف أنه هذا هو مصدر الألم" ثم وضع سبابته على الجزء العلوى من صدغه وقال:

- وبمفهوم دقيق ومحدد فكل ألم هو هنا يا سيدى الرئيس.

كان أسلوبه التشخيصى دراميًا للغاية لدرجة أن ما قاله بدا رحيمًا: فالرئيس لابد أن يجرى عملية جراحية خطيرة لا مناص منها، فسأل الطبيب عن حجم المخاطرة، فما كان من الطبيب العجوز إلا أن أغرقه بضوء القلق.

- لا يمكننا أن نحدده بوضوح - قال له.

وحتى وقت قريب، أوضح، كانت مخاطر وقوع مضاعفات جسيمة كبيرة، وخاصة إمكانية حدوث شلل بدرجات مختلفة. لكن التقدم العلمى فى الطب الناجم عن الحربين أدى إلى أن تكون هذه المخاوف تاريخًا مضى.

- كن هادئًا - استنتج - استعد للأمر، وأبلغنا، لكن لا تنس أنه كلما عجلت كان ذلك مناسبًا.

لم يكن صباحًا جيداً حتى يهضم هذا الخبر السيئ وخاصة فى التقلبات الجوية، خرج مبكراً من الفندق ولم يرتد المعطف، ذلك أنه رأى الشمس ساطعة من النافذة ثم ذهب بخطواته المعدودة ابتداء من "شيمين دى بوسولى" حيث المستشفى، متجهًا إلى المكان الذى يلجأ إليه العشاق فى الخفاء فى "الحديقة الإنجليزية"، أمضى فى هذا المكان أكثر من ساعة وهو يفكر فى الموت عندما بدأ الخريف. هاجت البحيرة كأنها المحيط وهبت رياح من كل مكان فأفزعت طيور النورس وأطاحت بما بقى من أوراق الشجر، نهض الرئيس وبدلاً من أن يشترى بعض الورود من البائعة قام بقطف زهرة الأقحوان من الأصص العامة ووضعها فى فتحة الزرار الموجودة فى ياقة الجاكتة. فاجأته بائعة الزهور:

- هذه الزهور ليست مشاعاً يا سيدى - قالت له وهى غاضبة - إنها ملك البلدية.

لم يولها اهتمامًا وأخذ يبتعد عنها بخطوات سريعة وهو يمسك عصاه من منتصفها وأحيانًا ما يطوحها فى الهواء بلا إيقاع ثابت. وعلى كوبرى "مونت بلانك" كانوا يسارعون بإنزال الرايات الخاصة "بالاتحاد الكونفدرالى" وقد كانت تهتز بشدة من

أثر الرياح. أما النافورة الملساء والمليئة بالرغوة فقد أطفئت قبل الوقت المحدد لها. ولم يتعرف الرئيس على الكافيتريا التى تعود عليها والكائنة على الميناء ذلك أنهم قاموا بدفع القماش الأخضر للمظلة، كما أغلقوا الشرفات المزدهرة. أما فى الصالون فقد أضيئت الأنوار رغم أننا في وضح النهار، كما أن الرباعية الوترية كانت تعزف موزار محذراً. مد الرئيس يده على اللوحة الخشبية الحاملة وأخذ صحيفة من المكان المخصص للزبائن، ثم قام بتعليق القبعة والعصا على الشماعة المخصصة ووضع نظارة القراءة ذات الشنبر الذهبى وجلس إلى المائدة الأكثر انعزالاً. وعندئذ أدرك فى هذه اللحظة مجىء الخريف. أخذ يتصفح الجرنان بادئًا بالصفحات المخصصة للأخبار العالمية، وقلما كان يجد أخباراً عن أمريكا اللاتينية، وواصل قراءته للصحيفة على عكس الترتيب المعتاد، وظل على هذا الحال حتى جاءت إليه النادلة وهى تحمل له زجاجته اليومية من المياه ماركة "إيفيان". كان قد أقلع عن عادته بتناول القهوة منذ ثلاثين عامًا وذلك بناء على تعليمات الأطباء، غير أنه قال: "إذا ما تأكدت من أننى سأموت بعد وقت محدد، فإننى سأعود إلى تناول القهوة"، وربما حانت هذه الساعة.

- أحضرى لى فنجان قهوة - قال هذه العبارة بلغة فرنسية سليمة ثم أكد : على الطريقة الإيطالية وكأنها قهوة لإحياء ميت - قالها دون أن يأخذ فى اعتباره ما تحمله العبارة من تورية.

تناول قهوته السادة، رويداً رويداً. وبعد ذلك قلب الفنجان فوق الطبق حتى تقوم رواسب القهوة بعد أعوام وأعوام بكتابة حظه فى المستقبل. هذا المذاق الذى استعاده أخرجه ولو للحظة من أفكاره السوداوية. وبعد ذلك بلحظة، وكأنها جزء من التكهن بالمستقبل، شعر بأن أحداً يتطلع إليه. وعندئذ قلب الصفحة فى حركة عفوية ونظر من فوق عدسات القراءة فرأى الرجل الشاحب وغير حليق الذقن وهو يضع قبعة رياضية ويرتدى جاكتة فروشاه متموجة، وفى هذه اللحظة أبعد ذلك الرجل ناظريه حتى لا تلتقى بعينيه.

كان وجهًا مألوفًا، فقد رآه بشكل عابر فى ممرات المستشفى ثم عاد ورآه فى يوم من الأيام السابقة وهو يركب دراجة بخارية صغيرة فى شارع "بروميناد دى لاك" بينما كان هو يتأمل البجع. لكنه لم يشعر أبداً أن أحداً تعرف عليه. إلا أنه لم يستبعد أن ما يحدث ليس إلا واحدة من الأوهام الكثيرة الخاصة بالملاحقات فى المنفى.

انتهى من قراءة الصحيفة دون عجلة من أمره وهو غارق فى المعزوفات "التشيلو" الرائعة لبراهامز إلى أن تغلب صوت الألم على المسكن الموسيقى، فتناول القرصين المسكنين وهى جرعة منتصف النهار واستخدم فى ذلك آخر جرعة ماء كانت أمامه. وقبل أن يخلع نظارة القراءة ألقى نظرة على الفنجان ليقرأ طالعه فشعر برعشة باردة : إذ كان الأمر مثيراً للحيرة.

وأخيراً دفع الحساب ومعه بقشيشًا ضئيلاً ثم أخذ عصاه وقبعته من الشماعة وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذى كان يتطلع إليه: ابتعد عن المكان بخطوات فيها تبختر ماراً بأصص الزهور التى حطمتها الرياح وظن أنه تحرر من القيود. لكنه سرعان ما شعر بخطوات وراءه، فتوقف عند الناصية ونظر إلى الخلف. فما كان على الرجل الذى يتابعه إلا التوقف فجأة حتى لا يصطدم به ونظر إليه بدهشة وهو على بعد ضئيل جداً عن عينيه.

- سيدى الرئيس - قال بصوت خفيض.

- قل لمن يدفعون لك ألا تأخذهم الآمال بعيداً - قالها الرئيس دون أن يطرأ أى تغير على ابتسامته أو صوته - أنا أتمتع بصحة جيدة.

- لا أحد يعرف هذا أفضل منى - قالها الرجل وقد شعر بالحرج أمام هذا الشعور بالجدارة التى أمامه - إننى أعمل فى المستشفى.

كانت النغمة والعبارة والاستحياء تدل على أنه من أعماق منطقة الكاريبى.

- لن تقول لى أنك طبيب - قال له الرئيس.

- كم كنت أود ذلك يا سيدى - قال الرجل - أنا سائق سيارة إسعاف.

- أنا متـأسف - قال الرئيس وهو على قناعـة بخطئه - إنه عمل شاق.

- ليس بنفس درجة العمل الذى تقوم به يا سيدى.

نظر إليـه بلا تحـفظ واتكأ على عـصاه بكلتـا يديه وسـأله باهتمام حقيقى"

-من أين أنت؟

- من الكاريبى

- هذا مـا تصـورته - قـال الرئيس - لكن من أى البـلاد أنت.

-من نفس بلدك يا سيـدى - قال الرجل ومد يده مصـافحًا
- أنا أدعى هوميرو ربى

قاطعه الرئيس وهو يشعر بالمفاجأة ودون أن يسحب يده من يد الرجل.

- عجبًا - قال له - يا له من اسم طيب.

خف التوتر عن هوميرو.

- وهناك مـا هو أكـثـر من ذلك أن اسـمـى بالكامل هو "هوميرو ربى دى لاكاسا"

هاجمتهما زوبعة شتوية فجأة وهما فى وسط الشارع. فشعر الرئيس بقشعريرة تسرى فى جسده وتصل إلى العظام وأدرك أنه لا يمكنه مواصلة السير دون معطف، هذه المسافة القصيرة حتى المطعم الفقير حيث اعتاد تناول طعامه.

- هل تناولت طعام الغذاء؟ سأل هوميرو.

- أنا لا أتناول طعام الغذاء أبدًا، قال هوميرو - إننى أتناول وجبة واحدة فى منزلى فى المساء.

- حاول أن تجعل هناك استثناء - قالها له بكل ما أوتى من عذوبة القول - أدعوك لتناول الغذاء.

أخذه فى ذراعه وقاده إلى المطعم الكائن فى الناحية المقابلة "اسم المطعم مطبوع باللون الذهبى على السحابة القماشية : "لوبوف كورنييه" المطعم ضيق ودافئ، ولأول وهلة بدا أنه لا توجد أماكن خالية، شعر هوميرو ربى بالمفاجأة وهو أن أحدًا لا يعرف الرئيس وواصل حتى نهاية المطعم طلبًا للعون.

- هل الرئيس لا زال يمارس مهام منصبه؟ سأله صاحب المطعم.

- لا - قال هوميرو - لقد أُقصى من منصبه.

فكانت ابتسامة الموافقة من صاحب المطعم.

- لمثل هؤلاء هناك مائدة خاصة.

قادهما إلى مكان منعزل فى آخر الصالون حيث يمكن لها الدردشة بحرية، وشكر له الرئيس ذلك.

- هم نادرون هؤلاء الذين يعترفون بجدارة من هم فى المنفى مثلما فعلت.

كان المطعم متخصصًا فى طبق معين وهو لحم ضلع الثور المشوى على الفحم، نظر الرئيس ومدعوه حولهما فشاهدا قطع اللحم الكبيرة المشوية والمقدمة للزبائن على الموائد المجاورة.. "إنه طبق رائع" همهم الرئيس، لكنى ممنوع من تناول مثل هذا الطعام، ألقى نظرة ماكرة ومداعبة على هوميرو، وغير من لهجة الحديث.

- فى الحقيقة لقد منعت من كل شىء.

- أيضًا ممنوع عليك تناول القهوة - قال هوميرو - ومع ذلك تتناولها.

- هل لاحظت ذلك؟ قال الرئيس - لكن كان هذا استثناء فى يوم خاص.

فالاستثناء الذى حدث ذلك اليوم لم يكن فى موضوع القهوة فقط، بل طلب الرئيس طبق لحم الثور المشوى على الفحم

وسلاطة بقوليات طازجة دون أى متبلات اللهم إلا بعضًا من زيت الزيتـون. وطلب المدعو نفس الشىء وأضـاف إليه نصف لتـر من النبيـذ الأحمر. وبينما همـا فى انتظار الطعام أخرج هومـيرو من جيب سـترته حـافظة أوراق ليس بها نـقود وإنما مليـئة بالأوراق، وأبرز للرئيس صـورة ذهبـت ألوانهـا، لقـد تعـرف الرئيس على صورته حيث كان يرتدى قميصًا، وكان وزنه أقل، كما كان شعره وشاربه فاحمى السواد، يقف وسط مجـموعة من الشبان تصارعوا على الظهور فى الصورة. تعرف على المكان من أول نظرة وتعرف أيضًا على الشعـارات الخاصة بحملة انتخابيـة مملة، وكذلك تذكر التـاريخ المقـيت لهـا " يا للهول!" هـمهم، لقـد قلت دومًـا إن الإنسان يعتريه التقـدم فى السن فى الصورة أكثر منها فى الواقع. وأعاد إليه الصورة بإيماءة تشير إلى النهاية.

- إننى أتذكر ذلك جـيدًا - قال - كـانت هذه الصورة فى مباراة مصارعة الديكة ببلدة "سـان كريستوبال دى لاس كاساس" منذ آلاف السنين.

- إنها قريتى - قال هوميرو وأشـار لنفسه كواحد من الذين فى الصورة - هنا هو أنا.

تعرف عليه الرئيس.

- كنت صغير السن!

- نعم - قال هومـيرو - لقد رافقت سيـادتك طوال الحملة الانتخابية فى الجنوب بصفتى زعيم اللجان الطلابية.

حاول الرئيس أن يسبق التأنيب.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيداً فيك - قال.

- على العكس من ذلـك كنت لطيـفًا مـعنا جـداً - قـال هوميرو - لكن كان عددنا كثيراً لدرجة يصعب على المرء تذكر كل هؤلاء.

- وبعد ذلك؟

- من يعرف هذا أكثر منك يا سيدى - قال هوميرو - فبعد الانقـلاب العسكرى أجـد أنه من المعـجزات أن يكون كـلانا هنا ونحن على وشـك تناول نصف ثور. هناك الكـثـيـرون الذين لم يحالفهم نفس الحظ.

وفى هذه اللحظة قُـدمت لهم الأطباق. قـام الرئيس بوضع الفـوطة على رقبـتـه كأنهـا فـوطة لطفل، ولم يكن غـير مـعنى بالصمت المفـاجئ الذى حدث لمدعوه. "إذا لم أفـعل هذا سوف أخسـر رابطة عنق فى كل وجـبة أتناولهـا" قال - وقبـل أن يبدأ تذوق درجة الشواء وأعلن موافقته بإشارة تعبر عن تلذذه. ثم عاد لنفس الموضوع.

- الأمر الذى لا أفهمه - قال - هو لماذا لم تقترب منى قبل ذلك بدلاً من السير ورائى بهذا الشكل؟

عند ذلك قص عليه هوميرو أنه تعرف عليه منذ أن رآه وهو يدخل المستشفى عبر باب مخصص للحالات الشديدة الخصوصية. كان الوقت صيفًا وكان يرتدى حلة كاملة من كتان الكاريبى الأبيض ويلبس حذاءً ذا لونين - الأبيض والأسود - وزهرة البنفسج الحمراء فى فتحة الزرار على صدر الجاكتة والشعر الجميل يداعبه الهواء. تأكد هوميرو من أنه وحده فى جنيف ولا يساعده أحد، فقد كان يعرف بذاكرته المدينة التى درس فيها القانون. وبناء على طلبه اتخذت المستشفى الإجراءات الداخلية الأمنية للمحافظة على سرية الموضوع بشكل مطلق. وفى نفس تلك الليلة كان هوميرو قد اتفق مع زوجته لإجراء اتصال معه. ومع ذلك فقد ظل يتابعه لخمسة أسابيع متوالية محاولاً البحث عن الفرصة السانحة وربما لم يكن ليتمكن من تحيته لو لم يواجهه الرئيس.

- أنا سعيد بما فعلته - قال الرئيس - رغم أنه لا ينتابنى أى ضيق لأننى وحدى هنا.

- ليس من العدل.

- لماذا؟ - سأل الرئيس بصراحة - إن أكبر نصر فى حياتى هو أننى تمكنت من جعلهم ينسونى.

- إننا نذكرك يا سيدى أكثر مما تتصور - قال هوميرو دون أن يخفى تأثره - إنه لمصدر سعادة لى أن أراك معافى ومليئًا بالحيوية.

- ومع ذلك - قال دون درامية - فكل شىء يشير إلى أننى سأموت قريبًا.

- إن احتمالات نجاح العملية عالية - قال هوميرو.

صدرت عن الرئيس قفزة مفاجأة لكن لم يفقد خفة روحه.

- عجبًا ! - صاح مستغرباً- هل لم تعد هناك أسرار طبية فى سويسرا الجميلة؟

- لا توجد أسرار تخفى على سائق سيارة إسعاف فى أى مستشفى فى العالم - قال هوميرو.

- إن ما أعرفه عن حالتى لم يمض عليه إلا ساعتين ومن خلال الرجل الوحيد الذى يجب أن يعرف السر.

- على أى الأحوال لن تموت سيادتك بلا جدوى - قال هوميرو - فسوف يقوم أحد ما بوضع سيادتك فى المكانة التى تليق وهى النموذج الحى للجدارة.

أظهر الرئيس نوعًا من الاستغراب الكوميدى.

- شكرًا لتحذيرك - قال.

كان يأكل بنفس الطريقة التى يؤدى بها كافة أنشطته: ببطء ودقة، وفى نفس الوقت كان ينظر إلى هوميرو محدقًا فى عينيه حتى إن هذا الأخير واتاه إحساس بأن الرئيس يرى ما يفكر فيه، وبعد جدال طويل وتطرق للأيام الخوالى ابتسم ابتسامه فيها دهاء.

-لقد قررت ألا أقلق على جثتى - قال - لكننى أرى الآن أن على اتخاذ بعض التدابير علىّ طريقة القصص البوليسية حتى لا يجد الجثة أحد.

- سيكون ذلك غير مجد - قال هوميرو بفكاهة - الألغاز فى المستشفى لا تستمر أكثر من ساعة.

عندما انتهيا من تناول القهوة قام الرئيس بقراءة قاع الفنجان وعادت له القشعريرة: إذ كانت نفس الرسالة السابقة. ومع ذلك لم يطرأ أى تغيير على تعبيرات وجهه. دفع الحساب نقدًا لكنه قام بالتأكد من صحة المبلغ أكثر من مرة وباهتمام زائد عن الحد، وترك بقشيشًا كان زدل النادل عليها هو الغمغمة.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيدًا فيك - قال.

- سررت بمعرفتك - قال الرئيس وهو يودع هوميرو - ليس هناك تاريخ لإجراء العملية كما أننى لم أقرر بعد إجراءها أم لا. لكن إذا ما كانت الأمور مواتية فسوف نلتقى من جديد.

- ولماذا لا يكون قبل ذلك؟ قال هوميرو - إن زوجتى "لاثارا" طباخة الأغنياء، فلا أحد مثلها يستطيع إعداد طبق الأرز

بالجمبرى ويطيب لنا أن ندعوك إلى المنزل فى إحدى الليالى القادمة.

- إن الرخويات ممنوعة بالنسبة لى لكنى سآكل ذلك الطبق بكل سرور - قال - قل لى متى؟

- إن يوم الخميس هو اليوم الذى لا أعمل فيه - قال هوميرو.

- تمام - قال الرئيس - إذن يوم الخميس فى السابعة مساء سوف أكون فى منزلك، وسوف يكون هذا مصدر سعادتى.

- سوف أمر لآخذك يا سيدى - قال هوميرو - العنوان هو فندق "دام" ١٤ شارع إندوستريا - خلف المحطة - هل هذا صحيح؟

- نعم - قال الرئيس ونهض وهو يشعر بمرض عن أى وقت مضى - على ما يبدو تعرف كل شىء حتى مقاس حذائى.

- نعم يا سيدى - قال هوميرو بمرح - المقاس هو ٤١

* * *

إن ما لم يقم هوميرو ربى بسرده على الرئيس، لكنه ظل يقصه طوال أعوام طويلة لكل من أراد أن يستمع إليه هو أن هدفه الأول لم يكن بريئًا للغاية، فهو مثل غيره من سائقى سيارات الإسعاف له اتصالاته مع شركات التجهيزات الجنائزية وشركات

التأمين لبيع بعض الخدمات داخل المستشفى وخاصة بالنسبة للمرضى الأجانب من ذوى الموارد الضئيلة. كانت مبالغ ضئيلة وفوق ذلك كان عليه أن يقوم بتوزيعها بين بعض الموظفين وخاصة هؤلاء الذين يتولون التقارير السرية بشأن المرضى من ذوى الحالات الحرجة. لكنه مبلغ يعتبر عزاء لطريد لا مستقبل له ويحاول العيش ما أمكنه هو وزوجته وطفليه بمرتب بسيط جداً.

كانت لاثارا دافيس - زوجته - أكثر واقعية إذ كانت مولدة من سان خوان فى بويرتوريكو. قصيرة وممتلئة لون بشرتها مثل لون الكرملة فى حالة ترسب. لها عينا كلبة جريئة، كانتا تتسقان اتساقًا طيبًا مع طبيعتها. تعرفت على زوجها فى قسم خدمة المرضى المعوزين فى المستشفى حيث كانت تعمل كمساعدة فى الشئون العامة وذلك بعد أن أتى بها أحد أصحاب الأموال من بلادها للعمل كمربية وبعد ذلك تركها رهن الظروف فى جنيف، تزوجا على الطريقة الكاثوليكية، ورغم أنها كانت أميرة فى بلدها كانا يعيشان فى منزل مكون من صالة وحجرتى نوم فى الطابق الثامن وهو مبنى مخصص للمهاجرين الأفارقة ليس به مصعد، لها ابنة تبلغ التاسعة من العمر اسمها باربارا وطفل فى السابعة يدعى "لاثارو، تظهر عليه الأعراض الطفيفة للتخلف العقلى.

لاثارا دافيس امرأة ذكية، سيئة الطبع لكنها ذات قلب طيب. كانت تعتبر نفسها المثال الصادق لمواليد برج الثور. إيمانها

مطلق بالتنبؤات. ومع ذلك لم تحقق حلمها بكسب لقمة العيش من خلال عملها كقارئة للطالع لأصحاب الملايين، ورغم هذا تسهم فى ميزانية المنزل ببعض الأموال التى تأتيها عرضًا، وأحيانًا ما تكون مبالغ جيدة. كان ذلك من خلال إعدادها موائد العشاء لبعض السيدات الغنيات اللائى يتباهين أمام المدعوين متظاهرات بأنهن أعددن هذه الأطباق الخاصة بمنطقة الكاريبى، أما هوميرو فهو إنسان خجول للغاية ولم يستطع أن يفعل أكثر مما يقدمه، إلا أن زوجته لم تتصور الحياة بدونه، وذلك لطهارة قلبه وذكورته - سارت أحوالهما فى البداية بشكل جيد، لكن بدأت تسوء الأمور شيئًا فشيئًا بينما الأطفال فى نمو مستمر. وبالتالى فإن هوميرو عندما اكتشف وجود الرئيس بين المرضى المهمين فى المستشفى أخذت تحدوه آمال تتجاوز المعقول.

لم يتأكدا تمامًا مما سيطلبانه منه، وبأى حق سيفعلان ذلك. فكرا فى البداية أن يبيعا له إتمام إجراءات الجنازة بالكامل بما فى ذلك التحنيط وإعادة الجثة إلى الوطن. لكنهما أخذا يعيان شيئًا فشيئًا بأن الموت لا يبدو وشيكًا مثلما تصورا فى البداية. كان الشك يأكلهما من الداخل يوم تناول طعام الغداء.

الحقيقة أن هوميرو لم يكن أبدًا زعيمًا للألوية الجامعية، أو أى شىء من هذا القبيل، وفى المرة الوحيدة التى شارك فيها فى الحملة الانتخابية كانت لحظة التقاط الصورة، التى عثر عليها فيما يشبه المعجزة وسط الملابس. والشىء الحقيقى الوحيد كان حماسه

لدرجة أجبر معها على الفرار من البلاد لمشاركته فى المقاومة الجماهيرية للانقلاب العسكرى، إلا أن السبب الوحيد الذى جعله يواصل العيش فى جنيف بعد مرور أعوام طويلة هو فقره الروحى. وعلى ذلك فإذا ما كذب كذبة أخرى لن تتغير الأمور، فالهدف هو الفوز بكرم الرئيس.

كانت أول مفاجأة لكليهما هو أن الطريد الشهير يعيش فى فندق من الدرجة الرابعة فى الحى الفقير "لاجروت" محاطًا بالمهاجرين الآسيويين وفتيات الليل. وكان يأكل وحده فى مطاعم الفقراء فى الوقت الذى نجد فيه جنيف مليئة بالمساكن الفخمة التى تليق بالسياسيين المتقاعدين. شاهده هوميرو وهو يكرر ما فعله ذلك اليوم خلال الأيام السابقة. فقد رافقه ببصره وأحيانًا ما كان قريبًا منه بدرجة تزيد عن التصرف الحكيم سواء فى نزهاته الليلية بين الحيطان الكئيبة وأصص النباتات الصفراء اللون فى المدينة العتيقة. رآه وهو مستغرق فى التفكير أمام تمثال "كالفينو"، وصعد خلفه، خطوة بخطوة، ذلك السلم الحجرى الذى تملؤه رائحة الياسمين الخانقة، وذلك ليتأمل لحظات الغروب البطيئة من على قمة "بورج لوفور" رآه ذات ليلة وهو تحت أول قطرات المطر دون معطف وشمسية تقيه ضمن طابور من الطلاب ليشاهد حفلاً موسيقيًا "لروبينتين" "لست أدرى كيف لم يصب بالبرد" قال هذه العبارة لزوجته. وعندما بدأت أحوال الطقس تتغير يوم

السبت الماضى رآه وهو يشترى معطفًا له رقبة من جلد "الفيزون" الصناعى ولم يشتر المعطف من المحلات ذات فترينات العرض الكائنة فى شارع/ رون حيث المكان المعتاد الذى يقوم الأمراء الهاربون بشراء احتياجاتهم منه، بل اشتراه من "سوق لاس بوجاس".

-إذن ليس هناك ما يمكن عمله - قالت لاثارا متعجبة عندما قص عليها هوميرو ذلك - إنه بخيل بخلاً رهيبًا وهو قادر على قبول دفنه فى مقبرة خيرية جماعية. ولن نخرج منه بشىء.

- ربما كان فقيراً بالفعل - قال هوميرو - بعد أن قضى أعوامًا طويلة دون عمل.

- آه، أيها الأسود، هناك فرق بين أن تكون من برج الحوت الأصيل وبين أن تكون جبانًا - قالت لاثارا - فكل الناس يعرفون أنه استولى على ذهب الحكومة وأنه الطريد الأكثر غنى فى مارتينيكا.

كان هوميرو الذى يكبر زوجته بعشرة أعوام قد ترعرع وهو يعيش تحت تأثير المقولة التى تتحدث عن أن الرئيس درس فى جنيف وكان أثناء الدراسة عامل بناء، أما لاثارا فقد تربت على الفضائح التى تنشرها الصحافة المعادية والتى تضخم منها الحوارات فى منازل الأسر التى تنتهج سياسة معادية له. وكانت على هذا

الحال منذ نعومة أظافرها، تقوم بتربية الأطفال، لذلك فإن هوميرو عندما جاء متهللاً لتناول طعام الغداء مع الرئيس لم تقتنع زوجته بأنه تناول الغداء فى مطعم مرتفع المستوى. فقد ضايقها أن هوميرو لم يطلب من الرئيس شيئًا مما كان يحلم هو به مثل الحصول على منحة دراسية لولديه، أو الحصول على وظيفة أفضل فى المستشفى. وبدا فى نظرها أن ما حدث إنما يؤكد شكوكها فى أن الرئيس يفضل أن يلقوا بجثته إلى النسور بدلاً من إنفاق الفرنكات على إجراءات جنائزية لائقة وعودة كريمة إلى أرض الوطن. وما زاد الطين بله هو الخبر الذى فضل هوميرو أن يطرقه فى النهاية والمتمثل فى دعوته للرئيس لتناول الأرز بالجمبرى مساء الخميس فى المنزل.

- هذا ما كان ينقصنا- صاحت لاثارا - وهو أن يموت هنا بالتسمم من جراء تناوله الجمبرى المحفوظ ويكون من المحتم علينا أن ندفنه وندفع فى سبيل هذا مدخرات الأطفال.

كان وفاؤها كزوجة هو العنصر الأساسى الذى حسم الموقف، فقد طلبت من إحدى جاراتها ثلاثة أطقم مائدة من المعدن المطلى، وطبقًا للسلطة مصنوعًا من الزجاج. وطلبت من جارة أخرى ماكينة القهوة الكهربائية، ومن ثالثة مفرشًا مطرزاً وطقم صينى لتناول القهوة، كما قامت بتغيير الستائر القديمة ووضعت الجديدة مكانها، وانتزعت الكسوة من على قطع

الأثاث، وأمضت يومًا كاملاً وهى تنظف البلاد وتزيل الأتربة وتغير أماكن محتويات المنزل، ووصل بها الأمر إلى نتائج عكسية إذ كان من الأولى بها إثارة استعطاف الضيف بديكور الفقر.

وفى مساء الخميس صعد الرئيس الأدوار الثمانية، وبعد أن استرد أنفاسه توجه إلى الباب وهو يرتدى المعطف الجديد القديم والقبعة ذات اللون المائل للخضرة التى تنسب إلى أزمنة مضت، يحمل فى يده زهرة واحدة ليقدمها إلى لاثارا. تأثرت هى كثيراً بوسامته كرجل وتصرفاته كأمير، أضف إلى ما سبق أنها رأته على نفس الحال الذى تصورته، أى مزيفًا وانتهازيًا. بدا لها قليل الحياء، فقد كانت تطهو الطعام فى المطبخ والنوافذ مفتوحة حتى لا يملأ بخار طهى الجمبرى جو المنزل، وكان أول شىء فعله عند الدخول هو أن أخذ شهيقًا عميقًا وكأنه فى حالة انتعاش مفاجئة وصاح متعجبًا وهو مغمض العينين ويفرد ذراعيه: "آه، إنها رائحة بحرنا" بدا لها أكثر بخلاً مما تصورت ذلك أنه أتى لها بوردة واحدة سرقها - بلا شك - من الحدائق العامة. وبدا لها أنه سليط وذلك لنظرته التى تحمل معنى الاحتقار لقصاصات الصحف التى تتحدث عن مآثره عندما كان رئيسًا وكذا رموز وأعلام الحملة الانتخابية التى قام هوميرو بتثبيتها على حوائط المنزل بروح تعكس طيبة القلب. بدا لها أنه غليظ القلب فهو لم يقم بتحية لاثارو أو أخته بربارا رغم أنهما قاما بشراء هدية له، كما أنه أثناء تناول

طعام العشاء تحدث فى موضـوعين لا يمكن لها تحملها: الكلاب والأطفال . كرهته، ورغم ذلك تغلبت عليها طبيعة أهل الكاريبى فى إظهـار الاحتـرام والود، وها هى قد لبـست الحذاء الأفـريقى المعتاد فى ليالى الفرح، كـما لبست الأساور والأطواق التى تحمل صور القديسين، ولـم تفـعل أو تتلفظ بكلمة واحدة تزيد عن الحد طوال العشـاء، كانت فى وضع لا تلام فيـه على شيء: تصرفت تصرفًا سليمًا.

والواقع أن طبق الأرز بالجـمـبـرى ليس من الأطبـاق التى تحسن إعـدادها، لكنها أعدته بكل مـا تملك من استعـداد، وكان طبقًـا جيـداً جداً، فلقـد تناول الرئيس أكثـر من طبق، وبالغ فى الإطراء على الطعـام وأعجبـته شـرائح الموز المقلية وكـذا سلاطة الأفوكاتو. إلا أنه لـم يتفق معها فى الحـديث عن الأيام الخوالى. تحملت لاثارا الاستماع لحديثه حتى حان موعد تقديم الحلو وذلك عندمـا دخل هوميـرو فى حـارة مسـدودة - دون أن يكون هناك مبرر- تتعلق بوجود الله.

- نعم أنا أؤمن باله - قال الرئيس - لكن هذا ليس له صلة بالبشر- فدائرة اهتمامه أكبر من ذلك.

-أنا أؤمن فقط بالفلك - قـالت لاثارا وحاولت جس نبض رد فعل الرئيس - فى أى يوم ولدت سيادتك؟

- الحادى عشر من شهر مارس.

- لابد أن يكون ذلك اليوم - قالت لاثارا بقفزة فيها انتصار وسألت بتؤدة- ألن يكون هناك تجاوز عندما يجلس اثنان من برج الحوت على نفس المائدة؟

ظل الرجال يتحدثون عن الله عندما دخلت المطبخ لتعد القهوة، قامت برفع أوانى الطعام وكانت شديدة الأمل فى أن تنتهى الليلة على خير، وعندما عادت إلى الصالة وهى تحمل القهوة سمعت عبارة نطق بها الرئيس جعلتها تشعر بالحيرة.

- لا يخالجك شك فى هذا يا صديقى العزيز: إن أسوء شىء كان يمكن أن تمر به بلادنا هو أن أكونُ أنا رئيسًا.

. رأى هوميرو لاثارا وهى على الباب تحمل فناجين الصينى وماكينة القهوة التى استعارتها من الجيران، فظن أنها على وشك السقوط لفقدانها التوازن. كما حدث فيها الرئيس أيضًا "لا تنظرى إلىّ بهذا الشكل يا سيدتى" قال العبارة بنغمة مرحة "إننى أتحدث من قلبى" ثم توجه إلى هوميرو قائلاً:

- الحمد لله أننى أدفع سعرًا عاليًا لتهورى.

قامت لاثارا بصب القهوة وأطفأت اللمبة المضاءة فى وسط المائدة ذلك أنها كانت تشكل عائقًا بضوئها لمواصلة الحوار، فاكتست الصالة بضوء ضعيف حميم. ولأول مرة تبدى اهتمامها بالضيف الذى لم تغط خفة روحه على حزنه. فزاد فضول لاثارا

عندما انتهى من تناول القهوة وقلب الفنجان فوق الطبق ليقرأ طالعه.

قص الرئيس عليها بعد تناول العشاء أنه اختار جزيرة مارتينكا لتكون ملاذاً له وذلك لصداقته للشاعر/ حاييم قيصر الذى نشر مؤخراً "كراسة العودة إلى مسقط الرأس" وساعده على أن يبدأ حياة جديدة، ثم قام هو وزوجته باستخدام ما بقى لهما من مال ورثته زوجته واشتريا منزلاً مصنوعًا من الأخشاب الجيدة فى تلال "فورت دى فرانس" تغطى نوافذه شباك معدنية وله شرفة تطل على البحر وقد امتلأت بالزهور البرية حيث كان النوم وسط صوت الحشرات الليلية والنسمة المحملة برائحة العسل والرون المصنوع من قصب السكر الذى يبيعه الجائلون نوعًا من المتعة. وظل هناك هو وزوجته التى تكبره بأربعة عشر عامًا والتى أخذت تعانى من المرض منذ ولادتها الوحيدة. وقد تحصن ضد الزمن بقراءة شغوفة ومتكررة للكلاسيكيين من اللاتين باللغة اللاتينية وكان على قناعة بأن ما يفعله هو آخر مرحلة فى حياته، وظل لأعوام طويلة يقاوم الإغراءات فى القيام بمغامرات يوحى له بها زملاؤه المهزومون.

- لكننى لم أفض أى رسالة - قال - وذلك بعد أن اكتشفت أن أكثر الرسائل استعجالاً كانت لا تستحق ذلك فى الحقيقة - بعد مرور أسبوع وأنه بعد مرور شهرين لم يعد ذلك الذى أرسلها يتذكر فحواها أو أنه حررها.

نظر إلى لاثارا وهى تشعل سيجارتها وسحبها بسرعة من بين أصابعها وأخذها ثم حبس الدخان فى حلقه. شعرت لاثارا بالمفاجأة فأخذت العلبة والكبريت لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد السيجارة المشتعلة إليها، "دخنى سيادتك بكل راحة، الأمر هو أننى لم أستطع المقاومة" قال لها، لكن سرعان ما أخرج الدخان من فمه فقد كان على وشك التعرض للكحة.

- لقد أقلعت عن هذه العادة منذ سنوات عديدة، لكنها لم تقلع عنى بالكامل - قال - فقد استطاعت هزيمتى فى بعض الأحيان، مثلما هو الحال الآن.

هاجمته الكحة مرتين. ها هو الألم قد عاد، نظر الرئيس فى ساعة الجيب وتناول القرصين ثم نظر إلى قاع الفنجان: لم تتغير الأمور، لكنه لم يشعر هذه المرة بالقشعريرة.

- هناك بعض من أنصارى تولوا الرئاسة من بعدى - قال.

- إنه "ساياغو" قال هوميرو.

- هو وغيره - قال الرئيس - وكلهم مثلى : قمنا باغتصاب شرف لا نستحقه بأن مارسنا مهنة ولم نكن ندرى ماذا نفعل فيها. فهناك البعض الذين يريدون السلطة لكن أغلبهم يبحثون عما هو أقل من ذلك وهو الوظيفة.

شعرت لاثارا بالغيظ.

- هل تعرف سيادتك ما يقولونه عنك؟ سألته.

شعر هوميرو بالحرج فتدخل

- إنها أكاذيب.

- هى أكاذيب وليست كذلك - قال الرئيس بهدوء سماوى
- فإذا ما كان الموضوع هو الرئيس فإن أسوأ شىء يمكن أن يتمثل فى اجتماع النقيضين: الكذب والصدق.

كان قد عاش فى مارتينيكا كل أيام المنفى ولم يكن له أى صلة بالعالم الخارجى إلا من خلال الصحيفة المحلية الرسمية، وأخذ يعيش من عائد مادى يحصل عليه من دروس بالأسبانية واللاتينية فى مدرسة رسمية، وكذلك من خلال الترجمات التى كان يكلفه بها حاييم قيصر.

الحر لا يحتمل فى أغسطس، يظل فى السرير حتى منتصف النهار وهو يقرأ تحت المروحة الكائنة فى غرفة النوم. أما زوجته فكانت تعنى بالعصافير التى كانت تربيها وهى طليقة. ورغم ذلك فعندما تشتد وطأة الحر تحمى نفسها باستخدام قبعة من القش ذات أجناب عريضة تزينها الفواكه الصناعية والزهور الحمراء. وعندما تنكسر موجة الحر كان من المناسب الترويح عن النفس بالجلوس فى الشرفة. كان يحملق دائمًا فى البحر حتى يغرق فى الظلام، أما هى فكانت على سريرها المعلق المصنوع من الخيزران وتضع على رأسها قبعة مهلهلة، كما تضع الإكسسوارات فى كل

أصابعها، وتتأمل السفن المارة "هذه السفينة ذاهبة لترسو فى ميناء بويرتوسانتو" كانت تقول، "وهذه الأخرى لا تستطيع مواصلة الإبحار لثقل حمولتها من الغينيين من أهالى "بويرتوسانتو" تقول: الأمر أن كل السفن التى تعبر كانت، فى نظرها، من بلادها. أما هو فقد كان يتصنع عدم القدرة على الاستماع، ورغم ذلك استطاعت أن تنسى وتكون فى وضع أفضل منه إذ فقدت ذاكرتها فى النهاية.

كانا على هذا الحال حتى مغيب الشمس ثم يدخلان الدار وقد أصابهما الإعياء بسبب طنين الناموس. وأثناء ليلة من ليالى شهر أغسطس وبينما كان يقرأ الصحيفة فى الشرفة قفز الرئيس قفزة استغراب.

- عجبًا - قال - لقد واتتنى المنية فى استوريل.

فزعت زوجته للنبأ وهى جالسة تخفف عن نفسها وطأة الحر. ورد النبأ فى ستة سطور على الصفحة الخامسة من الصحيفة التى تطبع على الناصية المجاورة. كما كان ينشر فيها ترجماته. وفوق هذا كان رئيس تحريرها يتردد عليه لزيارته بين الحين والآخر. والآن يقول النبأ أننى توفيت فى مدينة استوريل لشبونة، المكان الذى يرتاده الطاعنون فى السن فى أوروبا للاصطياف، كما أنه لم يزر هذا المكان وربما كان المكان الوحيد فى العالم الذى لا

يرغب أن يموت فيه. وبالفعل توفيت الزوجة بعد عام من هذا التاريخ، وكانت فى أيامها الأخيرة تعيش حالة هوس تتمثل فى الابن الوحيد الذى كان قد شارك فى الإطاحة بوالده وقام شركاؤه بإطلاق النار عليه بعد ذلك.

تنهد الرئيس: "هكذا نحن ولا شىء يمكن أن يغيرنا" قال "إنها قارة مليئة بحثالة الدنيا كلها وليس فيها لحظة حب: إنهم أبناء الاختطاف والاغتصاب والمعاملة الدنيئة والخداع والأعداء مع الأعداء" ثم نظر إلى عينى لاثارا الأفريقيتين، حيث كانت تتفحصه بلا رحمة وحاول تهدئتها بوسائله وهو العجوز المحترف.

- إن كلمة المهجن تعنى خلط الدموع مع الدم الذى يجرى، فما الذى يمكن أن نأمله من هذا الكوكتيل الكريه؟

تركته لاثارا جامداً فى مكانه، وذلك بصمت القبور الذى أصبحت عليه. لكنها استطاعت أن تتحامل على نفسها قبل منتصف الليل بقليل وودعته بقبلة رسمية. عارض الرئيس أن يقوم هوميرو بمرافقته إلى الفندق، لكنه لم يحل دون مساعدته له فى الحصول على تاكسى. وعندما عاد هوميرو إلى المنزل وجد امرأته فى شدة الغيظ.

- إن هذا هو أفضل رئيس تمت الإطاحة به فى العالم - قالت - إنه ابن قحبة.

ورغم ما بذله هوميـرو من جهد لتهدئتـها ظلا الليل بطوله دون نوم، اعترفت لاثارا أنه واحد من أجمل الرجال الذين رأتهم ولديه قدرة هائلة على المغـازلة وفحولة واضحـة "إذا كان هذا هو ما عليه من الشيخوخة وسوء الأحوال فلابد وأنه أسد فى السرير" قالت لكنها كانت تظن أن هذه العطايا الإلهية لن يساء استخدامها بأن تكون غطاء مظهريًا.

لم تتحمل هوسه بأنه كـان أسوأ رئيس لبلده - ولم تتحمل تظاهره بالورع، بل كـانت على يقـين بأنه يملك نصف مـا على ظهر مارتينيكا. لم تتـحمل أيضًا نفاقه فى تحقـيره للسلطة، وكان واضحًا عندها أنه على استعداد للتضحية بكل شيء ليعود للرئاسة ولو للحظة، وذلك حتى يجعل أعداءه يلحسون التراب.

- كل هذا - اختتمت عبـارتها - من أجل أن يرانا راكعين على قدميه.

- ما الذى يمكن أن يجنيه من وراء هذا؟ قال هوميرو.

- لا شيء - قالت - كل ما فى الأمر هو أن الدلال خصلة لا ترتوى أبدًا.

كان غيظها شديدًا لدرجة أن هوميرو لم يتحملها فى السرير معه، فذهب ليقضى مـا تبقى من الليل على كنبة فى الصالة وهو يلتـحف البطانية. نهـضت لاثارا هى أيضًا عنـد الفجر، وكـانت عـارية تمامًا كـما هـى عادتهـا فى النوم عندمـا تكون فى المنزل.

أخذت تتـحدث مع نفـسهـا. وفى لحظة محت من ذاكـرتها ومن ذاكرة الإنسـانية كل مـا يتعلق بذلك العـشاء غيـر المرغوب فـيه. فأعادت الأشـياء المستعارة إلى جـاراتها. وغيرت السـتائر الجديدة وعادت لوضع القـديمة، ووضعت قطع الأثاث فى مكانهـا حتى أصبح المـنزل على حالة الفـقر والبـساطة - كمـا كان قـبل الليلة السابقة، وأخيـراً انتزعت القصاصات الصحـفية والصور والمرايات والرموز الخاصة بالحملة الانتخابية البغيضة - وألقت بكل شىء فى سلة الزبالة - وهى تصيح:

- إلى الجحيم.

بعد أسـبوع من دعـوة العشـاء وجد هوميـرو الرئيس وهو ينتظره عند مدخل المسـتشفى رجاه أن يرافقـه إلى الفندق. صعدا الأدوار الثلاثـة حتى وصلا إلى فـراغ عليه قـبة تفـصل المبنى عن السماء الملبدة، كما يمر من تحت هذه القبة حبل غسيل عليه بعض الملابس.

كان هناك أيضًـا سرير كبيـر يشغل نصف المساحة الخـالية، وكرسيًا بسيطًا وإبريقًا لغسل الأيدى، وحوضاً صغيراً متنقلاً لغسل الأرجل، وكذلك دولابًا مـتواضعًا به مرآة قـديمة، لاحظ الرئيس ما على وجه هوميرو من انطباع.

- إنه نفس المكان الذى عـشت فيه سنوات دراسـتى - قال هذه العـبارة وكـأنه يعتـذر - وقد احـتفظت به منذ "فـورت دى فرانس".

أخرج شنطة من القطيفة وفرش على السرير آخر ما معه من موارد: عدة أساور ذهبية مطعمة بعضـها بالأحجار الثمينة، وعقداً من اللؤلؤ بثلاث أفرع، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الثمينة، وثلاثة سلاسل ذهبية معلق بها ميداليات تحمل صور القديسين، وزوج من الحلقان الذهبية المطعمة بالزمرد، وزوج آخر من الماس وثالث من الياقوت الأحمر، وقطعتان من القطع الأثرية وعلبة من المعادن الثمينة لحفظ خصلات الشعر، وإحدى عشرة قطعة حلى بها أنواع مختلفة من المعادن الثمينة. وكذا تاج من البرلنت لابد وأنه كان لملكة. وأخرج بعد ذلك عليه علبة أخرى بها ثلاثة أزواج من الأزرار المصنوعة من الفضة وزوجين آخرين من الذهب ولكل واحد منها المشبك الخاص برابطة العنق، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض. وأخيراً أخرج من صندوق للأحذية النياشين الستة التى حصل عليها: اثنين من الذهب وآخر من الفضة، أما الأخرى فهى من المعادن العادية.

- هذا كل ما تبقى لى فى هذه الحياة - قال.

لم يكن أمامه مخرج آخر إلا بيع كل ما يملك من أجل سداد مصاريف العلاج، وكان يريد أن يقوم هوميرو بهذه المهمة فى سرية مطلقة، ومع ذلك شعر هوميرو بعدم قدرته على المساعدة طالما أنه لا توجد لديه الفواتير الرسمية.

شرح له الرئيس أن هذه هى متعلقات زوجته التى ورثتها عن جدتها من العصر الاستعمارى، وهذه الأخيرة كانت قد ورثت مجموعة من الأسهم فى أحد مناجم الذهب فى كولومبيا. أما الساعة والأزرار والدبابيس الخاصة برابطة العنق فهى لى. ومن المعروف أن النياشين لم تكن لأحد قبله.

- لا أعتقد أن أحداً يمكن أن تتوفر لديه فواتير بهذا الشكل - قال.

أصر هوميرو على موقفه.

- فى هذه الحالة - قال الرئيس بتمعن - لن يكون أمامى إلا مواجهة الموقف بنفسى.

أخذ يجمع قطع الحلى بهدوء محسوب" أرجوك أن تعذرنى يا صديقى هوميرو وذلك أنه ليس هناك فقر أسوأ من الفقر الذى عليه رئيس" . قال له "لدرجة أن محاولة التغلب على مصاعب الحياة تكتنفها التنازلات" ، وفى هذه اللحظة، رق له قلب هوميرو وأسلم له قياده.

عادت لاثارا متأخرة إلى المنزل ذلك المساء، ورأت الحلى وهى تعكس ضوء حجرة الطعام، وتغيرت ملامحها كأنها رأت عقرباً فى سريرها.

- لا تكن فظًا أيهـا الأسود - قـالت مفـزوعة - لماذا توجـد هذه الأشياء هنا؟

زاد كلام هوميرو وشرحه من قلقها، وجلست لتتأمل الحلى واحدة بعد الأخـرى وكأنها أحد خبـراء هذه المصنوعات، تنهدت فى لحظة "لابد وأن المقـابل مـبلغ ضـخم" ثم أخـذت تنظر إلى هوميرو بعد ذلك وهى لم تجد بعد مخرجًا لهذا الارتباك.

- يا للمصيبة - قالت - ما الذى يمكن أن يفعله المرء حتى يتأكد من أن كل ما يقوله هذا الرجل هو الحقيقة؟

- ولم لا؟ قال هوميـرو - لقد رأيته منذ وقت قـصير وهو يغسل ملابسه ويتركها لتجف فى الحجرة مثلما نفعل نحن بتعليقها على السلك.

- لأنه بخيل - قالت لاثارا.

- أو لأنه فقير - قال هوميرو.

عادت لاثارا لتـتفرج على الحلى، لكن بدرجة اهتـمام أقل ذلك أنها كانت تشـعر بالهزيمة. وعلى ذلك فصبـاح اليوم التالى ارتدت أفضل ما لديهـا من ثياب ووضعت الحلى التى بدت أغلى شىء فى نظرها ووضعت أكثـر من خاتم فى كل واحد من أصابع يديهـا بما فى ذلك الإبهـام، وكذلك بعض الأسـاور فى كل ذراع

وذهبت لتبيع كل ذلك. "لنرى من الذى سيطلب من لاثارا ادفيس فاتورة" قالت وهى خارجة وقد غمرتها ابتسامة فيها شموخ. اختارت محل الذهب المناسب، ظاهره الفخامة لكنه ليس شهيراً، وكانت تعرف أن عمليات البيع والشراء تتم دون أسئلة كثيرة. دخلت المحل وهى تشعر بالفزع لكنها ثابتة الخطا.

قام أحد البائعين الذين يرتدون الزى الخاص بالمحل بإيماءة مسرحية مقبلاً يدها. كان رجلاً نحيفًا وشاحب اللون. ووضع نفسه فى خدمتها. كان داخل المحل واضحًا وضح النهار وذلك بفضل الفترينات والأضواء الكثيرة. بدا المحل كأنه من الماس. واصلت لاثارا طريقها إلا داخل المحل دون أن تنظر إلى الموظف خوفًا من أن يكشف هذه التمثيلية.

دعاها الموظف للجلوس أمام واحد من المكاتب الثلاثة من طراز لويس الخامس عشر والتى تستخدم كفترينات فردية. ثم قام بفرد منديل نظيف فوق المكتب وجلس فى مواجهة لاثارا وانتظر.

- ماذا يمكن أن أقدم لك يا سيدتى؟

أخذت تخلع الحلى من الخواتم والأساور والعقود والأقراط وكل ما كانت تضعه وتضع كل ما تخلعه على المنضدة فى ترتيب كأنه قطع شطرنج. إن الشىء الوحيد الذى أريده - قالت - هو معرفة القيمة الحقيقية لكل هذا.

وضع بائع الحلى العدسـة على عينه اليسرى وأخـذ يفحص الحلى فى صمت كأنه فى عيادة. وبعد وقت ليس بالقصير، ودون أن تتوقف عملية الفحص سأل:

- من أين أنت يا سيدتى؟

لم تكن لاثارا تتوقع سؤالاً مثل هذا.

- آه يا سيدى - تنهدت - من مكان بعيد جداً.

- أتصور ذلك - قال.

عاد إلى صمته بينـما تقوم لاثارا بتفحصه بعينيـها الذهبيتين الحادتين بلا رحمة. أولى الجواهرجى اهتمامًا خاصة بالتاج الماسى ووضعه فى مكان خاص بعيداً عن باقى الحلى. تنهدت لاثارا.

- إنك يا سيدى من برج العذراء - قالت.

لم يتوقف الجواهرجى عن فحص القطع.

- وكيف تعرفين؟

من خلال كينونة المرء - قالت لاثارا.

لم يعلق بشىء حتى انتهى من عمليـة الفحص وتوجه إليها بنفس درجة الاحترام التى بدأ بها.

- ما هو مصدر كل هذا؟

- إنه ميراث من جدتى - قالت لاثارا بصوت متوتر - ماتت العام الماضى فى باراماريبو عن عمر يناهز السابعة والتسعين.

عندئذ نظر الجواهرجى فى عينيها "أنا شديد الأسف" قال لها "إن الشىء الوحيد الذى له قيمة فى كل هذا هو الوزن" وبعد ذلك أخذ التاج بأطراف أصابعه فأخذ يعكس الضوء الشديد المنبعث من المحل.

- ما عدا هذه القطعة - قال - إنها قديمة جداً - وربما كانت مصرية، وبالتالى قد لا يمكن تقدير ثمنها اللهم إلا بسبب الحالة السيئة التى عليها الماسات، على أى الأحوال لها قيمة تاريخية.

أما باقى الأحجار المرصعة بها قطع الحلى الأخرى، من الزمرد والجمشت والأوبال والياقوت إلى غيرها فكلها فالصو "ومما لا شك فيه أن القطع الأصلية كانت ممتازة" قال الجواهرجى وهو يجمع القطع لإعادتها إليها، لكن مع توالى الأجيال ذهبت القطع الأصلية وأخذت تحل محلها قطعًا زجاجية. شعرت لاثارا بالغثيان القوى فأخذت نفساً عميقاً وسيطرت على فزعها. أخذ البائع يهدئ من روعها.

- هذا يحدث كثيراً يا سيدتى.

- أعرف ذلك - قالت لاثارا وهى تشعر بعودة الهدوء إلى نفسها - ولهذا أريد التخلص منها.

عندئذ شعرت أنها تجاوزت حدود التمثيلية وأخذت تسترد سيطرتها على نفسها. وبدون المزيد من اللف والدوران فتحت شنطتها وأخرجت الأزرار والساعة الذهبية ومشابك رابطة العنق والقلادات الذهبية والفضية ووضعت كل شيء على المنضدة.

- وهذا أيضًا؟ سأل الجواهرجى؟

- كل شيء - قالت لاثارا.

كانت أوراق العملة من الفرنكات السويسرية جديدة لدرجة أنها خشيت أن تتسخ أصابعها من أحبار هذه الأوراق. أخذت النقود دون عدها، وودعها الجواهرجى حتى الباب بنفس الطريقة التى استقبلها بها. وعندما أصبحت على الباب وهو يمسك الضلفة الزجاجية ليفسح لها الطريق قال:

- هناك شيء آخر يا سيدتى - قال - أنا من برج الدلو.

عند حلول المساء ذهبت كل من لاثارا وهوميرو إلى الفندق ومعهما ثمن الحلى. وبعد القيام بعمليات حسابية كان قد تبقى مبلغ صغير للوفاء بالمصاريف، وعلى ذلك أخذ الرئيس ينتزع بعض الحلى التى يضعها ويلقى بها على السرير بادئًا بدبلة الزواج وساعة الجيب والدبوس الخاص بالكرافتات الذى كان يستخدمه.

أعادت إليه لاثارا الدبلة.

- ليس هذا - قالت لاثارا - فتذكار مثله لا يمكن بيعه.

قبل الرئيس ذلك، ووضع الدبلة، أعادت إليه لاثارا ساعة الجيب التى كان يضعها فى الصديرى "وهذا أيضًا" قالت - لم يكن الرئيس على اتفاق معها فى هذا لكنها وضعت له الساعة فى مكانها.

- من هو ذلك الذى يفكر فى بيع ساعات فى سويسرا؟

- لقد بعنا واحدة - قال الرئيس.

- نعم لكن ليس لأنها ساعة بل لما فيها من ذهب.

- هذه أيضًا ذهبية - قال الرئيس.

- نعم - قالت لاثارا - يمكن لك ألا تجرى العملية ولكن لا يمكن لك ألا تعرف كم الساعة.

ولم تقبل أن يبيع الشنبر الذهبى لنظارته رغم أنه كان لديه نظارة أخرى. وضعت القطع فى يدها كأنها تزنها ثم وضعت نهاية للشكوك.

- كما أن ما معى - قالت - يكفى للوفاء بالمبلغ المتبقى.

قبل أن تخرج قامت بأخذ الغسيل دون أن تأخذ رأيه وذهبت به لتجففه وتقوم بكيه فى المنزل. ركبا الدراجة البخارية.

كان هوميرو يقـوم بالقيادة أما هى فقد ركبت علـى الشبكة الخلفية وهى تحتضنه، ومنذ فـترة قصيرة أضـيئت الأنوار فى الشوارع فى ذلك المساء البنفسجى. كـانت الرياح قد قضت على آخر الأوراق الجافة وأضحت الأشـجار كأنها حجريات منتـوفة الريش، وكانت هناك شاحنة تمر من شـارع / رودانو وفيها مذياع مـرتفع الصوت أخذ يمـلأ الشوارع بالموسيقى. كـان المغنى هو "جورج براسنى" وتقول كلمات الأغنية بالفرنسية:

يا حبيبى اقبض على عصاك جيدًا، سوف يمضى الزمن من هناك، هذا الزمن البـربرى من هو من نوعـية أتيـلا، عندما يمـر حصانه لا يندفع الحب.

كان هومـيرو ولاثارا يجـريان فى صمـت وقد أسكرتهـما الأغنية ورائحة الزهور الحمراء، بعد هنيـهة بدت وكأنها استيقظت من حلم.

- يا للكارثة - قالت

- ماذا؟

- إنه العـجوز المسكين - قـالت لاثارا - يا لهـا من حيـاة تعسة!

* * *

ويوم الجمعة التالى الموافق السابع من أكتوبر أجريت للرئيس جراحة استمرت خمس ساعات، وكانت المحصلة أن كل شيء ظل على ما هو عليه سابقًا، وكان عزاؤه الوحيد هو أنه لا زال حيًا، وبعد مرور عشرة أيام نقلاه إلى غرفة مشتركة مع بعض المرضى الآخرين وأمكن لهما زيارته. كان إنسانًا آخر. فقد بعض إدراكه وبه هزال وأصبح شعره واهنًا لدرجة أنه كان يتساقط عندما يلامس المخدة. ولم يبق له من قدراته السابقة إلا مرونة الحركة فى يديه.

كانت حالته مثيرة للأسى عند أول محاولة للسير على عكازين صُمما لهذا الغرض. وكانت لاثارا تقضى الليل إلى جواره لتوفر عليه نفقات ممرضة ليلية. فى الليلة الأولى أخذ أحد المرضى فى الحجرة يئن بصوت عال طوال الليل خوفًا من الموت، وقد أدت الليالى التى لا تنتهى إلى ضرب المعاول فى مقاومة لاثارا.

خرج من المستشفى بعد أن قضى أربعة أشهر فى جنيف. قام هوميرو الذى كان يشرف إشرافاً دقيقاً على مدخراته الضئيلة، بسداد مصاريف المستشفى وحمله فى سيارة الإسعاف ومعه بعض الموظفين ليساعدوه فى الصعود به إلى الدور الثامن. وهيأوا له حجرة الأولاد اللذين لم يتعرف عليهما أبداً. وأخذ بعد ذلك يستعيد وعيه بالواقع المحيط. أخذ يهتم بتمرينات العلاج الطبيعى

متبعاً نظاماً صارماً حتى عاد للسير مستخدماً عكازاً واحداً فقط. ورغم أنه عاد لارتداء أفضل الملابس الخاصة به إلا أنه لم يعد أبداً إلى سابق عهده سواء فى الشكل العام أم فى الطباع. فقد أصبح شديد الخوف من الخريف الذى أخذ يعلن عن نفسه بقسوة، وكان أقسى خريف تمر به المدينة منذ بداية القرن. قرر العودة إلا بلاده على متن سفينة تبحر من مرسيليا يوم الثالث عشر من ديسمبر. كان القرار مخالفاً لنصائح الأطباء الذين رغبوا فى الإشراف عليه لمزيد من الوقت، لكن المال الذى معه لم يكف لكل هذا، فأرادت لاثارا أن تزيد المبلغ المتبقى بشىء آخر، ولو ضئيلاً، من المدخرات المخصصة للأبناء، غير أنها وجدت فى الحصالة أقل مما كانت تتوقع، وعندئذ اعترف لها هوميرو بأنه أخذ بعض النقود خلسة لاستكمال مصاريف المستشفى.

- حسن - قالت لاثارا مستسلمة - لنقل أنه كان الابن الأكبر.

فى الحادى عشر من ديسمبر ذهبوا به إلى المحطة ليأخذ القطار المتجه إلى مرسيليا، كانت هناك عاصفة ثلجية عاتية. عندما عادا إلى المنزل وجدا رسالة وداع موضوعة على الكومود الخاص بحجرة نوم الأطفال. ترك معها دبلة الخطوبة لباربارا ومعها دبلة زوجته التى توفيت، والتى لم يحاول بيعها أبداً؛ كذلك الساعة من أجل لاثارا. ولما كان يوم الأحد فإن بعض الجيران من

أبناء الكاريبى عرفوا بالسر وذهبـوا إلى محطة القطار "كورنافين" وهم يحـملون بعض الآلات الـوترية من "بيـراكـروث" لم يكن الرئيس فى حالـة معنوية جيـدة. كان يرتدى المعطف غـير المهندم وشالاً رفيـعًا ملونًا يلفه حول رقبـته أهدته إياه لاثارا. ورغم هذا ظل فى آخر. كان فى العربة الأخيرة يودعـهم ملوحًا بالقبعة تحت ضربات العاصـفة الثلجية. أخذت سـرعة القطار فى الازدياد فى الوقت الذى أدرك فيه هوميرو بأن العصا لا زالت معه فجرى حتى آخر الرصيف وقذف بها بقـوة حتى يلتقطها الرئيس وهى تطير فى الهواء. لكنها سقطت بين عـجلات القطار وتحطمت. كانت لحظة رعب. كان آخـر شىء رأته لاثارا هو اليد المرتعـشة التى امـتدت لتلتقط العكاز. ولم تستطع أبدًا نسيان تلك الصورة وكذلك صورة عامل القطار الذى استطاع أن يمسك العـجوز بواسطة "التلفيحة" بعد أن غطاه الثلج وأنقذه من السقوط. جرت لاثارا، وقد أصابها الهول لما رأت، لتلحق بزوجها محاولة الابتسام بعد الدموع.

- يا إلهى - صاحت - هذا الرجل لا يموت من شىء.

وصل سليـمـاً معـافى وذلك طبـقًـا لتلغـراف شكر مطول أرسله، وطوال أكثر من عام لم يعرف عنه شئ، بعد ذلك وصلت رسـالة مكونة من ست صـفحـات مكتوبـة بخط اليد، كـان من المستـحيل التعرف عليـه، فقد عاودته الآلام بنفس القـوة والشدة المعهودتين سـابقًا، إلا أنه قرر ألا يوليهمـا أى اهتمام وأن يكرس

نفسه للحياة كيفما اتفق. وقام الشاعر حاييم قيصر بإهدائه عكازاً آخر مطعماً بالصدف، لكنه قرر ألا يستخدمه. أمضى ستة أشهر وهو يتناول اللحم بشكل منتظم كما كان يتناول بعض الرخويات البحرية وكان قادراً على تناول ما قد يصل إلى عشرين فنجان قهوة يوميًا، لكنه لم يعد يقرأ طالعه فى الفنجان، ذلك أن توقعاته تؤتى العكس تمامًا. ويوم أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر، تناول عدة كئوس من رون مارتينيكا الممتاز كان لها تأثير طيب عليه. كما عاد للتدخين، لم يكن يشعر بتحسن، لكنه أيضًا لم يشعر بأن حالته تسوء. السبب الذى جعله يكتب هذه الرسالة هو إبلاغهما برغبته فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله رغم أن ذلك قد يكون الدافع من ورائه هو الفخر التعس بأنه لم يمت فى سريره من الشيخوخة.

انتهت الرسالة مشيرة إلى الاتجاه الجديد، وكأن رحلته إلى جنيف كانت بمثابة النبوءة بما سيحدث.

ريح الشمال

(١٩٨٢)

رأيته مرة واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونة. كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى. إذ كان يطارده بعض من الشبان السويديين فى محاولة منهم لإجباره على الذهاب معهم فى الثانية فجراً لقضاء بقية السهرة فى "كاداكيس" كان عددهم أحد عشر فرداً من الصعب تمييزهم عن بعضهم ذلك أن الأولاد والبنات كانوا يشبهون بعضهم البعض، يتمتعون بالجمال والسيقان غير الغليظة والشعر الطويل الذهبى اللون. أما هو فعمره لا يزيد على عشرين سنة تقريبًا، شعره مجعد، وفى خصلات مرتفعة كأنها عرف الديك، أما بشرته فهى تميل إلى السمرة والنعومة التى عليها أهل الكاريبى الذى عودتهم أمهاتهم ألا يعرضوا أنفسهم للشمس. ونظرته هى تلك النظرة العربية التى تخلب لب السويديات وربما بعد السويديين أيضًا. جعلوه يجلس على طاولة البار وكأنه دمية من تلك التى يستخدمها الكوميديون وكأنها تتحدث، وأخذوا يغنون له الأغانى الشهيرة وهم يصحبون غناءهم بالتصفيق بالأيدى، وذلك حتى يذهب معهم. كان يشعر بالفزع وهو يشرح لهم الأسباب التى من أجلها يرفض الذهاب. تدخل أحد ما صائحًا

ومطالبًا بأن يتركوه لحاله، فما كان من أحد السويديين إلا الوقوف في وجهه وهو يموت ضحكاً.

- إنه لنا - صاح - لقد وجدناه في صفيحة الزبالة.

كنت قد دخلت قبل تلك اللحظة بقليل، وكان معي بعض الأصدقاء بعد أن حضرنا الحفل الموسيقى الأخير الذي قدمه / دافيد أويستراك في قصر الموسيقى .Palau de la prusi واقشعر بدني مما عليه السويديون من عدم تصديق لما يقول. الأسباب التي يذكرها الفتى مقدسة عنده، فقد عاش في "كاداكيس" حتى الصيف الماضي، وهناك تعاقدوا معه ليغني أغاني الكاريبي في أحد الكانتينات من تلك التي على الموضة، واستمر في ذلك هزمته ريح الشمال، واستطاع الفرار في اليوم التالي وهو عازم ألا يعود إليها أبدًا سواء مع هذه الرياح أو بدونها، فقد كان على يقين من أنه لو عاد فإن الموت في انتظاره. كان ذلك يقينًا من ذلك النوع الذي عليه أهل الكاريبي، ومن المستحيل على "شلة" من أهل شمال أوروبا العقلانيين أن يستوعبوه وخاصة إذا ما كان مرح الصيف قد أخذ عقولهم وساعد في ذلك النبيذ القطلاني القوي والذي كان يبرز حبوبه المجنونة في القلوب.

إنني كنت أفهمه كما لم يفهمه أحد. "كاداكيس" هي واحدة من القرى الجميلة على شاطئ "كوستابرابا" ظلت تحافظ على نمطيتها وهذا يرجع - في جزء منه - إلى أن الطريق الموصل

إليهـا هو طريق الكورنيش الضيق والمتعـرج الذى يطل على هاوية بلا قرار لدرجة أن عـلى المرء أن يكون متماسكًا وقـوى الأعصاب وهو يقود بسـرعة خمـسين كيلومتـراً فى الساعة. المنازل كـالعادة بيضاء وغـير مرتفعة وهذا شأن كل المنازل فى قـرى الصيادين فى حوض البحـر الأبيض المتوسط. أما البيوت الحـديثة فقد صمـمها مهـندسون مـشهورون احـترمـوا فى تصمـيمـهم الانسجـام بين الوحدات القـديمة والحديثـة. وعندما تبـدأ تباشيـر الصيف وهى قادمة من الصحراء الأفريقية الموجودة على الشاطئ المقابل، كانت "كاداكيس" تتحول إلى "بابل الجحيم" إذ تغُص بالسياح القادمين من كافة أنحاء أوروبا، ويظل الحال على هذا النحو، فى مقاتلتهم لأهل البلدة من أجل جنتـهم وكذا مـقاتلة هؤلاء الأغـراب الذين استطاعـوا شراء منزل هناك مـقابل سعـر معقـول فى الزمن الذى مضى، أما أثناء الخريف والربيع كانت "كـاداكيس" أكثر جاذبية، حـيث الناس يفكرون وهم خائـفون فى ريح الشـمال الآتيـة من أراضى قـاسية لا تـرحم، وهى رياح طبقًـا لأهل البلدة، وبعض الكتاب الذين أصابهم مكروه منها، تحمل معها بذور الجنون.

منذ خمسـة عشر عاماً كنت أنا واحـداً من الحريصين على زيارة البلدة حتى تدخلت ريح الشـمال فى حياتنا. ولقـد شعرت بها قبل أن تهب. كان ذلك يوم الأحد عند ساعة القيلولة. حيث واتانى هاجس غير مفهوم بأن شيـئًا سيحدث. إذ هبطت معنوياتى

وشعــرت بالحزن دون سبب واضح، وواتانى أيضًا الإحــساس بأن أبنائى - الذين كــانت أعــمارهم آنذاك تقــل عن عشــر سنوات - يسيــرون خلفى فى المنزل بنظرات عدائية. دخل البــواب بعد ذلك بقليل وهو يحمل صندوقــاً به بعض العدة وبعض الحبــال الخاصة بالملاحة البحرية لتأمين الأبواب والنــوافذ. لم تكن حالتى النفسية مفاجأة له.

- إنها ريح الشــمال - قــال لى - فستــهب بعد ســاعة من الآن.

كان قديماً يعمل فى البــحار، طاعناً فى السن، يحتفظ من مهنتــه القديمــة بالجاكــيت الواقى من المطر وطاقيــة البحــار وكذا "الغليون" وجلده الذى تجعــد من كثرة ملامسته للــمياه المالحة فى العالم. يســتغل ساعــات الفراغ فى لعب الـ (Petanca الجلة) فى الميدان مع بعض من خــاضوا حروباً خــاسرة فى الماضى، ويتناول المشهيات مع السياح فى حانات الميدان إذ من سماته قدرته على أن يفهمه الآخرون وهو يتحدث بقطلانيته المتفجرة مهما كانت اللغات التى يتكلمون بها. هو شديد التباهى بمعرفته كل موانئ الدنيا لكنه لا يعرف أى مدينة من المدن الداخلية " ولا حــتى باريس عاصمة فرنسا بكل ما لها" - يقول- فهــو لا يؤمن بأى وسيلة انتقال غير البحر.

ظهرت عــليه علامــات الشيــخوخــة فجأة خــلال السنوات الأخيرة ولم يعد يخرج للشــارع إذ أخذ يقضى معظم الوقت وهو

جالس فى الجحر المخصص للبواب، كان يعيش وحيد الروح، كعادته فى العيش دومًا. يطبخ طعامه فى علبة يضعها على موقد كحولى، وهذا كان يجعلنا نتذوق جميعًا أشهى ما فى المطبخ القوطى. يولى اهتمامه بالسكان مع شروق الشمس. هو رجل خدوم للغاية لم أعرف مثله أبدًا، وطيب طيبة لا إرادية، وبه الحنان الخشن للقطلانيين. قليلاً ما يتحدث، لكن أسلوبه مباشر وصادق، وعندما يتوفر لديه الوقت يقوم بملء المطبوعات الخاصة بمسابقات الكرة لكنه نادرًا ما يذهب لإيداعها بشكل رسمى.

وبينما يقوم فى ذلك اليوم بإحكام إغلاق الأبواب والشبابيك فى محاولة لاتقاء الكارثة تحدث معنا عن ريح الشمال وكأنها امرأة بغيضة، لكن حياته تفتقر لمضمون بدونها، والمفاجأة عندى تتمثل فى أن رجلاً من رجال البحر يعمل ألف حساب لرياح تهب من الداخل.

- الأمر هو أن الريح أقدم - قال.

كان يعطى الانطباع بأن العام الذى يعيشه لا ينقسم إلى أيام وأشهر بل ينقسم إلى عدد المرات التى هبت فيها ريح الشمال. "خلال العام الماضى، وبعد ثلاثة أيام من ريح الشمال الثانية، تعرضت لآلام" قال لى ذات مرة، وربما كان ذلك يفسر عقيدته القائلة بأن الإنسان تظهر عليه علامات الشيخوخة بعد كل هبوب لهذه الرياح وكأنه تقدم به العمر عدة سنوات، أدى هوسه بهذه

الرياح إلى إيقاظ رغبتنا الشديدة فى معرفتها فى زيارة قاتلة ولذيذة.

لم ننتظر طويلاً، فلم يكد يخرج البواب حتى سمع صفيراً أخذ يزداد حدة وقوة فى كل مرة، وتحول بعد ذلك إلى ما يشبه صوت هزة أرضية، وعندها بدأ هبوب الريح، أخذت فى البداية شكل نوبات متباعدة ثم زادت فى توالى إيقاعها حتى جاءت نوبة مستمرة بدون توقف أو سكون. كانت تتسم بالقوة والفظاعة لدرجة يحسب المرء معها أن بها شيئًا غير عادى. كانت شقتنا فى مواجهة الجبل، وهذا عكس المنزل الذى كان لنا فى الكاريبى، وربما يرجع هذا إلى المزاجية الغربية التى عليها القطلانيين الخلصّ الذين يحبون البحر لكنهم لا يرونه. والخلاصة أن الرياح تضرب المنزل من الناحية الأمامية وتهدد بالقضاء على الاستحكامات المتخذة لجعل النوافذ مغلقة.

الشيء الذى لفت انتباهى هو أن الطقس ظل على حالة من الجمال الآخاذ إذ كانت الشمس ذهبية والسماء صافية. وعلى ذلك قررت الخروج إلى الشارع وبرفقتى الأطفال لنرى حالة البحر، ولا خشية فى ذلك فهم تربوا على زلازل المكسيك وأعاصير الكاريبى، وإذا ما كانت هناك رياح أقل أو أكثر شدة، فهذا فى نظرنا ليس مثيراً للقلق. مررنا بجحر البواب ونحن على أطراف أصابعنا ورأيناه ثابتاً فى مكانه وأمامه طبق الفاصوليا والنقانق يتأمل الريح عبر النافذة. لم يرنا ونحن خارجين.

استطعنا السير فى حماية جدران المنزل، لكن عندما وصلنا إلى الناصية المؤدية إلى البحر كان علينا أن نحتضن بعضنا البعض وكأننا قطعة واحدة حتى لا تجرفنا الرياح بقوتها. ظللنا هكذا نتأمل بإعجاب البحر الساكن الصافى وسط هذه الرياح العاتية حتى جاء البواب ومعه بعض الجيران وأنقذونا. فى هذه اللحظة فقد أدركنا أن المسلك المنطقى السليم هو أن نظل فى المنزل إلى أن يشاء الله. ولم يكن لدى أحد أى فكرة عن متى تحدث هذه المشيئة.

بعد يومين كان لدينا انطباع بأن هذه الرياح العاتية لم تكن ظاهرة أرضية بل كانت نوعاً من العدوانية الشخصية ترتكب ضد فرد. كان البواب يزورنا عدة مرات فى اليوم وهو قلق على حالتنا المعنوية" ويأتى لنا بفواكه منَ فواكه الموسم، وكعكًا للأطفال، وفى طعام الغداء يوم الثلاثاء أهدانا أفضل شىء فى الأطعمة القطلانية وهو طبق أعدته فى الصحفية التى كان يطبخ فيها: إنه طبق الأرانب بالكاراكول. كانت حفلة بهيجة وسط الرعب.

كان ذلك الأربعاء هو أطول أيام حياتى. لم يحدث فيه شىء إلا الرياح وهى تهب، لكنه ربما كان بمثابة الظلمة التى تسبق الفجر الصادق. فبعد منتصف الليل استيقظنا جميعًا فى لحظة واحدة وقد هزنا صمت مطبق ليس له مثيل إلا صمت الموت. حتى أوراق الشجر لم تكن تهتز واستمتعنا بسماء الفجر بكل

نجومها المتلألئة، وكذا بالبحر الفوسفورى. ورغم أن الساعة كانت قبل الخامسة بقليل فقد كان الكثير من السياح يروحون عن أنفسهم على أحجار الشاطئ وبدأوا فى إعادة تركيب قلاع المراكب بعد ثلاثة أيام من اللاحركة.

عندما خرجنا لم يجذب انتباهنا أن حجرة البواب مظلمة. لكن عندما عدنا إلى المنزل كان للهواء نفس الطابع الفوسفورى الذى عليه البحر ولا زال جحر البواب مظلمًا. استغربت وقرعت الباب مرتين، ولما لم يجب أحد دفعت الباب. أعتقد أن الأطفال رأوه قبلى وصاحوا صيحة فزع، كان البواب العجوز معلقًا من رقبته بحبل مربوط فى الدعامة الأفقية للسقف، وجثته لا زالت تتأرجح من جراء الزوبعة الأخيرة لتلك الريح. يرتدى كل ما عنده من ملابس البحارة ويعلق على ياقة الجاكتة كل ما حصل عليه من نياشين.

تركت القرية قبل الوقت المحدد ونحن فى أوج المتعة ونعيش حالة اشتياق مبكرة. وقد عزمنا على ألا نعود إليها أبداً. كان السياح قد عادوا إلى الشارع مرة أخرى وملأت الموسيقى الميدان الذى يؤمه الطاعنون فى السن والذين لم تكن حالتهم المعنوية جيدة ليعاودوا ممارسة لعبتهم المفضلة. ومن خلال الزجاج المترب لبار "مارتيم" استطعنا أن نرى بعض الأصدقاء الذين ظلوا على قيد الحياة وقد بدأوا الحياة مرة أخرى فى الربيع الوضاء لرياح الشمال. لكن كل هذا أصبح جزءاً من الماضى.

لهذا السبب قضى الفجر الحزين فى كباريه "بوكاكثيو" ولم يستطع أحد أن يتفهم أكثر منى حالة الفزع التى يشعر بها إنسان ما وهو يعود إلا "كـاداكيس" ذلك أنه متأكـد من موته. ورغم ذلك لم تجد أية طريقة حتى يقلع السـويديون عن رغبتهم، وانتهى بهم الأمر بأن أخـذوا الفتى مـعهم بالـقوة بغيـة أن يعالجـوه من هذه الخزعبلات الأفريقية التى يؤمن بها. ووضعوه وهو يضرب بقدميه عـلامة على الرفض فى شـاحنة صغـيـرة مليئـة بالسكارى وسط تصـفيق وصـفـير الجـمهـور الذى انقـسم على نفـسه بين مـؤيد ومعارض، وبدأوا فى تلك اللحظة الرحلة الطويلة إلى كاداكيس.

أيقظنى جرس التليفون صبـاح اليوم التالى. كنت قد نسيت إغلاق السيارة عندما عدت من الحفلة ولـم أكن أعرف كم الساعة، لكن حجرة النوم كان يملؤها ضوء الصيف. أيقظنى الصوت الذى يصلنى عبر التليفون وبه نبرات جزع ولم أستطع التعرف عليه.

- أتذكر ذلك الفتى الذى أخذوه معهم ليلاً إلى كاداكيس؟

لـم أسمع أكثـر من هذا حتى أخمن ما حـدث له بل وأكثر دراميـة ما تصـورت. فزع هذا الفتى لأن العـودة وشيكة وانتـهز فرصـة تلهى فيـها هؤلاء السويديون المعـتوهون وألقى بنفـسه فى الهوة السحيـقة والشاحنة تسير، فى محـاولة منه للهرب من موت محقق.

الفهرس

مدخل 3
الإذعان الثالث (١٩٤٧).. 31
عينا كلب أزرق (١٩٥٠) 45
ليلة طيور الكروان (١٩٥٣) 57
الأمسية المدهشة التى قضاها بلنتار(١٩٦٢).................... 67
قيلولة الثلاثاء (١٩٦٢).. 83
جنازة الأم الكبرى (١٩٦٢).................................... 97
الموت الدائم فيما وراء الحب (١٩٧٠)........................ 123
الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب
«إيريندیرا» وجدتها القاسية (١٩٧٤).......................... 137
الصيف السعيد للسيدة / فوربس (١٩٧٦)...................... 223
جئت لأتصل بالتليفون فقط (١٩٧٨)............................ 245
رحلة طيبة يا سيدى الرئيس (١٩٧٩)......................... 273
ريح الشمال (١٩٨٢).. 317

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت: أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت . شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت . أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت . محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	ت . سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت . يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودي	ت . محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت: هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت . أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت . عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسي والأدب	جان بيلمان نويل	ت . حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لوسي سميث	ت . أشرف رفيق عفيفي
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت . بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت . محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ت . ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصري
٢٣- تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	ت: سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت: بكر عباس
٢٥- مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	ت . إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	ت . منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت: أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت . مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت · محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت · أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت المهدي أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت · مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت محمود السيد علي
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت · مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتي
٤٩- الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت · محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت · لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت مرسي سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت · محسن مصيلحي
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت · علي يوسف علي
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمود علي مكي
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت · محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت · صبري محمد عبد الغني
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهري
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعي .
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت . رمسيس عوض .
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدي أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت حسين محمود

٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيميونوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦- چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة . النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت . مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت . ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت . إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت . محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيدرستون وسكوت لاش	ت . عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت . عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت . عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت . د. أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي   مجموعة من النقاد   ت: محمود علي مكي

١٠٩- حروب المياه   چون بولوك وعادل درويش   ت: هاشم أحمد محمد

١١٠- النساء في العالم النامي   حسنة بيجوم   ت: منى قطان

١١١- المرأة والجريمة   فرانسيس هيندسون   ت: ريهام حسين إبراهيم

١١٢- الاحتجاج الهادئ   أرلين علوي ماكليود   ت: إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد   سادي پلانت   ت: أحمد حسان

١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع   وول شوينكا   ت: نسيم مجلي

١١٥- غرفة تخص المرء وحده   فرچينيا وولف   ت: سمية رمضان

١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)   سينثيا نلسون   ت: نهاد أحمد سالم

١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام   ليلى أحمد   ت: منى إبراهيم، وهالة كمال

١١٨- النهضة النسائية في مصر   بث بارون   ت: لميس النقاش

١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق   أميرة الأزهري سنبل   ت: بإشراف/ رؤوف عباس

١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط   ليلى أبو لغد   ت: نخبة من المترجمين

١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية   فاطمة موسى   ت: محمد الجندي، وإيزابيل كمال

١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان   جوزيف فوجت   ت: منيرة كروان

١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية   نينل الكسندر وفنادولينا   ت: أنور محمد إبراهيم

١٢٤- الفجر الكاذب   چون جراي   ت: أحمد فؤاد بلبع

١٢٥- التحليل الموسيقي   سيدريك ثورپ ديڤي   ت: سمحة الخولي

١٢٦- فعل القراءة   ڤولفانج إيسر   ت: عبد الوهاب علوب

١٢٧- إرهاب   صفاء فتحي   ت: بشير السباعي

١٢٨- الأدب المقارن   سوزان باسنيت   ت: أميرة حسن نويرة

١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة   ماريا دولورس أسيس جاروته   ت: محمد أبو العطا وآخرون

١٣٠- الشرق يصعد ثانية   أندريه جوندر فرانك   ت: شوقي جلال

١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)   مجموعة من المؤلفين   ت: لويس بقطر

١٣٢- ثقافة العولمة   مايك فيذرستون   ت: عبد الوهاب علوب

١٣٣- الخوف من المرايا   طارق علي   ت: طلعت الشايب

١٣٤- تشريح حضارة   باري ج. كيمب   ت: أحمد محمود

١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت   ت. س. إليوت   ت: ماهر شفيق فريد

١٣٦- فلاحو الباشا   كينيث كونو   ت: سحر توفيق

١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية   جوزيف ماري مواريه   ت: كاميليا صبحي

١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف   إيڤلينا تاروني   ت: وجيه سمعان عبد المسيح

١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس   عاطف فضول   ت: أسامة إسبر

١٤٠- حيث تلتقي الأنهار   هربرت ميسن   ت: أمل الجبوري

١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية   مجموعة من المؤلفين   ت: نعيم عطية

١٤٢- الإسكندرية: تاريخ ودليل   أ. م. فورستر   ت: حسن بيومي

١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي   ديريك لايدار   ت: عدلي السمري

١٤٤- صاحبة اللوكاندة   كارلو جولدوني   ت: سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت: أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت: على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت: عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت: على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت: أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢، ج١	فرنان برودل	ت: بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت: محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت: فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت: خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت: أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى انبال وآلان وأوديت فيرمو	ت: مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوحى	ت: عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢، ج٢	فرنان برودل	ت: بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت: حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إيبنوفر	ت دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرُج علوى	ت:علاء منصور
١٨٨- موت الادب	الفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	پول دى مان	ت:سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغى	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت. فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت. مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	ت. أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت. على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت. محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت. يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت. سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت. أشرف الصباغ
٢١٧- عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيف سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خوليو كورتازان	ت. على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت. على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت رفعت سلام

٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	ت· نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	بول ميرابنر	ت. السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت منى عبدالظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥- حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت طاهر محمد على البربرى
٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريديا ديف بوركى	ت السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت· مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدراقيل	خايمى سالوم بيدال	ت جمال أحمد عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستينر	ت· مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال	ارثر هرمان	ت طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس التبريزى	جلال الدين مولوى رومى	ت. إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل تود	ت· أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت· عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	الانكتاد	ت ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت صلاح عبدالعزيز محمود
٢٤١- فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ت ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت· صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت: على عبدالرؤوف البمبى
٢٤٤- الغليان	لاورا إسكيبيل	ت. نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا اديس	ت توفيق على منصور
٢٤٦- قصص مختارة	جابرييل جارثيا ماركث	ت. على إبراهيم على منوفى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٠٧٥ / ٢٠٠٠